

# إِطَّاعُ الْبَيِّنَاتِ

## فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَفْسِيرُ جُزْئِي الْعَنْكَبُوتِ وَالْأَجْزَابِ

(٢١ - ٢٢)



تَأَلَّفَ

أ. د. / حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ شَيْبَانِي

أَسْنَادُ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ فِي جَامِعَةِ ابْت



لَطَائِفُ الْبَيِّنَاتِ  
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَفْسِيرُ جُزْئِي الْعَنَكُوتِ وَالْأَحْزَابِ  
(٢١ - ٢٢)



العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي العنكبوت والأحزاب (21 - 22).

تأليف: أ.د. حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (334).

الطبعة: الأولى، 1446 هـ - 2025 م.

الناشر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024 م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

من أراد طبعه وتوزيعه مجاناً،  
فليتواصل مع المؤلف للإذن له به.



# لطائف البَيِّنَات في تفسير القرآن

تفسير جزيء العنكبوت والأجزاء  
(٢١ - ٢٢)

تأليف

د. / حسين بن محمد بن علي شيبان  
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إرب



GAFAQ for studies and publishing



## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

**فإن شرف العلم بشرف المعلوم**، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار - جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

**وكانت تلك الدروس عبارة عن** درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

**وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس** على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالباً، مع أخذ الدروس والعبر منها بقدر الإمكان.

**وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل** أن يتم تفريغها نصياً من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق



بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: **”لطائفُ البيان في تفسير القرآن“**.

**وقد تم والله الحمد** إنجاز الكتاب الخامس من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (العنكبوت والأحزاب) (21-22).

**ويسرني هنا** أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

**كما أئب القراء الكرام** إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتكم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

### المؤلف

إب الخضراء - اليمن

1 رمضان المبارك 1446 .



# تفسير جزء العنكبوت

## ( 21 )





## تفسير سورة العنكبوت

## تفسير المقطع الأول من سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَلَمْ أَحَسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ءَعْلَمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَّعَ أَنْفَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾



## شخصية السورة:

**سورة العنكبوت؛** سورة مكية كلها في قول الجمهور<sup>(1)</sup>، وقيل: إنها آخر ما نزل بمكة<sup>(2)</sup>، ومنهم من يرى أن الإحدى عشر آية الأولى نزلت في المدينة لذكر النفاق والمنافقين فيها<sup>(3)</sup>، والمقصد العام لهذه السورة هو الأمر بالصبر والثبات عند الابتلاء، لأن الابتلاء سنة الله تعالى في الخلق، وخاصة الصالحين، فإنهم أكثر الناس ابتلاءً وامتحاناً في دينهم، ومن صبر منهم فعاقبته حميدة.

**قال الله تعالى:** ﴿الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ﴾<sup>(٢)</sup>، ابتدأت السورة بالأحرف المقطعة، **وسبق أن بينا** أنها أحرف من حروف الهجاء، وأن الله ذكرها في بداية بعض السور لبيان إعجاز القرآن المكوّن منها، فأغلب السور التي افتتحت بالحروف الهجائية ذكر بعدها القرآن، إلا ثلاث سور لم يُذكر القرآن فيها مباشرة، وإنما ذكر في ثناياها، **وهي:** سورة العنكبوت، وسورة مريم، وسورة الروم، والاستفهام تقييد وإنكار لذلك الظن واستبعاده<sup>(4)</sup>، **والمعنى** أظن الناس أن يقولوا آمنا فتركوا من دون ابتلاء، فجرى فيه تقديم وتأخير، فكل إنسان ينطق بالإيمان بالله فإنه مُعرّض للابتلاء بسبب إيمانه، ويتفاوت الابتلاء بتفاوت

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6 / 263)، والتحرير والتنوير: (20 / 199).

(2) ينظر: تفسير الألوسي: (10 / 337).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4 / 305).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (20 / 202).



الإيمان، **كما في الحديث:** "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه" <sup>(1)</sup>، **والفتنة هي** الاختبار، فقد يُختبر بدينه أو بماله أو بنفسه أو بأهله وأولاده وسائر أمور حياته؛ لِيُنْظَرَ هل يصبر ويثبت أم يكفر ويترك، ثم يبين أن الفتنة سنة ماضية في كل مؤمن، فقد وقع الاختبار لمن آمن من قبل هذه الأمة من الأمم السابقة، **وفي الحديث:** أن خباب بن الأرت **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: أتيت النبي **ﷺ** وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد وهو محمراً وجهه فقال: "لقد كان من قبلكم لِيُمَشَّطَ بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفراق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليكنن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله" <sup>(2)</sup>، **وفي الآية والحديث** تصبير وتسلية لمن ابتلي من هذه الأمة، ثم ذكر الغاية من الاختبار والابتلاء وهو معرفة الصادق في دعوى الإيمان ممن هو كاذب فيه؛ لأن العلم نوعان: علم الله الأزلي بالأشياء قبل وقوعها، والعلم المترتب على حدوثها في الواقع، والثاني هو المرتبط به التكليف والثواب والعقاب للخلق، فإن الله لا يؤاخذ الناس بعلمه الأزلي، وإنما بالعلم المتحقق في الواقع الذي يطلع عليه الناس، وبهذا يزول

(1) مسند الدارمي: (921 / 2)، برقم: (2813)، والمستدرک على الصحيحين للحاكم:

(91 / 1)، برقم: (121)، وإسناده صحيح.

(2) صحيح البخاري: (45 / 5)، برقم: (3852).



التعارض الذي يظنه البعض في آيات العلم المتعلقة بالذات الإلهية، فمعناه: أن علم الله الأزلي يظهره في الواقع فيعلمه الخلق.

**وقوله:** ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٤)،

الخطاب موجه للكفار الذين كانوا يؤذون المؤمنين في مكة بسبب إيمانهم، وفي الاستفهام توبيخ وتقريع للكافرين الذين يعملون القبائح ويؤذون المؤمنين وظنوا أنهم سيهربون من عقوبته وعذابه، فذلك لن يتحقق لهم، وظنهم هذا قبيح؛ لأنهم ظنوا بالله العجز وعدم القدرة عليهم، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي الآية إشارة إلى تحذير المسلمين من مشابهة الكفار في اقتراف السيئات.

**وقوله:** ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥)، في الآية

تبشير للمؤمن الصابر الثابت على دينه المخلص لله في عمله، فصدق رجائه في الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يُقابله صدق التحقق والوقوع، وأجل الله هو الوقت الذي عينه الله في علمه للبعث والحساب يوم القيامة<sup>(1)</sup>، وهو آتٍ لا محالة، وذيل الآية بذكر اسمي السميع العليم؛ إشارة إلى أن الله قد سمع قولهم، وعلم ما يدور في نفوسهم.

**وقوله:** ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٦)، الجهاد

بذل الوسع في تحقيق شيء ما، وهو لفظ عام يشمل جميع أنواع الجهاد، وأولها مجاهدة النفس بالإيمان والتقوى وفعل الطاعات وترك المعاصي والمُحرمات، وجهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد المنافقين وغيرهم من أصحاب

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 307).



الشبهات بالحجة والبيان، وأجرُ ذلك الجهاد وثمرته وثوابه يعود لفاعله، ولا يرجع إلى الله من ذلك شيء، فالله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العصاة، وكل من يعبد الله من عوالم الملائكة والإنس والجن، فالله غني عنهم أجمعين.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧)، فمن جاهد نفسه فحقق الإيمان وعمل الصالحات مع الإيمان، فهما متلازمان لا ينفع أحدهما بدون الآخر، فهو موعود من الله بمحو سيئاته وإزالة آثارها، ومنحه أحسن الأجور وأتمها لأعماله التي كان يعملها في الدنيا، فيقبل القليل من الحسنات، ويشب على الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا من كرم الله وفضله عليهم.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)، ثم أمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على الإيمان بالله، فالوالدان سبب وجود الإنسان، ولهما عليه حق كبير، نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص، وقد كان شاباً باراً بأمه، وكانت أمه حمنة بنت أبي سفيان تحبه، وكانت تحسن إليه، ولكنه لما أسلم غضبت منه وهجرته وأقسمت عليه يميناً إن لم يكفر بمحمد ودينه فإنها لا تأكل الطعام ولا الشراب حتى تموت ويعيره الناس بأنه قتل أمه، فمكثت ثلاثة أيام بلياليها لا تأكل شيئاً، وكان لسعد أخ آخر اسمه عمارة وكان يفتح فمها بالعصا ويضرب فيها الماء حتى



لا تموت، وكانوا يحاولون مع سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لعله أن يرجع وهو ثابتٌ على إيمانه، فأنزل الله هذه الآية عذراً له وتخفيفاً عنه<sup>(1)</sup>، فهذا نوع من الامتحان، امتُحن هذا الرجل بأمه، لأن الإنسان قد يُمتحن بأقرب الناس إليه، فأرشده الله إلى أن يبر بوالديه المشركين ويحسن إليهما، لكن لا يكفر بالله، وإن بذلا جهدهما لمنعك من الإيمان وعودتك إلى الشرك؛ فلا تستجب لهما، فجمع له بين أمرين كان يظنها البعض أنها متناقضة، وهما طاعة الوالدين المشركين والإيمان بالله وعدم الشرك به، وهذا حكمٌ عام يشمل كل إنسان من المؤمنين إلى اليوم، بأن يُحسن إلى والديه وأن يعاملهما معاملةً حسنة، وإن بذلا جهداً كبيراً في دعوته إلى الشرك الذي لا يوجد دليل ولا حجة على جوازه، فلا تطعهما، وقيد الشرك بغير علم؛ لبيان أن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه<sup>(2)</sup>، وقد كان المشركون يُشركون بالله تقليداً لأبائهم، وذكر الوالدين لمكانتهما، فمن باب أولى لا يجوز طاعة غيرهما كالأخ والابن والعم والصديق ونحوهم، فلا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق سبحانه، ومرجع الجميع يوم القيامة إلى الله سبحانه، فيخبر كل إنسان بعمله ويجازيه عليه، فإن كان من أهل الكفر والشرك حشره الله مع الكافرين وأدخله النار معهم، وإن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح حشره الله مع الصالحين الراسخين في الصلاح، وأدخله الجنة معهم.

(1) ينظر الحديث في صحيح مسلم: (4/ 1877)، برقم: (1748).

(2) ينظر: تفسير أبي السعود: (7/ 31).



**ثم قال سبحانه:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾، ثم ذكر نوعاً آخر من الفتنة، فبعض الناس يدخل في الإسلام وينطق الشهادتين بدون قناعة ولا يقين به، وإنما لمصلحة، فإن لم يؤذه أحد استمر عليه، وإن حصل له أدنى أذية في ماله أو أهله بسبب إيمانه، لم يصبر على الأذى، بل يترك الإيمان ويرتد إلى الكفر والشرك، وذلك بسبب فساد تصوره وقلة علمه حين جعل ابتلاء الناس له في الدنيا مساوياً لعذاب الله للكافرين في الآخرة، وشتان بينهما، فمهما لحق بالمخلوق من عذاب في الدنيا فلا يُساوي شيئاً يسيراً من عذاب الله في الآخرة، ولكنهم حين ينتصر المؤمنون يتواصلون بهم ويدعون أنهم كانوا مع المؤمنين، لعلهم أن يحصلوا على نصيبهم من مصالح الدنيا، وهذا يدل على أنهم منافقون، وأن هذه الآيات مدنية<sup>(1)</sup>، وربما حصل مثل هذا لبعض ضعفاء الإيمان في مكة، حين يعذبهم المشركون فيرتدون عن الإيمان ويرغبون بالبقاء على صلة بالمؤمنين للاستفادة الدنيوية منهم<sup>(2)</sup>، **وعقّب الله على قولهم هذا بسؤال استنكاري، ومعناه:** أتكذبون على الله وهو يعلم ما في قلوب الخلق من الإيمان والكفر، وهذا دليل على قبح تصورهم وفساد عقولهم، ثم بيّن أنهم بفعلهم هذا يتحقق العلم بنفاقهم في الواقع، ويتحقق العلم في الواقع بثبات

(1) ينظر: تفسير الطبري: (20 / 14).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4 / 224).



وصبر المؤمنين، ف يتميز المؤمن المخلص بإخلاصه والمنافق بنفاقه.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾، **وقال الكفار للمؤمنين:** كونوا على مثل ما نحن عليه من الكفر والتكذيب والشرك وعبادة الأصنام، وستحمل العقوبة عنكم يوم القيامة، قالوا ذلك جهلاً وغروراً ومحاولةً منهم في رد المسلمين عن دينهم، فعقّب الله عليهم بأنهم كاذبون في وعدهم هذا؛ لأن الخلق يوم القيامة يتبرؤون من أقرب الناس إليهم، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ [عبس: 34-35]، **ثم بين** أن من كان سبباً في ضلال غيره فلا بد أن يتحمل وزره ووزر من أضله، والأثقال كناية عن أوزار الذنوب والمعاصي؛ لأنها تثقل كاهل صاحبها حسيّاً ومعنويّاً، وذلك حين يكون الشخص مثقلاً بحمله ويضاف له حمل أناس آخرين فوق حمله زيادة في العناء والشقاء له<sup>(1)</sup>، وسيسألهم الله يوم يبعثون بين يديه عن كل افتراءاتهم، ولم يذكر معمول الافتراء ليشمل كل كذب حصل منهم سواءً في حق الله أو في حق الرسول أو في حق القرآن أو في حق المؤمنين.

(1) ينظر: التحرير والتنوير (20/ 221).



## فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- سنة الابتلاء سنة ماضية في الخلق، وخاصة في الصالحين، يُبتلى الرجل على قدر دينه.
- 2- غنى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن الخلق، فإنه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضر معصية العاصين.
- 3- بيان وجوب البر والصلة بالوالدين ولو كانا مشركين، وعدم الطاعة لهما في الكفر والمعصية.
- 4- أن الإيمان الصادق بالله يقتضي الثبات على الأذى والتحمل للابتلاء.



## تفسير المقطع الثاني من سورة العنكبوت

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُ بِرَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِّنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ، **أخبر الله سبحانه وتعالى** رسوله محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم بقصص الأنبياء والرسل الذين سبقوه وكذبتهم أممهم، تسليّة له، وبدأ بذكر نوح **عليه السلام**، وهو أول رسل الله **سبحانه وتعالى** إلى الأرض، فقد مكث الناس بعد خلق آدم عشرة قرون على التوحيد، ثم دخلهم الشرك فأرسل الله إليهم نوحاً، فعاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهل تشمل ما قبل البعثة وما بعد الطوفان أم لا؟، قولان للمفسرين<sup>(1)</sup>، وهو وقت طويل يكفي لإنذارهم، ومع ذلك كذّبوه، بعد هذه المدة الطويلة ما نفع فيهم البلاغ والإنذار، فما آمن معه منهم إلا قليل، فلا تأسف يا محمد على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، واختصر قصة نوح هنا وفصلها في سور أخرى، فلما يؤس نوح منهم دعا عليهم **بقوله:** ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: 10]، فنصره الله بالطوفان، وهو كل شيء كبير يستغرق جميع الأشياء<sup>(2)</sup>، **والمقصود به هنا** الماء الذي طاف الأرض كلها، والواو للحال، أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم بالكفر بالله حين نزلت بهم العقوبة، وأنجى الله نوحاً ومن معه في السفينة التي أمره الله بصنعها، والضمير يجوز أن يعود إلى السفينة ذاتها، أو إلى واقعة النجاة، أو إلى جنس السفن<sup>(3)</sup>، وجنس السفن باقٍ إلى اليوم، فمن لم يشاهد بقايا سفينة

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6 / 268).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4 / 164).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (20 / 223).



نوح يشاهد السفن التي تذكره بسفينة نوح ونجاته عليها، فكانت في ذلك عبرة وعظة لجميع سكان الأرض.

**ثم قال:** ﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦)، واذكر إبراهيم **عليه السلام** حين قال لقومه أفردوا الله بالعبادة، واتقوا غضبه وسخطه واتركوا الشرك بالله، ولا وجه للمقارنة بين الشرك والتوحيد، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم<sup>(1)</sup>، فلو كنتم تعلمون الفرق بين التوحيد والشرك، وبين التقوى والمعصية لما تجرأتم على الوقوع فيهما.

**ثم قال:** ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧)، ثم بين لهم حقيقة هذه المعبودات، وأنها أوثان مصنوعة من الأحجار أو الأشجار أو التراب، والوثن: هو الصنم المصنوع على شكل مخلوق، وباتخاذكم لها آلهة اختلقتكم الكذب، فأنتم تصنعونها بأنفسكم ثم تضيفون إليها ما لا تستحقه من صفات، والواقع أنها لا تملك شيئاً مما وصفتموها به، إن هذه الأصنام والأوثان التي اتخذتموها آلهة غير الله لا تملك أرزاقكم، ولا تملك لنفسها نفعاً، بل أنتم من تقومون عليها وتحرسونها، فأى شيء تريدونه من صنمٍ أو وثنٍ لا ينفع نفسه، ولا يسمع ولا يبصر، فكيف يطلبون منه الرزق؟! فقد كانوا يصنعون الأصنام لغرض البركة في أرزاقهم، ويدعونها أن تيسر أرزاقهم، **فأمرهم** الله بطلب الرزق منه وحده، والألف واللام للاستغراق،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني (4/ 227).



فهو مالكة وهو الذي يمنحه ويُعطيهِ للخلق إذا أخذوا بأسباب الحصول عليه،  
**وأمرهم** بالعبادة، وهي غاية الخضوع مع غاية التذلل لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، **وأمرهم**  
 بالشكر لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهو العمل بطاعته مقابل النعم التي أنعم الله بها عليهم،  
 وذيل الآية بوعظهم بأن الجميع سيجعون إلى الله يوم القيامة، فيُجازيهم على  
 الإيمان والعمل الصالح بالجنة، ويُعاقبهم على الكفر بالنار.

**وقوله:** ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمراً من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغُ

**الْمُبِينُ** ﴿١٨﴾، الخطاب ما زال سياقه من إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لقومه، والمقصود  
 بالرسول هنا إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فإن مهمة جميع الرسل هي البلاغ المبين لما  
 أرسلوا به إلى أقوامهم، وليس عليهم إدخال الإيمان إلى قلوبهم، **وقيل** <sup>(1)</sup>: إن هذه  
 الآية جاءت كجملة اعتراضية خوطب بها أهل مكة، وفصلت بين طرفي قصة  
 إبراهيم مع قومه، **والمعنى** وإن تكذبوا يا أهل مكة رسولكم، فقد كذبت أمم من  
 قبلكم رسلها، وما على الرسول محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلا مهمة البلاغ المبين لكم، وهو  
 أرجح؛ لأن إيراد قصة إبراهيم كان لإرادة التنفيس عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

**وقوله:** ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده؟ إن ذلك على الله

**يسير** ﴿١٩﴾، **السؤال** كيف مستعمل في التنبيه ولفت النظر، والخطاب للذين  
 كفروا أن يتأملوا في عظمة الله وقدرته كيف أنشأ الخلق المكلفين بالعبادة من  
 العدم، ثم يبعثهم يوم القيامة للحساب، وثم للتراخي الرتبي، لأن أمر إعادة

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 448).



الخلق أهم وأرفع رتبة من بدئه؛ لأنه غير مشاهد، ولأنهم ينكرونه<sup>(1)</sup>، وكل من الخلق والإعادة يسير على الله سبحانه.

**وقوله:** ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢٠)</sup> يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾،

أمر الله رسوله أن يقول لقومه أن يتحركوا في الأرض ويسافروا فيها وينظروا فيها أثناء السير عليها ببصرٍ ثاقب وقلب متأمل؛ ليروا كيف بدأ الله الخلق، وأوجده من العدم، فقانون إنشاء الخلق واحد في كل المخلوقات، فقد كان الكفار يُقرون بأن الله هو الخالق، ولكنهم كانوا ينكرون البعث والنشور، فأخبرهم أن من أنشأهم من العدم فهو قادر على إعادتهم بعد موتهم، والله لا يُعجزه شيء، بل هو على كل شيء قدير، وإذا بعث الخلق إليه حاسبهم على أعمالهم في الدنيا، فيرحم من يشاء بجنته وهم المؤمنون، ويعذب من يشاء بناره وهم الكافرون، والخلق جميعاً عائدون وراجعون إليه للوقوف بين يديه ولا يتخلف منهم أحد، وفي النظم تقديم وتأخير، فالرحمة والعذاب تكون بعد البعث والنشور.

**وقوله:** ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾<sup>(٢٢)</sup>، لا أحد يمنع الله من عقوبة الخلق، ولا الخلق يستطيعون الفرار والهروب من قبضته ولا النجاة من بطشه وعقوبته، أينما كانوا في الأرض أو في السماء، فليس لهم غير الله من يرحمهم ويرفع عنهم العذاب!

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20 / 228).



**وقوله:** ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُونَ مَعَهُ سَوَاءً﴾، هذا تعقيب قرآني على ما قيل بين الرسول وقومه، سواء قلنا إن السياق في إبراهيم عليه السلام وقومه، أو في محمد صلَّى الله عليه وآله وسلم وقومه، بأن الكفار الجاحدين بآيات الله الشرعية والكونية والمكذبين بالبعث والنشور، قد أصابهم اليأس والقنوط من رحمة الله في الآخرة، وذلك حين يرون المؤمنين يدخلون الجنة، وهم لا يجدون لهم مكانة ولا شفاعاة ولا رحمة، ولا يجدون في صحائف أعمالهم أعمالاً صالحة تكون سبباً لرحمة الله لهم، بل يكون مصيرهم إلى العذاب الأليم في النار.

**ثم قال:** ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُؤْمِنُونَ﴾، عاد الخطاب إلى ذكر جواب قوم إبراهيم لإبراهيم عليه السلام، بعد تلك الآيات التي جيء بها كجمل اعتراضية للعتزة والعبرة، سواء كان المخاطب بها قريشاً أو قوم إبراهيم، وكان الجواب منهم بقطع الحوار والنقاش لمعرفة الحق مع إبراهيم والانتقال إلى التهديد والوعيد بالقتل والبطش لإسكات الحق، وهذه عادة أهل البغي والظلم من المكذبين قديماً وحديثاً، لا يقبلون الحوار ولا النقاش، فقد حاور إبراهيم قومه بالأدلة العقلية وناقشهم بالحجج والبراهين القطعية، ولو كان معهم حجة لما وقعوا في البغي والعدوان، بل عدوانهم وباطلهم قائم على إنكار الحجج والاعتداد بالقوة للبطش بالمخالف لهم، لذلك أنهوا الحوار مع إبراهيم، وقرروا قتله بالحرق، فبنوا له بنياناً وألقوه في النار بالمنجنيق، وكان بإمكانهم أن يقتلوه بأي وسيلة وينتهي أمره، ولكنهم اختاروا هذه الكيفية لسمع بقتله القاصي



والداني، ولكي يشارك الجميع في هذه الجريمة النكراء، ولا يتحملها البعض منهم فقط، فأنجاه الله من النار ولم تحرقه، وخرج منها سالماً يمشي، وكان في نجاته بهذه الصورة براهين وحجج على صدق رسالته، تدفع من رآها إلى الإيمان به، ولكن هؤلاء قومٌ قد طُبِعَ على قلوبهم فأصبحوا لا يفرقون بين الحق والباطل، فلم يستفيدوا من هذه الآيات وتلك البراهين.

**وقوله:** ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٢٥)، ظاهر السياق أن هذا القول قاله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد الخروج من النار (1)؛ لأنه أقوى في الحجة عليهم، ويجوز أن يكون قاله لهم قبل أن يُحرقوه، ويكون في النظم تقديم وتأخير، والمعنى أن هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تنفع ولا تضر، وأن سبب عبادتكم للأوثان أنها تجمعكم وتجعلكم متحابين في الدنيا عليها (2)، وأن هذا الحب الذي بينكم وبين الأصنام أو بينكم مع بعض كُعبادٍ لها؛ لن يستمر في الآخرة؛ لأنه قيده بالحياة الدنيا، وهذا شأن كل من يجتمعون ويتحابون في الدنيا على شيء غير الله، فإن هذه المودة تنتهي بالموت، ويوم القيامة يتبرأ المعبودون ممن عبدتهم، ويتبرأ العابدون من المعبودين، أو يتبرأ القادة من الأتباع، ويتبرأ الأتباع من القادة، ويسبب بعضهم بعضاً، ويريد كل واحد أن يتعد عنه صاحبه فلا يبقى

(1) ينظر: تفسير الرازي: (25 / 46).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2 / 672).



معها (1)، وهذه طبيعة أهل النار، كما قال الله عنهم: ﴿كَلَّمَادَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْنَبًا﴾ [الأعراف: 38]، ومصيركم جميعاً النار، فهي مرجعكم ومكان استقراركم، ولا مفر لكم ولا منقذ منها.

**وقوله:** ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٦)، فأمن لإبراهيم من قومه كلهم لوط، وهو ابن أخي إبراهيم، والسياق أنه آمن به بعد أن رأى معجزة نجاته من النار، وأعلن أنه هاجر لديار قومه؛ لأن الله أمره بمفارقة ديار أهل الكفر، وهذه أول هجرة لأجل الدين، ولذلك جعلها هجرة إلى ربه (2)، وهاجر مع إبراهيم زوجته سارة وابن أخيه لوط من أرض العراق إلى أرض الشام (3)، هجرة شرعية دينية، لأن الإنسان قد يُهاجر من أجل طلب الرزق ونحوه، وجاء تذييل الآية بذكر اسمي العزيز الحكيم لأنه هو الذي سيمنعه من عدوه، ويدله على التصرف السليم الذي لا خلل فيه.

**وقوله:** ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٧)، أي: بعد هجرته من العراق إلى الشام، رزقه الله ابناً اسمه إسحاق، وهو من زوجته الأولى سارة التي هاجرت معه، وبشّره الله بأن هذا الغلام سيكبر ويتزوج وينجب في حياة إبراهيم ابناً اسمه يعقوب، فتقر به أعينهما، فيعقوب حفيد لإبراهيم من ولده إسحاق،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 229).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 238).

(3) ينظر: تفسير الثعلبي: (7/ 276).



وهو الملقب بإسرائيل الذي تُنسب إليه بنو إسرائيل، وصير النبوة في ذرية إبراهيم فهو أبو الأنبياء الثاني بعد آدم، فكل الأنبياء **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** بعده من ذريته حتى ختموا بمحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والكتاب اسم جنس للكتب السماوية التي تنزل على الأنبياء والرسل، مثل التوراة والإنجيل والزبور والصحف والقرآن ونحوها، فلم ينزل كتاب بعده إلا على الأنبياء والرسل من ذريته، ومنح الله إبراهيم أجره في الدنيا، والأجر لفظ عام يشمل الرزق والذكر الحسن والزوجة والذرية الصالحة، ونحوها من النعم الدنيوية، وهو في الآخرة داخل في عداد الراسخين في الصلاح، بل هو ومحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أكثرهم صلاحاً، وأعلاهم درجة في الجنة.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن الرزق بيد الله وحده، فلنطلب الرزق من الله مع الأخذ بأسبابه.
- 2- أن من الأدلة العقلية أن من أنشأ الخلق من العدم فهو قادر على بعثهم.
- 3- أن الجنة محرمة على الكافرين.
- 4- عناية الله تعالى بأنبيائه ورسله وعباده الصالحين ونجاته لهم من مكر أعدائهم.
- 5- فضل الهجرة من بلاد الكفر لإقامة دين الله وشرعه.
- 6- منزلة إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عند ربه، فقد جعل له لسان صدق في الآخرين، وجعله من ورثة جنة النعيم.



## تفسير المقطع الثالث من سورة العنكبوت

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعَذَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقُرُوبَ

وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا  
كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۚ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ  
أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ  
اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا  
سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ  
السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ۚ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتَ  
بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾، واذكر قصة لوط مع قومه، **وهم قوم**  
من الكنعانيين كانوا يسكنون في قرية كانت تُسمى سدوم، **وموقعها الآن** بين  
الأردن وفلسطين، **وكانت تُسمى قديماً** ببحيرة لوط، **وتُسمى الآن** بالبحر  
الميت الذي لا يعيش فيه حيوان لشدة ملوحته، وكانوا قومًا كافرين، وزادوا إلى  
كفرهم فعل الجرائم والقبائح، ومنها فاحشة إتيان الذكران من العالمين، وهي  
التي سُميت واشتهرت بعد ذلك بفاحشة قوم لوط، **وسُميت بالفاحشة؛** لشدة  
فُحشها وقُبْحها، فإن الأنفس السويّة لا تقبل بها، بل إن الحيوانات لا تفعل ذلك،  
وأن قوم لوط هم أول من أحدثها في البشرية، فهم أول قوم انتكست فطرتهم  
فوقعوا في فعل هذه الفاحشة القبيحة، ثم بيّن لهم وصف هذه الفاحشة التي  
يفعلونها، فإنهم ينكحون الرجال بفعل الفاحشة في أدبارهم لقضاء شهوتهم  
بذلك، ويتركون نكاح النساء، وقد أباح الله لهم نكاح النساء وحرم عليهم نكاح  
الرجال، ويقطعون طرق الناس التي يسافرون عليها فيُخيفونهم ويأخذون



أموالهم ويغتصبون مردناهم، ويمارسون المنكر في مكان اجتماعهم مجاهرين به دون حياء من بعضهم، مما يدل على فساد أخلاقهم، والمنكر هو كل ما يُستنكر من الأفعال والأقوال والاعتقادات، ولكن سياق الحديث عن منكر متعلق بفاحشتهم، وقد تعددت أقوال المفسرين فيه<sup>(1)</sup>، وكلها منكرات، مثل: كشف العورات، والحديث عن الفاحشة بأصوات مرتفعة، والرمي بالحصى لاختيار من يفعلون بهم الفاحشة، وانتشار الضُّراط في مجالسهم ونحوها، ولذلك يقبُح بالإنسان أن يعتمد الضراط بين الناس، لأنه من عادات قوم لوط القبيحة، ولعل انتشار هذا الفعل بينهم كان نتيجة لفعلهم الفاحشة ببعضهم، فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خلق الإنسان خلقاً مُتَقَنّاً، فحين أفسدوا خلق الله بارتكاب الفاحشة في الدبر صار الهواء يخرج منهم بكثرة، وربما كانوا يفعلوا ذلك عمداً لقلّة حياءهم وتمكّن العادات والأخلاق القبيحة منهم!

**وقوله:** ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾<sup>(٢٩)</sup> قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾، فأجابوه باستعجال نزول العذاب بهم استهزاءً به وتشكيكاً في صدقه، وهذا يدل على وقاحتهم وفساد عقولهم، فكيف يقولون هذا لرجل صالح جاء يدعوهم إلى الإيمان وترك قبائح الأفعال التي تستقبح فعلها الحيوانات، وهم يفعلونها، فلو كان عندهم عقول صحيحة لقبّلوا النصيحة! فلما وصل معهم لوط إلى طريق مسدود، طلب من ربه أن ينصره على القوم المفسدين، فينزل بهم عذابه الذي

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 405).



كانوا به يستهزؤون، ووصفهم بالمفسدين؛ لفساد عقيدتهم وفساد سلوكهم.

**وقوله:** ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١)، فاستجاب الله دعاءه، فنزلت الملائكة

لإهلاكهم، فمروا في طريقهم على نبي الله إبراهيم عليه السلام لتبشيره بالولد من زوجته الأولى سارة، وأخبروه بأنهم نزلوا لإهلاك قوم لوط الذين كانوا يسكنون قرية سدوم، وأشاروا إلى جهتها لقربها من البلد الذي يسكن فيه إبراهيم عليه السلام، وعللوا سبب إهلاكهم بأنهم قد بلغوا في الظلم منتهاه، وهو الكفر بالله، وفعل القبائح.

**وقوله:** ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ لَسَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا

أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣٢)، فلما سمع إبراهيم الخبر أشفق على ابن

أخيه لوط أن يهلك معهم، فنبههم أنه يسكن فيها وليس من الظالمين، وعبر بـ(في)؛ لأنه لم يكن من أهل القرية، بل وافد عليها، فأجابته الملائكة بأنهم يعلمون بأحوال من في القرية ممن يستحق الهلاك أو يستحق النجاة، والملائكة أعلم بالأمر من إبراهيم؛ لأنهم جاءوا بوحي لتنفيذ مهمة محددة، وجاء في آية

أخرى أن إبراهيم جادل الملائكة في هلاك قوم لوط، **كما في قوله:** ﴿يَجِدُنَا فِي

قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74]، وذلك من شدة حلمه بالخلق، **فقد وصفه الله به في قوله:**

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114]، **ومن حلمه** أنه لم يطلب من الله أن يعذب

قومه رغم ما فعلوه به من حرق وطرده، ولم يشابهه في ذلك إلا محمد صلوات الله عليه وآله وسلم الذي كان حليماً على قومه الذين ضربوه فأدموه، فكان يمسح الدم عن وجهه،



**ويقول:** "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"<sup>(1)</sup>، وأخبرت الملائكة إبراهيم بأنها ستنجي لوطاً مع أهله من الهلاك، والمقصود بأهله ابتناه، واستثنوا امرأته من النجاة معهم، ولم يُطلق عليها لفظ (زوجة)؛ لمخالفتها له في دينه، وأخبروه أنها ستكون من الباقين في العذاب مع قومها<sup>(2)</sup>، فتهلك بهلاكهم.

**وقوله:** ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾، فلما وصلت الرسل إلى لوط كانوا على هيئة بشر وبصور جميلة، فساء لوطاً مجيئهم، خوفاً عليهم من قومه المجرمين، وضاق بهم ذرعاً، وهو كناية عن العجز؛ لأن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله قصير الذراع<sup>(3)</sup>، وظنهم من عموم الناس الذين يسافرون من تلك البلدة، ولم يكن يعلم أنهم ملائكة في صورة بشر، فأخبرته الملائكة بحالهم، وقالوا له: لا تخف علينا من قومك ولا تحزن، فإنهم لا يقدرّون علينا، وأخبروه بأنهم جاءوا لهلاك قومه وأنهم سينجّونه من العذاب مع أهله وهم ابتناه، واستثنوا من النجاة امرأته التي ستبقى مع قومها في العذاب وتهلك بهلاكهم، وأخبروه بنوع العذاب الذي سينزل بأهل قريته، بأنه الرجز، وهو شدة العذاب المنزل عليهم من السماء، مأخوذ من ارتجز إذا اضطرب، لما

(1) صحيح البخاري: (4/175)، برقم: (3477).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/675).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/453).



يلحق المعذب من القلق والاضطراب<sup>(1)</sup>، وقد جاء تفاصيله في آياتٍ أخرى، **وخلاصته** أن جبريل رفع قرى قوم لوط إلى عنان السماء ثم قلب عاليها سافلها ثم أتبعوا بحجارةٍ من سجيل، ولذلك يرى بعض الفقهاء أن عقوبة من يفعل فاحشة اللواط أن يُعاقب بمثل ما عُوقب به قوم لوط، فيرمى من مكان مرتفع، ثم يلحق بالحجارة حتى يموت<sup>(2)</sup>، وهذا العذاب الشديد لهم كان بسبب فسقهم وخروجهم عن الفطرة، في العقيدة والسلوك.

**وقوله:** ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٣٥)</sup>، **هذا تعقيب**

من الله على قصة هلاكهم، حيث ترك مكان قريتهم علامة واضحة ليتفكر بها العقلاء ويتعظوا بحالهم، فقد تحولت القرية إلى بحيرة، **وتسمى اليوم** بالبحر الميت، لكثرة المواد الكبريتية التي لا يعيش فيها حيوان، ومن تأمل فيها تذكر أن هذه آثار لعقوبة أولئك المجرمين الذين انتكست فطهرهم ففعلوا تلك الفاحشة مع كفرهم بالله.

**ثم قال الله:** ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُمُوا عِبْدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾<sup>(٣٦)</sup> **فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دَارِهِمْ جثيم**<sup>(٣٧)</sup>، **أي:** وأرسلنا إلى مدين، وهو اسم للقبيلة، وُسِّيت البلدة باسم القبيلة، وهي المدينة هرب إليها موسى بعد أن قتل القبطي، وتقع

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 453).

(2) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد: (5/ 37).



الآن في شبه الجزيرة العربية في منطقة تبوك بالقرب من مدينة البدع<sup>(1)</sup>، وشعيب أخوهم من النسب، لأنه من نفس القبيلة، وكانوا على الكفر والشرك، ليدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة غيره، وأن يستعدوا للوقوف بين يدي الله يوم القيامة ويخافوا ذلك اليوم ويعملوا له الصالحات، ويتركوا الفساد في الأرض كالتطيف في المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم ونحوها، ولا يصير الفساد في الأرض شغلهم الشاغل، فكذبوه وجحدوا أمره؛ فأرسل الله عليهم عذاب الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة التي هلكوا بسببها، حيث صاح بهم جبريل حتى رجفت قلوبهم وتمزقت من شدتها، فسقطوا على ركبهم صرعى ميتين في أماكنهم، ولم يتمكنوا من الهرب لينجوا بأنفسهم من العذاب.

**وقوله:** ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَانِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ <sup>(٣٨)</sup>، واذكر لهم قصة هلاك قوم عاد، وهم قوم نبي الله هود **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وكانوا يسكنون في الأحقاف قريباً من حضرموت، وثمود، وهم قوم نبي الله صالح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وكانوا يسكنون في الحجر المعروفة اليوم بمدائن صالح، وتسمى الآن منطقة العُلا قريباً من تبوك في جزيرة العرب، وقد كان تجار قريش يمرون على مساكنهم في أسفارهم إلى اليمن والشام فيرون آثار هلاكهم، بسبب كفرهم الذي حسنه لهم الشيطان ودعاهم إليه فاتبعوه، وابتعدوا عن طريق الإيمان والتوحيد الذي جاءت به رسلهم، وقد كانوا أصحاب بصائر وعقول متمكنين من النظر

(1) ينظر: المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية: (ص: 407).



والاستدلال<sup>(1)</sup>، ولكنهم لم يستخدموا ذلك في معرفة الحق واتباعه، فضلوا عنه ولم يهتدوا إليه.

**وقوله:** ﴿وَقَرَّبُوا فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾<sup>(٣٩)</sup>، **واذكر قصة** هلاك قارون وفرعون وهامان، فقارون كان من بني إسرائيل وأعطاه الله المال الكثير، فأنحرف بماله واتبع فرعون، وهامان وزيره، وقد جاءهم موسى ودعاهم إلى الإيمان وترك الكفر، فبالغوا في التكبر والإعراض عن قبول الحق، وأظهروا كبرهم في أرض مصر التي كانوا يحكمونها، ورفضوا أن يؤمنوا بموسى، فأهلكهم الله، وما كانوا فائتين من عذابنا<sup>(2)</sup> ولا ناجين من الهلاك.

**ثم قال:** ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>(٤٠)</sup>، **أي:** فعاقبنا كل قوم ممن سبق ذكرهم بسبب ذنوبهم، ثم بدأ يُفَصِّلُ في نوع العذاب الذي حصل لهؤلاء الأقوام، بقاء التفرع، التي تأتي بعد الإجمال، فبدأ بقوم لوط الذين أرسل الله عليهم من السماء حجارة من سجيل حصبهم بها، وذكر هلاك قوم صالح وقوم شعيب بالصيحة، حيث صاح بهم جبريل فانخلعت قلوبهم، وذكر هلاك قارون بخسف الأرض به، وذكر هلاك فرعون وهامان وقومهما بالغرق، وعَلَّلَ هلاكهم جميعاً

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1416).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (242/6).



بأنه كان بسبب ظلمهم، وأعظم الظلم هو الشرك بالله ثم المعاصي الأخرى التي ظلموا بها أنفسهم، ونفى الله عن نفسه ظلمهم؛ لأن الله حكّم عدل، فلم يكن الله ليهلكهم بذنوب غيرهم، إنما أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم، وعبر بالمضارع لاستمرارهم في الظلم وعدم قبولهم النصح والإرشاد من أنبيائهم، وفي هذا تهديد ووعد لكفار قريش إن لم ينتهوا عن ظلمهم وكفرهم، فإن مصيرهم الهلاك كما حصل لمن قبلهم.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1 - قبحُ المجاهرة بالمنكرات في المجالس العامة، وخطورة ذلك على من فعلها.
- 2 - بيان أن الإيمان شرط للنجاة من العذاب، وأن الأنساب لا تنفع بدون إيمان.
- 3 - من أخلاق الإسلام حماية الضيوف والدفاع عنهم.
- 4 - أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لما أهلك الأمم ترك لهم آثاراً باقية، ليتعظ بهم من أتى من بعدهم.
- 5 - بيان أن العقل إذا لم يُوصل صاحبه إلى الحق وعبادة الله فلا قيمة له، وليس بعقل رشيد.



## تفسير المقطع الرابع من سورة العنكبوت

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِمِيمِنِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

**قول الله تعالى:** ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِثُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾، هذا مثالٌ ضربه الله سبحانه وتعالى للمشركين الذين اتخذوا آلهةً يعبدونها من دون الله من الأوثان والأصنام؛ لكي تنفعهم وتُدافع عنهم، والواقع أنهم هم الذين يحمونها ويُدافعون عنها، فما هو المشبه وما المشبه به وما وجه الشبه؟! المشبه الشرك وعبادة الأصنام، والمُشَبَّه به بيت العنكبوت، ووجه الشبه شدة الضعف وعدم الفائدة، والمعنى أن اتخاذ المشركين أصناماً آلهة تنفعهم يشبه اتخاذ العنكبوت من خيوطها الضعيفة بيتاً يمنعها من الحر والبرد ويسترها، والواقع أن أوهن البيوت عند سائر المخلوقات هو بيت العنكبوت، فهو عبارة عن خيوط متشابكة لا ترد برداً ولا تستر جسداً، هذا وصف له من الناحية الحسية، وقد اكتشف العلم الحديث معنى آخر له من الناحية المعنوية يمكن أن يُضم إلى تفسير هذه الآية، فبيت العنكبوت المعنوي لا يوجد فيه ترابط ولا تكاتف بين ذكور العنكبوت وإناثه، فإن الأنثى هي التي تبني البيت، فإذا لقحها الذكر فإنها تنقض عليه بعد ذلك فتقتله، فلا يوجد استمرار للحياة الزوجية بينهما ولا وئام<sup>(1)</sup>، ولو كان المشركون يعلمون أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر وأن حالها كحال بيت العنكبوت؛ لتبرؤوا منها وتركوها ولم يعبدوها من دون الله، وعقَّب الله جهل المشركين به فأثبت لنفسه العلم المطلق، و"ما" قد تكون استفهامية،

(1) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف الحاج أحمد: (ص 501).



بمعنى السؤال عن آلهتهم للتوبيخ والتقريع، أو نافية، **والمعنى** إن الله يعلم أنهم يدعون آلهة لا تصلح لشيء، وإنما هي آلهة مزعومة، فلا قيمة ولا مكانة لها ولا تنفع ولا تضر، أو موصولة، **والمعنى** إن الله يعلم الذي يدعون من دونه من أي شيء كان<sup>(1)</sup>، **والتعقيب بالعزيم الحكيم** إشارة إلى جهلهم حيث تركوا عبادة من هذا وصفه وعبدوا شيئاً حقيراً ضعيفاً لا يملك لنفسه شيئاً ولا إرادة له فضلاً عن أن يكون له حكمة.

**وقوله: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُكَ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)،**

**أي:** إن الأمثال التي يذكرها الله في القرآن للناس تنبيهاً لهم وتقريباً لما بعد من أفهامهم، يفهمها أهل العلم وأصحاب العقول السليمة، ولا يستفيد منها الجهلة ولا أصحاب العقول السخيفة.

**ومعلوم الآن** أن ضرب الأمثال من الوسائل التعليمية الناجحة التي توضح ما خفي من المعنى بصورة حسية، وكما يقال: بالمثال يتضح المقال، **وفي الآية مدح** لأهل العلم الراسخين فيه، وأنهم يتدبرون الأمثال بالتأمل والتفكير فيها، وفيها تلميحٌ وتعريضٌ بمشركي مكة بأنهم جهلة ولا يفهمون المغزى من الأمثلة.

**ثم قال: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤)،**

إذا ذكر خلق السموات والأرض؛ فالمقصود به خلق الكون كله بما فيه من مخلوقات، وقد خلقه لإقامة الحق، وخلقته كله لا يوجد فيه عبث ولا باطل،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 235).



والباء للملابسة، **أي:** خلقهما على أحوالهما كلها بما ليس بباطل<sup>(1)</sup>، فالحق لا ينفك عن الغاية من الخلق، وفي هذا الخلق دلالة عظيمة، وعلامة ظاهرة على قدرته، وتفردته بالإلهية، وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك فيُصدقون بقدرة الله وينقادون لأمره.

**وقوله:** ﴿أَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْتَغِ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾<sup>(٤٥)</sup>، أمر الله رسوله ﷺ بتلاوة القرآن الكريم الذي أوحاه الله إليه بواسطة جبريل **عليه السلام**، والتلاوة لها معنيان: القراءة والترتيل للآيات والاتباع لما فيه من أحكام، وكلاهما مطلوب من المسلم، و"من" بيانية، **أي:** رتل واقرأ واتبع الكتاب كله، واستمر بالمحافظة على الصلاة بأوقاتها وشروطها وأركانها، ثم بين فائدة المحافظة على الصلاة بأنها تنهى صاحبها عن فعل القبائح من الأفعال والمنكر من الأقوال، فهي وسيلة لإصلاح النفوس وتزكيتها، فمن أقامها ثم لم ينته عن المعاصي والمنكرات لم تكن صلاته بالصفة التي وصفها الله تعالى.

**وقوله:** ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>(٢)</sup>، فيها ثلاثة معانٍ:

**الأول:** أن المقصود بالذكر هنا الصلاة، سماها ذكراً لأن أكثر أعمال الصلاة هو الذكر من قراءة قرآن وتسييح وتكبير ودعاء ونحوها، فتكون الصلاة أكبر وسيلة لدفع الفحش والمنكر عن صاحبها.

(1) التحرير والتنوير: (20 / 257).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: 1420)، والتحرير والتنوير (20 / 261).



**والثاني:** أن المقصود به ذكرُ الله المطلق وهو أفضل الأعمال.

**والثالث:** أن تذكر الله ومراقبته والحذر من غضبه أكبر وسيلة لإبعاد النفس عن فعل الفحشاء والمنكر، ولا تعارض بين هذه المعاني، فكلها مقصودة من اللفظ، وذيل الآية بإحاطة علمه بما يعمل الخلق من الأعمال في الدنيا خيرها وشرها، وهو خبر ولكنه يفيد الوعد والوعيد.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ

**مُسْلِمُونَ** ﴿٤٦﴾، هذه الآية **تؤيد من قال** أن هذه السورة من آخر ما نزل في مكة، فإن الله هياً رسولهُ ﷺ والمؤمنين معه لما يستقبلهم في هجرتهم إلى المدينة من الاختلاط بقوم من أهل الكتاب، لأن مجادلة أهل الكتاب لم تُعرض للنبي ﷺ ولا للمؤمنين في مكة، وبين لهم أن أسلوب دعوتهم يختلف عن دعوة المشركين، لما عندهم من العلم من دينهم وكتابهم، فينبغي الاقتصاد في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ عليهم حتى لا ينفروا، وإنما يحاورون بالخصلة الحسنة والأسلوب والطريقة الحسنة، واستثنى منهم الذين يتجاوزون الحدود، وهم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبي ﷺ وللمسلمين، فهؤلاء يجوز استخدام الأسلوب الخشن معهم من باب وضع الشيء في موضعه المناسب له، وأمر المؤمنين عند محاورتهم بالبدء بالمتفق عليه معهم، فيدعون إلى الإيمان بالمُشترك، وهذا من أهم أساليب الحوار الناجح، وأمرهم بالبدء بتحرير محل النزاع في المسألة؛ حتى لا يتشعب الجدل والحوار، فطلب من



أهل الكتاب أن يصدقوا ويقروا بما أنزل على رسلهم من كتب وبما أنزل على رسولنا من كتاب، فمصدرها واحد، ونص على الإيمان بما أنزل عليهم؛ لأن ما بقي بأيدي اليهود والنصارى إلى وقت الخطاب لهم كان قد دخله التحريف والتبديل منهم، وأمرهم أن يقروا بأن الله هو إله الجميع، وأنه واحد لا شريك له، وهذا أيضاً من المُشترَكَات والمُتَّفَق عليه، وأن الجميع مستسلمون وخاضعون له سبحانه.

**ثم قال الله سبحانه:** ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧)، **أي:** وكما أنزلنا الكتب السماوية على الرسل الذين من قبلك؛ أنزلنا عليك الكتاب، وهو القرآن الكريم، فلست بدعاً من الرسل، ولم تأت بشيء لم يؤت به الرسل من قبلك، بل أنت تسير على طريقتهم وهدْيهم، والمقصود بالذين آتيناهم الكتاب، هم المؤمنون من أهل الكتاب السابقين، فقد ورد ذكره والبشارة به في كتبهم فهم يؤمنون بالقرآن، **ومن هؤلاء أي:** من مشركي أهل مكة، عُقلاء يؤمنون بالقرآن، وما يمتنع عن الإيمان بآيات الله وحججه إلا الكافرون، وهذا وصفٌ مطلق يشمل اليهود والنصارى والمشركين الذين يجحدون الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به.

**ثم قال الله:** ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْثَبَ الْغَبْطُونَ﴾ (٤٨) **بل هؤلاء أي:** يَنْتَبِهُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)، **الخطاب لمحمد ﷺ**، وفيه وصف لحاله قبل أن يُبعث



بالرسالة، فلم يكن يقرأ المكتوب، ولا يكتب الكتاب، وذكر اليمين من باب البيان والتوضيح، ولو حصل أنك كنت تقرأ أو تكتب؛ لارتاب المبطلون، **وهم صنفان<sup>(1)</sup>: الأول:** كفار قريش، الذين سيتهمونك بأنك أتيت بهذا الكتاب من عند نفسك ولم ينزل عليك، ولكن لما كنت أُمياً لا تقرأ ولا تكتب وجئت بهذا الكتاب المعجز الذي لم يستطع أحد منهم أن يأتي بمثله، فهذا يقطع عنهم الشك فيه ويثبت أنه من الله.

**والصنف الثاني:** هم أهل الكتاب، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم موصوف في كتبهم بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فلو كنت تقرأ وتكتب لوقع عندهم الشك بصدقك، لأن من علامات النبي الخاتم في كتبهم أنه لا يقرأ ولا يكتب، ثم أضرب عن ما سبق ذكره، وهو الريبة حول صحة القرآن، وأثبت خلافه، وهو أن القرآن الكريم آيات أنزلها على رسوله، وجعلها محفوظة في صدور العلماء، وأولهم محمد صلى الله عليه وسلم، فقد حفظ في صدره بعد سماعه من جبريل عليه السلام، ثم قرأه للصحابة، فحفظه الحفاظ منهم، ثم حفظه الصحابة لمن بعدهم، وهكذا سيبقى إلى يوم القيامة، وفي هذا إشادة بحفاظ القرآن الذين حفظوه في صدورهم، فهم أفضل من الذي يقرأه من المصحف، ووصفهم بأنهم من أهل العلم، وكفى بحفظ القرآن وفهمه علماً، فهم حجة على غيرهم، وإنكار الجاهل له لا يضر، وما يجحد ويكفر بالآيات إلا الكافر الظالم لنفسه؛ لأنه لم يستخدم عقله في التدبر والفهم لها، ولم يقتد بأهل العلم في قبولها والإيمان بها.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 540).



**وقوله:** ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، **وقال المشركون:** هَلَّا أُنزل الله على محمد ﷺ معجزة حسية كما حصل من الأنبياء قبله، مثل ناقة صالح أو عصا موسى ونحوها؛ لكي نصدقه، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن إنزال المعجزات ليس إليه ولا خاضع لطلبهم وإنما ذلك إلى الله، ولو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، ولكنه يعلم أن قصدكم من ذلك التعت، فلا يجيبكم إلى طلبكم، وأن مهمة الرسول هي الإنذار والتخويف لكم من عذاب الله إن كفرتم به، ويكون بيناً واضحاً حتى لا يكون لكم حجة بعد ذلك عند الله.

**ثم قال الله رداً عليهم:** ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ألا يكفّهم إنزال معجزة القرآن الكريم عليك، وهي أعظم من الناقة، وأعظم من تحويل العصا إلى ثعبان؛ لأن معجزات الأنبياء كانت حسية مُرتبطة بهم، فإذا ذهبوا ذهبَت معهم، أما القرآن فهو معجزة خالدة مستمرة، يقرأ عليهم وعلى غيرهم إلى آخر الزمان، وقد عجز الفصحاء والبلغاء عن معارضة سورة منه، وفي هذا القرآن رحمة للناس ببيان الحق لهم وهدايتهم إليه، وفيه تذكرة وموعظة يستفيد منها كل من آمن به وعمل به وصدّق بما فيه من الأخبار والوعد والوعيد، وفي ذلك إشارة إلى بيان منافع القرآن الأخرى غير الإعجاز، وأهمية قراءة واستماع القرآن بإيمان صادق ويقين تام وقناعة راسخة؛ لكي يستفيد القارئ والسامع له، فتحل به بركات القرآن الكريم والثمار الطيبة لتلاوته والاستماع إليه.



**ثم قال:** ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾،  
**قل يا محمد لهؤلاء المشركين:** أنا أكتفي بالله شاهداً بيني وبينكم على تكذيبكم لي وإعراضكم عن اتباع ما جئت به، فهو العالم بحالي وحالكم، وعلمه سبحانه محيط بما في السموات وما في الأرض، وقد علم أني أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وعلم كفركم وتكذيبكم، وسيُعاقبكم على ذلك، ثم أخبر عن حال من يؤمن بالباطل مع زيفه، والمقصود به إيمانهم بالوهمية الأصنام والأوثان، ويكفر بالله سبحانه مع وضوح الحجج والبراهين الدالة عليه، فمن حصل منه ذلك، فهذا دليل على خفة عقله، وفساد فطرته، والألف واللام لاستغراقهم لجنس الخُسران، فلا أحد أكثر خسارة في الدنيا والآخرة منهم.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان أهمية ضرب الأمثال، وأنها وسيلة من وسائل الإيضاح والبيان في الدعوة والتعليم والتربية.
- 2- بيان أن عبادة غير الله من أوهى الحجج، كما أن بيت العنكبوت من أوهن البيوت.
- 3- بيان أهمية تلاوة القرآن والمحافظة على الصلاة وكثرة ذكر الله وأثرها في تربية وتزكية النفس.
- 4- مشروعية جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ويجوز مجادلهم بخشونة



إن وقع منهم الظلم.

5- من وسائل الجدل الناجح الاتفاق على المشتركات، وتحرير محل النزاع.

6- بيان عظمة القرآن، وأنه معجزة الرسول الخالدة التي لم تنته بوفاته كما حصل للرسل السابقين.

7- بيان أثر بركة القرآن الكريم في كل من تدبره وقرأه بيقين.



## تفسير المقطع الخامس من سورة العنكبوت

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلِيُؤَيِّنَهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا  
يَشْعُرُونَ ٥٣﴾ يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ  
الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥ يَذَرُ الَّذِينَ الَّذِينَ  
ءَامَنُوا إِنْ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧  
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَنِّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ  
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ٦٠ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦١ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ٦٢ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا  
بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٦٣ وَمَا  
هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ  
٦٤ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَخَّسَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ  
٦٥ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٦٦ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا  
وَيُحْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ  
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ٦٨ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ٦٩  
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٧٠﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾، **الخطاب**

صلى الله  
عليه وسلم

**موجه** لكفار قريش الذين كانوا يستعجلون نزول العذاب الذي كان النبي **صلى الله عليه وسلم** يخوفهم به إن استمروا على الكفر والشرك وعدم الإيمان بالله، فكان كفار قريش يطلبون من محمد **صلى الله عليه وسلم** أن يُنزل بهم ذلك العذاب استهزاءً واستعجالاً، فرد الله عليهم أن استعجالهم بالعذاب لن يقدم أو يؤخر نزوله؛ لأن الله قد جعل لنزوله زمناً وأجلاً محدداً، ولولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلاً، لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم، ولكن أراد الله تأخيرهم لحكم يعلمها، وسواءً كان المقصود به العذاب الدنيوي كغزوة بدر التي قُتل فيها صناديد كفار قريش، أو الجوع الذي أصابهم به ونحوها، أو كان المقصود به العذاب الأخروي يوم القيامة، وهو الراجح، لتأكيد به ذكر جهنم بعده (1)، وسينزل بهم العذاب بغتة بدون مُقدمات، وهو واقع بهم لا محالة، وهذه سنة الله في هلاك المكذبين، وأعاد لفظ يستعجلونك بالعذاب تهديداً وإنذاراً بأخذهم، وأخبر أن مصيرهم إلى جهنم، وأنها تحيط بهم جميعاً من كل جهة فلا يستطيعون الفرار منها، ولا يبقى منهم أحدٌ إلا دخلها وعذب فيها، وأتى بوصف الكافرين ليشمل كفار قريش وغيرهم، ثم بيّن ما يجري لهم في جهنم حيث يُغطيهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن كل الجهات، فالنار تغشاهم

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1426).



من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي، **ويقول الله لهم أو يقول لهم الموكل بعذابهم من الملائكة توبيخاً لهم<sup>(1)</sup>**: ذوقوا جزاء أعمالكم السيئة من الكفر والشرك ونحوها التي كنتم تعملونها في الدنيا.

**ثم قال:** ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسْعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ٥٦ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ٥٧، لما انتهى من الحديث عن أهل جهنم من الكافرين عاد الخطاب إلى المؤمنين المستضعفين في مكة، الذين كانت قريش تمنعهم من الإيمان وتُعذبهم عليه، فأذن لهم أن يهاجروا إلى أرض الله الآمنة وهي واسعة ومتعددة ويستطيعون أن يعبدوا الله فيها آمنين مطمئنين لا يؤذيه أحد، وفي ذلك إشارة لهجرتهم إلى المدينة ودعوة لهم أن يستعدوا لذلك، وإن كنتم تخافون الموت بسبب الهجرة فكل النفوس ستذوق الموت، هاجرت أو لم تُهاجر، فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت<sup>(2)</sup>، فأراد بذكر هذه الآية هنا أن يُعالج لديهم إشكالية ترك الهجرة خوفاً من الموت لأن طريقها غير آمن، فبين لهم أن الموت أمر مكتوب على كل نفس وسيأتي في موعده في أي مكان، ثم يرجع الجميع إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** للحساب والجزاء.

**ثم قال:** ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ﴾ ٥٨ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٥٩، **هذا بيان** لما يعطيه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** للمؤمن الذي آمن بالله وعمل الصالحات، ومن

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20 / 21).

(2) التفسير البسيط: (17 / 548).



العمل الصالح الهجرة في سبيل الله من أجل الله ولإقامة دينه، فإنها تُقرب من الله وترفع الدرجات في الآخرة، **والتبوءة**: الإنزال والإسكان<sup>(1)</sup>، **أي**: نُنزلهم ونسكنهم غرفاً في الجنة عالية وبجوارها بساتين وجنان، تجري من تحتها الأنهار يقيمون فيها خالدين، لا يموتون ولا يخرجون منها، ولا يهرمون، ولا يسقمون، ولا ينتهي نعيمها عنهم، ونعم أجر العاملين الجنة، ثم وصف حالهم في الدنيا وكيف استحقوا هذا الأجر في الآخرة؛ بأنهم استفرغوا جهدهم في الصبر على كل ما واجههم في طريق الهجرة من الابتلاءات من فقر وجوع وخوف ونحوها، وفوضوا أمرهم إلى الله واعتمدوا عليه دون غيره، وتركوا الأموال والأولاد والبيوت في مكة، فساعدهم ذلك على الثبات على دينه، فإن الصبر والتوكل على الله من أعظم أسباب الثبات على الحق.

**وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ**

**الْعَلِيمُ﴾**، "كأَيِّن" **بمعنى**: كم الخبرية التي تُفيد التكثير، **أي**: وكم من دواب كثيرة العدد ضعيفة القوة قليلة الحيلة، لا تدبر رزقها بنفسها، بل الله سبحانه هو الذي يدبره لها ويسوقه إليها، ويدبر لكم رزقكم ويسوقه إليكم، فالرزق بيد الله وهو الذي يمنحه للخلق، وعليهم فقط أن يأخذوا بالأسباب، وهو السميع والعليم، اسمان من أسماء الله الحسنى فيهما صيغة مبالغة، فهو سميع لأقوالهم، وعليم بنياتهم وأفعالهم، وعليم بما يصلحهم من غنى أو فقر، ولا يخفي عليه شيء من أمرهم، والخطاب وإن كان بأسلوب الخبر، إلا أنه يفهم منه التهديد

(1) التحرير والتنوير: (23 / 21).



والوعيد، **أي:** فيُجازي كل إنسان على قوله ونيته وفعله بما يستحقه، وفي الآية علاج لإشكالية ترك الهجرة بسبب الفقر، بل فيها إشارة إلى أن الهجرة سبب للرزق، فالحيوانات تُهاجر من مكان إلى مكان فيرزقها الله بذلك، فإذا كان الله يرزق الحيوانات غير المكلفة بعبادته، أيترك عبده المؤمن الذي هاجر من أجله؟!.

**ثم انتقل إلى بيان استحقاقه للعبادة، فقال:** ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤَفَّكُونَ﴾ **ولو سألت يا محمد** هؤلاء المشركون من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر في خدمة الخلق؛ **لأجابوك** بأن الخالق المسخر هو الله وحده، وأن هذه الأصنام والأوثان لم تفعل شيئاً، فلماذا يُصرفون ويبتعدون عن الإيمان بالله وتوحيده، وقد أقرروا بأنه الخالق المسخر دون سواه؟! **وهذا استدلال** بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فمن أقر أن الله الخالق المسخر وحده، فلا بد أن يُقر أنه المستحق للعبادة وحده دون سواه!.

**وقوله:** ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **وهذا دليل آخر على استحقاق الله للألوهية وحده** دون سواه، فهو الذي يُوسع الرزق على الخلق ويمنحهم إياه، فيجعل من يشاء غنياً، وهو الذي يُضيق عليهم ويجعل من يشاء فقيراً، ولا يفعل ذلك أحد غيره سبحانه، وبسط الرزق أو تضيقه على العبد في الدنيا لا علاقة له بحب الله للعبد أو بغضه له، فإن الله يمنح الدنيا من يُحب ومن لا يُحب، وقد أحاط الله بكل شيء علماً، فما يحصل



في هذا الكون من سعة رزق أو فقرٍ ونحوها، فهو ناتج عن علم الله وحكمته وتقديره **جَلَّ وَعَلَا**.

**وقوله:** ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣)، ولو سألت يا محمد هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من الذي ينزل المطر ويُنبت به الأشجار ويُحيي به الأرض التي ييسر وماتت من القحط، هل هو الله، أم الأصنام والآلهة المزعومة؟! لأجابوك بأن الفاعل لذلك هو الله دون سواه، فاحمد الله على أن جعل الحق معك، وأظهر حجتك عليهم<sup>(1)</sup>، **وعقّب على حالهم** بأن أكثرهم لا يتدبرون ولا يتأملون الحجج والبراهين بعقولهم، ولو تأملوها وتدبروا فيها لقادهم ذلك إلى الإيمان بالله وحده، وعبر هنا بـ "أكثر"؛ لأن هناك قلة من الكفار يُعملون عقولهم ويتفكرون بها فتوصلهم إلى الحق.

**ثم قال:** ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤)، **أخبر سبحانه وتعالى** عن حال الدنيا التي يتنافس عليها الناس، وأتى باسم الإشارة تحقيراً لها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو، وهو: ما تشغل به القلوب والنفوس، ولعب، وهو: ما تشغل به الأبدان والجوارح، وهذه طبيعة الحياة الدنيا، إذا قورنت بحياة الآخرة؛ لأنها خلقت فانية منقطعة، وخلقت حياة الآخرة باقية دائمة، و**"الحيوان"** مصدر حي<sup>(2)</sup>، يدل

(1) فتح القدير للشوكاني: (4 / 244).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17 / 558).



على المبالغة، والمقصود حياة حقيقية لا موت فيها، ولا فناء لشيء منها، ولو كان الناس يعلمون قيمة الحياة الآخرة وحقيقتها؛ لاستعدوا لها بالأعمال الصالحة، ولم تشغلهم عنها الحياة الدنيا الفانية.

**وقوله:** ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٦٥) **يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فُسُوفَ يَعْلَمُونَ** ﴿٦٦﴾، **أخبر الله سبحانه** عن حال الكفار أنهم إذا ركبوا في السفينة واضطربت بهم الأمواج في لجة البحار دعوا الله وأخلصوا الدعاء له دون غيره، فإذا لم يحصل لهم الضر فلا يفعلون ذلك، فهؤلاء القوم لا يعرفون الله إلا عند الشدة، وينسون جميع معبوداتهم من الأصنام والأوثان ويتعلقون بالله الواحد القهار، وذكر ضرهم في البحر؛ لأنه لا تنفع معه العدة ولا العدد بل كلما كثر العدد كلما ازداد اضطراب السفينة، فتكون شدة الهلع في البحر أشد منها في البر؛ لأنهم كانوا يسافرون في قوافل متعددة ومعهم أسلحتهم وفرسانهم، والدين هنا بمعنى المعاملة وهو التضرع والدعاء والإقبال على الله (1)، فلما تحصل لهم النجاة من ذلك ويرجعون إلى البر؛ يعودون لممارسة الشرك بالله مرة أخرى، واللام للتعليل الذي يفيد التهديد، **أي:** ليفعلوا ذلك كفراً بالله، فليتمتعوا بأرواحهم بعد أن نجاهم الله من الغرق، فسوف يعلمون عقوبة عملهم عند الله إذا رجعوا إليه.

**وقوله:** ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا آمَنَّا وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِأَبْطُلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) **الاستفهام** للتوبيخ والتقريع **والخطاب** لكفار

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (32 / 21).



قريش حيث أخبرهم عن نعمة خاصة بهم، وهي نعمة الأمن، فقد كان أهل مكة يعيشون في أمن فلا يتعرضون للسلب والنهب والغزو من غيرهم، بل كان أحدهم إذا خشي على نفسه يأخذ غصناً من أشجار الحرم ويضعه على رأسه ويسافر، فإذا رآه الناس قالوا: هذا من أهل الحرم، فلا يعتدون عليه؛ لأن الله عظم مكة وأهلها في نفوس العرب، فعاش أهلها فيها آمنين مطمئنين، بينما القبائل التي كانت حولهم تعيش في خوف ويحصل لهم الاختطاف ويجري فيهم السلب والنهب والقتال، وكان الواجب على أهل مكة هو شكر هذه النعمة بالإيمان بالله وعدم الكفر بها، ولكن الواقع أنهم أشركوا بالله وجحدوا نعمه وصدقوا بالأصنام وعبدوها من دون الله، فعقّب عليهم بالسؤال لهم: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره؟! (1)، وهو سؤال استنكار وتهديد لهم على ذلك.

**ثم قال الله:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٦٨)، ولا أحد أشد ظلماً ممن اختلق كلاماً ونسبه إلى الله، وقد كان المشركون ينسبون إلى الله الشريك والولد كذباً وافتراءً على الله، ولا أحد أشد ظلماً أيضاً ممن كذب بدين الله الحق الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب، **والمقصود به هنا محمد ﷺ** والقرآن الذي نزل عليه، ثم عقّب على ذلك بسؤال تقرير يفيد التهديد والوعيد لهم، والمثوى هو المكان الذي تطول فيه الإقامة، وهي إشارة إلى أن من دخل جهنم من الكافرين

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 295).



طال مقامه فيها فلا يخرج منها فهي مقر إقامته الدائمة.

**ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**، والمقصود بالجهاد هنا لفظ عام يشمل: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الأعداء، فمطلوب من العبد أن يجاهد نفسه والشيطان وسائر الأعداء لكي يحصل له ثمرة هذا الجهاد وهو الحصول على الهداية من الله، وهذا يدل على أهمية بذل الأسباب للحصول على الهداية، كالمجاهدة للنفس والابتعاد عن المعاصي وجلساء السوء ونحوها، ثم يطلب من الله الهداية والتوفيق والتسديد، فمن فعل الأولى أعطاه الله الثانية.

**والهداية هنا** المقصود بها هداية التوفيق والتسديد والوصول إلى الطرق الموصلة إلى الجنة.

**وجمع لفظ: "سُبُل" لبيان أنواع السبل والوسائل التي تُوصل إلى السبيل الأعظم وهو الصراط المستقيم والدين القويم، وذيل ذلك بإثبات المعية الخاصة للمحسنين، وهي معية العون والنصر والتوفيق والتسديد، لأن الله مع الخلق كلهم بعلمه وإحاطته، ولكنه خص المحسنين بهذه المعية؛ لإتقانهم العمل وإخلاصهم لله فيه، فإن معنى الإحسان يلزم منه وجود أمرين: الجودة والإتقان للعمل، والإخلاص في النية لله وعدم الشرك أو الرياء فيه، فبعض الناس قد يفرط في هذا أو هذا، فمثلاً: قد يُصلي صلاةً متقنة مكتملة الأركان ولكن كان في نيته رياء، أو يُصلي صلاة خالصة لكنها غير متقنة ولا مكتملة الأركان، فلم يكن في عمله هذا من المحسنين، وقل مثل ذلك في باقي العبادات والأعمال.**



## فوائد وهدايات من الآيات :

- 1- أن استعجال العذاب دليل على حُـمق الإنسان وغبائه.
- 2- أن استعجال العذاب لا يُقدم العذاب ولا يُؤخره، لأن الله جعل لكل شيءٍ أجلاً.
- 3- بيان فضل الهجرة من البلاد التي لا يستطيع الإنسان أن يُقيم فيها دينه إلى بلاد آمنة يستطيع أن يعبد الله فيها.
- 4- بيان أن إقامة الدين مُقدم على السكن في الوطن، وقد ترك النبي ﷺ مكة لأن قومه أخرجوه منها، وهي أحب البقاع إلى الله وإليه.
- 5- بيان فضل الصبر والتوكل على الله وأنهما قرينان، وبهما ينال العبد حاجته.
- 6- بيان أن الإله الحق هو الله، وهو الذي تلجأ إليه النفوس عند الشدة.
- 7- بيان أهمية مجاهدة النفس والأخذ بأسباب هدايتها.
- 8- بيان أهمية إتقان العمل وإخلاصه لله، وأن ذلك هو مقتضى الإحسان.
- 9- بيان فضل المحسنين، وأن لهم معية خاصة من الله، هي معية العون والنصر والتوفيق.



## تفسير سورة الروم

## تفسير المقطع الأول من سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾

فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَى ۚ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ۝

## شخصية السورة:

**سورة الروم؛** سورة مكية بإجماع المفسرين<sup>(1)</sup>، **والمقصد العام لهذه السورة** هو بيان أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هو المتفرد بتصرف الأمور في الكون كله.

**ابتدأت السورة بقوله: ﴿الْم ۝١﴾**، وقد سبق معنا بيان أن الراجع في معناها أنها من الأحرف التي يتكوّن منها الكلام في لغة العرب، وأنها ذكرت كدليل على إعجاز القرآن الكريم.

**وقوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾** فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾، هذا إخبار بما حصل للروم من هزيمة من قبل الفرس، فقد اقتتلت فارس والروم قتالاً شديداً في بلاد الشام، وكانت هذه المنطقة أقرب الأرض إلى أهل مكة، وكان هذا الحدث والنبي ﷺ مع أصحابه في مكة في فترة الاستضعاف، فانتصرت فارس على الروم وهزمتهم شر هزيمة، فبلغ ذلك قريشاً ففرحت بهزيمة أهل الكتاب، لأن فارس كانوا مشركين عبدة النار، وحزن المسلمون لهزيمة الروم، لأن الروم كانوا نصارى على الديانة النصرانية المحرفة، وكلما كان الإنسان أقرب عقيدة إلى صاحبه كلما فرح له أو حزن عليه، فذكر أبو بكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: "أما إنهم سيغلبون" فذكر ذلك أبو بكر للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (415 / 3).



وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل لهم أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: "ألا جعلتها إلى دون العشر"، ثم ظهرت الروم بعد ذلك <sup>(1)</sup>، والبضع ما بين الثلاث إلى العشر <sup>(2)</sup>.

**وقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾**، هذه القاعدة التي دارت حولها مقاصد السورة، فإن الأمر والتدبير للكون بيد الله وحده قبل أن يهزموا وبعد أن انتصروا، وهو المنفرد بالقدرة، وإنفاذ الأحكام، فالنصر لهؤلاء أو الهزيمة لأولئك كله كان بأمر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فهو الذي بيده النصر والهزيمة، وعندما يأتي موعد نصر الروم على الفرس سيفرح المؤمنون من أمة محمد ﷺ، كما فرح المشركون بالهزيمة الأولى للروم، وقد وقعت هزيمة الروم للفرس يوم بدر <sup>(3)</sup>.

**وذيل الآية** بالعزیز الغالب القاهر بالهزيمة للعدو، والرحيم الكثير الرحمة لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين، وجعل النصر للروم على الفرس وعداً؛ لأن النبي ﷺ أخبر به أبا بكر، وأبو بكر أخبر به المشركين، فصار وعداً لا بُدَّ أن يتحقق؛ لأن الله لا يخلف وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والمقصود بهم هنا كفار قريش؛ لأنهم لا يُقدرون عظمة الله وقدرته ولا يُصدقون أخباره؛ بسبب جهلهم بالله.

(1) مسند أحمد: (4/ 296)، برقم: (2495)، وسنن الترمذي: (5/ 196)، برقم: (3193)، وإسناده صحيح.

(2) فتح القدير للشوكاني: (4/ 247).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 68).



**ثم قال:** ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴿٧﴾﴾، فنفى عنهم العلم بالله وشرعه، وقصر علمهم على معرفة ظاهر الحياة الدنيا، فجمع لهم بين النفي والإثبات، فهم لا يعلمون علماً ينفعهم في دينهم ولا آخرتهم، وإنما يعلمون علوماً تنفعهم في دنياهم، وهذه العلوم التي تنفعهم في دنياهم قاصرة على ظاهر الحياة، فلو تعمقوا في معرفة بواطن أمور الحياة؛ لدلتهم على الله والإيمان به؛ لأن هذا الكون فيه آيات بيّنات تدل على كمال ألوهية الله وربوبيته **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وفي هذا إشارة إلى أن العلم الذي لا يُوصل صاحبه إلى الإيمان بالله في الدنيا، فهو علم وبال عليه، فالعلم بالله طريق موصل إلى الجنة، وفي الحديث: "ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة"<sup>(1)</sup>، ولكن الكفار مشغولون بمعاشهم ومأكَلهم ومشربهم ودنياهم، ولا يُفكرون في معادهم والوقوف بين يدي الله، وما الذي يُنجيهم من النار، وما الذي يُدخلهم الجنة، وما نشاهده اليوم من تقدّم مادي للكفار كله يدور حول الحياة الدنيا وكيف يتنعمون ويتلذذون بها!!، أما الآخرة فهم بعيدون عن التفكير فيها، ولذلك تستغرب حين تجد هندياً مخترعاً للذرة أو مُتقناً لعلم التقنية، ولكنه جاهل بالله، يخرج من معمله فيسجد لبقرة ويتبرك ببولها وغائطها، فأين عقلك الذي اكتشفت به هذه الأشياء العظيمة من علوم الدنيا؟! ومثله ذلك العالم النصراني المتخصص في عالم الطب أو الهندسة والتقنية وغيرها، تجده جاهلاً

(1) مسند أحمد: (14/66)، برقم: (8316)، ومسند الدارمي: (1/160)، برقم: (348)،

وإسناده صحيح.



بالله يسجد لثلاثة آلهة ويعتقد أنهم إله واحد، وقل مثل ذلك في باقي الكفار الذين يعبدون غير الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فهذا الصنف مبعوض عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، لجهله بالله وبالدار الآخرة، **كما في الحديث**: "إن الله يبغض كل جعظري جواظ صخاب بالأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة" <sup>(1)</sup>، **وَالْجَعْظَرِيُّ هُوَ: الْعَظِيمُ فِي نَفْسِهِ، وَالْجَوَاطُ هُوَ: الضَّخْمُ** <sup>(2)</sup>.

**ثم قال:** ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ <sup>(٨)</sup>، **سؤال استنكاري تعجبي** من حالهم، فلو تأملوا وتفكروا في أنفسهم لوجدوا فيها آيات وبراهين وحججاً توصلهم إلى الإيمان بالله، وأنه المستحق وحده للعبادة، وأنه ما خلق السموات والأرض وما فيهما من عوالم إلا لإقامة الحق، فلم يخلقها عبثاً وإنما خلقها بالعدل، وخلقها ملابسة ومصاحبة للحق لا باطل فيها، وجعل لها موعداً محدداً تنتهي فيه، فالخلق كله له نهاية معلوم وقتها عند الله حين خلق الخلق، وهو يوم القيامة، والغالب على الناس هو الجحود للبعث والنشور والوقوف بين يدي الله للحساب، وهذه قاعدة مطردة في الخلق حتى اليوم، فالكثرة الكاثرة من الخلق كفار لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

**ثم قال:** ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا

(1) صحيح ابن حبان: (1/ 274)، برقم: (72)، والسنن الكبرى للبيهقي: (10/ 327)، برقم:

(20804)، وإسناده صحيح.

(2) مساوئ الأخلاق للخرائطي: (ص: 258).



أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾، **ثم سألهم سؤال**

**تعجب وتوبيخ واستنكار آخر**، لعدم استفادتهم من السير في الأرض، وهو السفر والانتقال من بلد إلى آخر، والتفكر والتأمل فيما يمرون عليه من آيات وآثار الأمم السابقة التي دمرها الله بسبب كفرها وإعراضها عن اتباع رسله، والاعتبار بمصيرهم، وقد كانت تلك الأمم أشد قوة في الأبدان والإمكانات من كفار قريش، فقد كانت لهم آثار عظيمة في الأرض، حيث أثاروا الأرض وزرعوها واستخرجوا ما فيها، وأقاموا فيها القصور والحصون والترع والطرق وغيرها؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش<sup>(1)</sup>، فعمارة تلك الأمم للأرض أكثر من عمران كفار قريش لها، ولكنهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج والبراهين كفروا بها؛ فأهلكهم الله بسبب كفرهم، فهم من ظلموا أنفسهم بالكفر واستحقاق الهلاك!.

**ثم قال:** ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٠﴾، ثم كان مصير ونهاية من عمل السوء من الأعمال، هو العذاب الأقيح، **فالسوءاء هي** فعلى من السوء تأنيث الأسوأ، **وقيل:** هي اسم لجهنم، كما أن الحسنى اسم للجنة<sup>(2)</sup>، **كما في قوله:** ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: 26]، ولا مانع من اجتماع المعنيين، فهم قد فعلوا أقبح الأعمال، وكان عاقبتهم في أقبح وأشد

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 248).

(2) ينظر: المصدر السابق: (4/ 248).



أنواع العذاب في النار، وكان نتيجة عملهم السيئ هو التكذيب والاستهزاء بآيات الله، **فجمعوا بين سؤأتين: سوء التكذيب وسوء الاستهزاء**، والاستهزاء مرحلة متقدمة من التكذيب، وقد أشرنا في درس سابق إلى ما سميناه بالكافر قليل الأدب والكافر المؤدب، فالكافر المؤدب لا يؤمن ولكنه لا يستهزئ بالمؤمنين، والكافر غير المؤدب لا يؤمن ويستهزئ بالمؤمنين، ومثله عاصٍ مؤدب، وعاصٍ قليل أدب، فقد تجد شخصاً يترك الصلاة، فتنصحه بإقامة الصلاة فيستحي ويسكت، وشخصاً آخر يفعل معصية فتنصحه فلا يقبل النصيحة، ويستهزئ بالمتدينين والمصلين، فجمع بين سوءتين: سوء المعصية وسوء قلة الأدب مع من ينصحه!

**ثم قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١)**، فالله هو الذي أوجد الخلق من العدم ثم يعيدهم بعد الموت أحياء، والخلق المكلفون راجعون إلى الله يوم القيامة ليُحاسبهم ويُجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

**ثم قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢)**، وحين تقوم الساعة ويُبعث الكفار الذين فعلوا الجرائم وأعظمها الكفر والشرك بالله، ينقطع كلامهم وحجتهم، فيأسون من كل خير، **والإبلاس في اللغة: السكوت مع الحيرة<sup>(١)</sup>**، فهؤلاء المجرمون يأسون من رحمة الله وتنقطع آمالهم في عفو الله بسبب انقطاع حجتهم وأنه لا عذر لهم في هذا الكفر الذي وقعوا فيه.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٣/ 470).



**ثم قال:** ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٣)، ولم يوجد لهم من الأوثان والأصنام وغيرها من أنواع الآلهة التي عبدوها في الدنيا من يشفع لهم يوم القيامة، وتبرؤوا منها وتبرأت منهم، وكل منهم جاحد الآخر؛ لأنهم لم يفعلوا لهم شيئاً وقد اجتمعوا جميعاً في الهلاك.

**وقوله:** ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ (١٤) **فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** (١٥) **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** (١٦)، وحين تقوم الساعة وتنتشر الصحف وينصب الميزان؛ **يتفرق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهذه الفرقة لا اجتماع بعدها، والفريق الأول** هو الفريق الذي آمن بالله وعمل صالحاً في الدنيا فهذا يذهب إلى الجنة، وفيها روضة عظيمة خاصة بهم، فيها قصورهم وأماكن نعيمهم، وهذا يدل على أن هناك تنوعاً لنعيم أهل الجنان على قدر درجاتهم وأعمالهم الصالحة، وهم فيها يُسَرُّون ويُنعمون ويكرمون، **والحجور** هو السرور (١) الشديد بما يرون أو يسمعون مما أنعم الله به عليهم من النعم المتنوعة في الجنة، وبما حل بهم فيها من رضوان الله سبحانه، فهم في نعيم وفرح وسرور لا ينتهي، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم، **والفريق الثاني:** وهم أصحاب الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله القرآنية، والتكذيب بآيات الله من المعجزات الدالة على صدق الأنبياء والرسل، وكذبوا كذلك بالبعث والنشور ولقاء الخلق بين يدي الله في الآخرة، فهم بسبب ذلك في العذاب مُحْضَرُونَ، **أي:**

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٢ / ١٤).



حاضرون في العذاب فلا يغيب عنهم، بل مستمرون فيه، أو تُحضرهم الملائكة إلى العذاب<sup>(1)</sup>، ولا تعارض بين المعنيين، فإن الملائكة تُحضرهم وتُلقِيهم في النار، ثم لا تغيب النار عنهم، فهم ملازمون للعذاب فيها لا يخرجون منها، والعياذ بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان أن القرآن من عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**؛ لأنه أخبر عن مغيبات لا يعلم بها البشر وحصلت كما أخبر في قصة هزيمة الروم للفرس.
- 2- بيان أن العلم الذي ينفع صاحبه هو العلم الذي يدلّه على الآخرة ويُقرّبه من الله، وأن أي علم يُبعد عن الله فهو علم غير نافع.
- 3- اهتمام الكفار بعلم الدنيا فهم يُدعون ويتقدمون فيها، وهم من أجهل الناس بعلوم الآخرة.
- 4- بيان ما في الأنفس والكون من آيات تدل على الإيمان بالله، لو تفكر الإنسان وتأمل فيها.
- 5- أن الظلم سبب لهلاك الأمم، وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 6- هناك فرق عظيم وبون شاسع بين حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 64).



## تفسير المقطع الثاني من سورة الروم

﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي  
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩ وَمَنْ أَيْنَتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ  
بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمَنْ أَيْنَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا  
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَيْنَتِهِ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ ۚ وَالْوَنُكْرُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٢  
وَمَنْ أَيْنَتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ  
يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمَنْ أَيْنَتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فِيُخْئِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَأَمَّا أَيْنَتِهِ  
أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ ۝٢٥ وَلَهُ  
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانُونٌ ۝٢٦ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ  
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾.

**قول الله تعالى:** ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾، هذا خبرٌ والمقصود منه الأمر،

وهذا يقتضي أن يكون الخطاب موجهاً إلى المؤمنين، **أي**: سبحانه الله <sup>(1)</sup> حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح، **وقد سئل** ابن عباس عن الصلوات الخمس، هل مذكورة في القرآن؟ فقال: نعم، وذكر هذه الآية والتي تليها <sup>(2)</sup>، **ففي الصباح** صلاة الفجر، **وفي المساء أي**: وقتي صلاة المغرب والعشاء، **وعشيًا**: أي وقت صلاة العصر، **وحين تظهرون**: أي حين تدخلون في وقت الظهيرة وفيها وقت صلاة الظهر، **والتسبيح هو** التنزيه المطلق لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن النقائص، **ويأتي بمعنى** ذكر الله وقول سبحان الله، **ويأتي بمعنى** فعل الصلاة الفريضة والنافلة؛ لأنها تحتوي على التسبيح لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فيشمل هذا الأمر كل هذه المعاني، وله الحمد في السموات والأرض، هذه جملة معترضة، تفيد أن تسبيح المؤمنين لله ليس لمنفعة الله تعالى، بل لمنفعة المسبحين أنفسهم؛ لأن الله محمود في السموات والأرض فهو غني عنهم <sup>(3)</sup>.

**وقوله**: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾، هذا بيان لعظيم قدرة الله في الخلق والإيجاد، فيخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، **والسنبلة** من الحبة الميتة، **والفرخ** من البيضة الميتة، **والابن المؤمن** من الأب الكافر، ونحو ذلك، ويخرج الميت من الحي بعكس ما سبق من الأمثلة، **والآية تشمل الحياة المعنوية والحياة الحسية**،

(1) التفسير البسيط: (29 / 18).

(2) ينظر: مصنف عبد الرزاق الصنعاني: (1 / 454)، برقم: (1772).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 66).



**فالحياة المعنوية** كالإيمان والطاعة والاستقامة، فيُخرج إنساناً صالحاً مستقيماً من أب كافر، كمثل إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** من أبيه، ويخرج إنساناً كافراً من شخص مؤمن، كمثل ولد نوح من أبيه ونحوها، ويحيي الأرض التي أجدبت وييسر بإنزال الماء عليها، فتصبح حية، فتنبت وتخرج ثمارها وزروعها، والكاف للتشبيه، **أي:** وكما أخرج الأحياء من الأموات، وأحيا الأرض بعد موتها، كذلك تخرجون أنتم أيها الخلق من قبوركم أحياء، فيحاسبكم على أعمالكم في الدنيا، وفي هذا استدلال على البعث والنشور ببعض صور الإحياء الدنيوي التي يراها الخلق.

**وقوله:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠)، ثم بدأ يُعَدِّد مجموعة من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرته، والآية هنا العلامة التي تكون حجة وبرهاناً لمن يتفكر فيها فيتضح له قدرة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** واستحقاقه للألوهية، و"من" هنا للتبويض، فأياته كثيرة، وسيذكر منها بعض الأمثلة، ومنها: أنه خلق آدم 'من التراب، وهي مادة ميتة لا حياة فيها، ونفخ الروح فيه فصار إنساناً حياً مكتمل الحياة، ثم خلق زوجه منه، ثم تناسل الخلق منهما وتكاثروا وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، فهذه آية من آيات الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

**وقوله:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١)، **ومن آيات الله** **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وهي أن خلق لنا من جنسنا أزواجاً، جمع زوجة، وهي المرأة التي يتزوج بها الرجل، واللام للتعليل **أي:**



ليحصل لكم بالزواج والعلاقة الحسنة بينكما السكن والاطمئنان والهدوء والراحة، وخلق المودة والرحمة بين الزوجين، فالمودة خالص الحب، والرحمة هي التعاطف والتراحم، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، واسم الإشارة يعود إلى الأمرين معاً، ففي ذلك علامات وبراهين وحجج لمن تأمل وتدبر في هذه النعم وطريقة وجودها وما تدل عليه من عظمة الله وقدرته، وفي هذا إرشاد لإعمال العقول بالتفكير وعدم إهمالها.

**ثم قال:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِينَ وَالْوَنُكْمِ﴾ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ** ﴿٢٢﴾، ومن آياته الدالة على قدرته خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات الكثيرة، من مجرات وجبال وبحار ونباتات وهواء ونحوها، ومن آياته اختلاف السنة الخلق، والاختلاف له معنيان، الأول: اختلاف اللغة التي يتكلمون بها، وهي كثيرة وتحت اللغة الواحدة عشرات اللهجات، في العربية عشرات اللهجات وغيرها، ويدخل في ذلك الشخص الذي يتكلم عدة لغات، فسبحان الذي خلق هذا اللسان بهذه القدرة، والثاني: اختلاف الصوت من شخص لآخر، رغم اتحاد اللغة.

**واكتشف العلم الحديث ما يُسمى (بصمة الصوت)، وفي ذلك دليل على عظمة الله وكمال قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن آياته اختلاف ألوان البشر، وهذا الاختلاف له أسبابه: إما لاختلاف الماء الذي يشربون، أو اختلاف المناخ الذي يعيشون فيه، أو اختلاف الجينات بين الزوج والزوجة أو بين الأجداد، وليس بيد الشخص أن يختار لونه، والاختلاف آية من آيات الله في الخلق، وكلما ازداد الإنسان علماً كلما**



ازداد اعتباراً بهذه الحجج والبراهين، وفي ذلك إشارة إلى أهمية العلم، وخطورة الجهل الذي يجعل الإنسان يُعَيِّر أخاه بسبب اللون أو اللسان، ولو كان عنده علم صحيح لاعتبر هذا من آيات الله الدالة على كمال قدرته سبحانه.

**ثم قال:** ﴿وَمَنْ عَائِنَهُ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣)، **ومن آيات الله منام البشر،** لأن الخطاب للمكلفين الذين يعقلون ومطلوب منهم أن يتفكروا في ذلك ليؤمنوا ويطيعوا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ويعبدونه، مع أن النوم آية في كل الحيوانات، ومثله اختلاف الألوان والألسن آية في كل الحيوانات، وبدأ بذكر الليل لأنه الأصل في وقت النوم، **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا آيَلًا لِلَّيْلِ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) [النبا: 10-11]، ثم ذكر النهار تبعاً له والباء ظرفية تشمل الليل والنهار، فيمكن أن ينام الشخص ليلاً ويمكن أن ينام في النهار، ولكن نوم الليل هو الأصل وهو الأفضل، ونوم ساعة في الليل تُغني عن ساعات منه في النهار، كما يقول الأطباء، فقدّم لفظ الليل وجعله ملتصقاً بالنهار، وآخر لفظ النهار وجعله ملتصقاً بابتغاء المعاش والفضل الذي هو طلب الرزق، لأن أغلب أوقات طلب المعاش والرزق يكون في النهار، ولا مانع أن يعمل الإنسان ويطلب الرزق في الليل، وخاصة بعد تقدم الحياة وظهور الكهرباء ونحوها، وعقب بذكر السمع هنا؛ لأن الإنسان حين ينام تُسحب جميع أجهزته، التي يحصل بها على المعلومات فإذا استيقظ سأل عنها، فيخبر بها فيستمع إليها، والمقصود بالسماع هنا سماع التأمل والتفكير والتدبر، لا مجرد سماع الأصوات فقط.



**ثم قال:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤)، **ومن آياته** أن يريكم مقدمات وعلامات نزول المطر، **ومنها** رؤية البرق الذي يخاف من رؤيته أحياناً خشية الصواعق، ويفرح به أحياناً أخرى طمعاً في نزول الغيث<sup>(١)</sup>، وهذه طبيعة الناس مع سماعهم للبرق يشعرون بالخوف من آثاره التي يمكن أن تضرهم، ويطمعون أن يكون وراءه غيث ومطر ينفعهم، **والبرق** هو عبارة عن تصادم السحب بعضها ببعض حين يسوقها الملك وبها شحنات كهربائية موجبة وسالبة فينتج عنها تلك الشرارة التي تسمى البرق، وذلك الصوت الذي يسمى الرعد<sup>(٢)</sup>، وينزل الله من تلك السحب ماء المطر، فإذا نزل على الأرض الميتة أحيائها بعد جفافها بإنبات الأشجار فيها، إن في هذا الفعل دلالات وهدايات لمن يستخدمون عقولهم ويتدبرون هذه الآيات، فتدلهم على كمال قدرة الله وعظيم حكمته وإحسانه بهم.

**ثم قال:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥)، **ومن آيات الله** الدالة على قدرته بقاء وثبوت السماء والأرض على ما خلقت عليه من الصناعة الحكيمة الممتقنة دون خلل فيها، فهي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إيها، والمقصود بأمره الأمر الكوني القدري الذي لا يتخلف وتخضع له كل المخلوقات، ثم إذا دعا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الخلق يوم

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 254).

(٢) ينظر: الحديث في سنن الترمذي: (5/ 145)، برقم: (3117)، وإسناده صحيح.



القيامة، والمقصود بالدعوة هنا النفخة الثانية في الصور، وهي نفخة البعث، فإذا سمعتها الأرواح طارت إلى ما تبقى من أجسادها، وهو عجب الذنب، فتحيا الأجساد وتخرج من الأرض المدفونة فيها، ف"من" تدل على الظرفية، و"إذا" الثانية فجائية، وهي جواب "إذا" الأولى الشرطية، أي: يحصل منكم الخروج من قبوركم أحياء للجزاء والحساب بين يدي الله **جَلَّ وَعَلَا**.

**ثم قال:** ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَنِينٌ﴾ (٢٦)، لما ذكر خضوع وقيام الكون وانتظام المجرات الكونية لأمره، ذكر طاعة وخضوع واستسلام من في السماء ومن في الأرض من الخلق المكلفين بالعبادة وانقيادهم لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فمنهم من ينقاد له طوعاً، وهم المؤمنون من الجن والإنس، ومنهم من ينقاد له كرهاً، وهم الكافرون به، فهم مطيعون له في الحياة والبقاء والموت والبعث، وإن عصوه في العبادة<sup>(1)</sup>، فالجميع ملكه وعبيده سبحانه.

**ثم قال:** ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)، ثم أخبر عن قدرته في الخلق والإيجاد، فهو سبحانه الذي أنشأ الخلق من العدم وابتدأهم منه، ثم يفنيهم بالموت، ثم يعيد الخلق بعد الموت أحياء يوم القيامة، والإعادة أهون عليه من الخلق الأول، وهو أسلوب متعارف عليه لتقريب الفهم للسامع، فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثاني مرة، أما الله سبحانه فالأمر كلها متساوية

(1) ينظر: تفسير البغوي: (267/6).



عنده، وكل شيء على الله يسير<sup>(1)</sup>، ولا يوجد شيءٌ عسير على الله، والمقصد من ذلك إفحام من يُنكر قدرة الله على الإعادة وقد أقر بقدرته على النشأة، والمثل الأعلى هو الوصف الكامل الذي يصفه به أهل السموات والأرض، ولا يشاركه ولا يشابهه فيه أحد من الخلق، وهو العزيز الذي لا يُغالب، والحكيم في أمره وخلقهِ وشرعه.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان فضل التسييح المطلق وعاقبته الحسنة عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 2- بيان كثرة الأدلة العقلية التي بثها الله في الكون الدالة على قدرة الله واستحقاقه للألوهية.
- 3- بيان خضوع جميع الخلق لقهره خضوعاً اختيارياً يؤجرون عليها، وإما خضوعاً اضطرارياً.
- 4- بيان انفراد الله بالوصف الكامل الذي لا يشاركه ولا يشابهه فيه أحد من الخلق.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1454).



## تفسير المقطع الثالث من سورة الروم

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينٍ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَاتِّبِذْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبٍّ لَّيْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

**قول الله تعالى:** ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)، الخطاب موجه إلى كفار مكة الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ويجعلونها شريكة لله في الألوهية، فضرب الله لهم مثلاً مأخوذاً من حالهم وتعاملهم في الواقع، وخلاصته: هل يوجد من عبيدكم من يشارككم المال الذي تملكونه، فأنتم وهم شركاء تتساوون في التصرف فيه، وتخافون أن يرثكم العبيد هذا المال كما يرث بعضكم بعضاً، وهو سؤال تقريرى لواقعهم، فيه نفى للشركة بينهم وبين المملوكين، والاستواء معهم في المكانة، وخوفهم إياهم كما يخافون أنفسهم أو الأحرار الذين مثلهم<sup>(١)</sup>، فإن السادة لا يشركون عبيدهم في شيء من أموالهم ولا يستشيرونهم في التصرف فيها، ولا يرث العبيد من أموال سيدهم شيئاً، فضلاً عن أن يتساوى العبد مع سيده فيها، بل هم ملك له يتصرف فيهم كما يشاء، **والمعنى** إذا كنتم أيها المشركون لا تقبلون أن يشارككم عبيدكم في أموالكم، فكيف تثبتون لله شركاء في ملكه سبحانه؟! وعبر عن ممتلكاتهم بأنها رزق من الله، إشارة إلى أنهم لا يملكونها حقيقة، بل هي منحة من الله لهم، ومع ذلك منعوا عبيدهم من التصرف فيها، وذيل الآية بأن بيان تفصيل الحجج والبراهين يستفيد منها العقلاء الذين يعقلون الخطاب ويتفكرون ويتأملون في الأمثلة المضروبة لهم دون غيرهم، وفي ذلك تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا من أهل العقول، ولا ممن ينتفعون بها.

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٢٥٧ / ٤).



**ثم قال:** ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٩)، ثم أضرب عن مخاطبة المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، ومحاورتهم لقلّة انتفاعهم بعقولهم في تدبر الآيات، بل طغى عليهم اتباع الأهواء، والهوى: هو كل ما تشتهي النفس بلا حجة وبرهان، بل يعتمد على الرغبة والشهوة، فالعلم مفقود في الهوى، ومن يُجاري أهواء النفس ويسير ورائها فهو شخص جاهل، ومن هذا حاله فإنه يحرم الهداية ويقع في الضلال، فلا تعجبوا من عدم هدايتهم!!، ونسب الضلال إلى فعل الله به؛ لأنه خذله ولم يمنحه التوفيق، رغم أنه منحه هداية الإرشاد ووسائلها وأسبابها، فلم يستفد منها، بل استمر في الكفر والضلال ومات على ذلك، فلم يجد له من يمنعه من عذاب الله، ولا من ينجيه منه.

**ثم قال سبحانه:** ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)، الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ومن معه، والمقصود بالقيام هنا صدق التوجه إلى التوحيد والعبادة الخالصة لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** والاستمرار عليها، وقد كان النبي ﷺ متوجهاً إليها صادقاً فيها، فطلب منه أن يستمر على ذلك، والحنيف هو المائل عن الباطل إلى الحق، ونُصبت فطرة الله على الإغراء، **أي:** الزموا فطرة الله (1)، فقد خلق الناس وأوجدهم على الفطرة السليمة، المقررة بالتوحيد ونبذ الشرك، **وفي الحديث:** "خلقت عبادي حنفاء كلهم" (2)، **أي:** مائلين عن الشرك

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 259).

(2) صحيح مسلم: (4/ 2197)، برقم: (2865).



إلى التوحيد، فلا تُبدلوا خلق الله الذي خلقكم عليه وهو الفطرة السليمة إلى الشرك والكفر، بل التزموها وابقوا عليها، فالفطرة التي خلقتكم عليها هي الدين القيم، وهو الإسلام الحق الذي ارتضاه الله للخلق، وإنما وقع أكثر الناس في الكفر بالله بسبب جهلهم به، ولو علموا قيمة التوحيد والإيمان بالله؛ لبقوا على فطرتهم السليمة ولم ينحرفوا عنها أو يُغيروها، ولو علموا كذلك بخطورة تغيير الفطرة؛ لما استجابوا للشيطان في ذلك، وأكثر هنا على بابها في العموم، فأكثر الناس على الكفر، والقلّة هم المؤمنون في كل الأزمنة إلى أن تقوم الساعة.

**ثم قال سبحانه: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ﴾** **﴿٣٢﴾** **﴿٣١﴾** **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۚ﴾** **﴿٣٢﴾** **﴿٣١﴾** **أي:**

وكونوا راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له في أوامره ونواهيه، وعبر بالجمع هنا مما يدل على أن الأمر لمحمد صلّى الله عليه وآله ولأئمة، وأمرهم بالتقوى، وهي اتقاء غضب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بفعل الطاعات وترك المحرمات، وأمرهم بإقامة الصلاة وهو أداؤها في أوقاتها بشروطها وواجباتها، ونهاهم أن يكونوا من المشركين الذين وقعوا في الشرك بالله وتفرقوا في دينهم، فكل طائفة منهم ابتدعت لها طريقة خاصة بها، حتى صاروا على أديان وملل ومذاهب شتى، أو ابتعدوا عن أصول دينهم الذي أمروا أن يلزموه ويتبعوه، وكلا المعنيين لازم للآخر، فمن ابتعد عن أصول الدين وقواعده واتبع الهوى فإن ثمرة ذلك تعدد الأديان وتفرقها، وتمزق أتباعها إلى فرق وأحزاب وجماعات، وكل فئة منهم ترى أنها على الحق وحدها وغيرها على الباطل، فكل حزب بما لديه مسرور ومقتنع به، ولا يلتفت إلى غيره، وهذا مشاهد اليوم في أحوال البشرية البعيدة عن



دين الله الحق، تعددت مذاهبها وكثرة النحل والطوائف والفرق فيها، وكلّ يدّعي أنه على الحق، وأن الجنة له دون سواه، **كما قال الله عن أهل الكتاب:** ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: 111]، وقل مثل ذلك في باقي الملل والنحل المنحرفة، فهذا الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم هو نتيجة لاتباع الأهواء والبعد عن أصول الدين الحق، ولا مخرج منه إلا بالبقاء على الفطرة المستقيمة والدين الحق الذي ارتضاه الله للخلق.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مَتَّ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)، **المقصود بالناس هنا هم** المشركون؛ وأن من صفاتهم أنهم يتضرعون إلى الله مقبلين عليه بكل قلوبهم ولا يشركون به شيئاً حين ينزل بهم بلاء أو مرض أو قحط ونحوها، لعلمهم بأنه لا فرج إلا منه سبحانه، **والتعبير بـ "مَسَّ" يدل على** جزعهم بحصول أدنى إصابة لهم بالضرر، فيسارعون إلى التضرع ليرفع ما نزل بهم، فإذا رحمهم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ورفع الضر عنهم وجاءهم الخير، عاد فريق منهم إلى الشرك بالله وعبادة ودعاء الأصنام مرة أخرى، و"ثم" للتراخي الرتبي؛ لأن إشراكهم بالله كان بعد الدعاء والإنابة وحصول رحمته، وفيه معنى التعجيب من تجدد إشراكهم (1)، وفي ذلك إشارة إلى سفه عقولهم؛ حيث أنابوا إليه وأخلصوا له الدين في حال الشدة والبلاء، وأعرضوا عنه وأشركوا به في حال الرخاء.

**وقوله:** ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آٰنَنَّهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤)، **اللام لام**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 98).



التعليل، وهي مستعارة لمعنى التسبب؛ لأنهم لما أشركوا بالله كان الشرك مفضياً إلى كفرهم بنعم الله<sup>(1)</sup> التي منحهم إياها، من كشف الضر، وزوال الشدة عنهم، فتمتعوا بهذه النعم في الدنيا مع كفرهم بها، فسوف تجدون عقوبة ذلك الكفر في الآخرة، وهو خطاب تهديد ووعيد لهم.

**ثم قال سبحانه:** ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾<sup>(٣٥)</sup>،

يخبر الله منكرًا على المشركين ما اختلقوه من عبادة الأوثان والأصنام بلا دليل ولا حجة ولا برهان، فخطب المسلمين وسألهم: هل أنزل الله على الكفار كتابًا أو حجة تنطق بأن ما يفعلونه من شرك عمل صحيح ومقبول؟ وهو سؤال استنكاري للتوبيخ والتقريع لهم، فليس عند المشركين كتاب ولا حجة بذلك، ولا يمكن أن يوجد كتاب أو حجة تأذن بالشرك بالله وتدعو إليه وتقرر صحته، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضًا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين تعجيبًا من حال أهل الشرك<sup>(2)</sup>.

**ثم قال الله:** ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾<sup>(٣٦)</sup>، وهذه من طبيعة الناس، أنهم مجبولون على الفرح فرح أشد وبطر بالرحمة، وهي اسم يشمل كل خير من صحة ومطر ومال وسائر أنواع الخير، ومجبولون على القنوط واليأس وعدم الصبر على المصائب والابتلاءات، وإن كانت هذه الطبيعة متمكنة في الكفار أكثر؛ لأن المؤمن قد

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 98).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 99).



يهذب نفسه من هذه الطباع السيئة بالإيمان والعمل الصالح، وعبر في الفرح بـ "إذا" وعبر في القنوط بـ "إن"؛ لأن جواب إذا مشكوك فيه، بينما جواب إن واقع لا محالة، فقنوطهم مقطوع به، وفرحهم مشكوك به؛ لأن النفس البشرية أقرب إلى القنوط منها إلى الفرح، لكثرة الخوف والهلع المجبولة عليه، وبين أن الابتلاءات والعقوبات غالباً ما تكون بسبب ما يعمله العبد من أعمال سيئة، ولذلك يُفرق العلماء بين البلاء والابتلاء، فالبلاء عقوبة للعبد على ذنب ارتكبه، والابتلاء اختبار وتمحيص للعبد الصالح لرفع درجاته.

**ثم قال سبحانه:** ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧)، **سؤال استنكاري تعجبي** من تقلب أحوالهم بين الفرح والقنوط، والرؤية هنا بمعنى العلم، فمن تأمل وتدبر؛ علم أن الخير والشر من الله، والرزق سعته وضيقه من تقديره سبحانه، وفي تقلب أحوال الناس بين الخير والشر، وبين البسط والقبض، وبين الصحة والمرض، دلالات لقوم يؤمنون بأقدار الله وحكمته، فلا يتسخطون منها.

**ثم قال:** ﴿فَأَنذِرْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ

وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨)، **أمر الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ** ومن معه من المؤمنين ممن بسط الله لهم الرزق، أن يعطوا من قُدر عليه رزقه مما أعطاهم الله من الرزق، فبدأ بذی القربى فيعطى ما يستحقه من الصلة والصدقة، وليس بالضرورة أن تكون زكاة، فإن كانت زكاة فهو أولى بها من البعيد، **والمسكين:** وهو الذي يتكفف الناس ويسألهم، وإذا ذكر المسكين وحده دخل في معناه



الفقير، وإذا اجتمعوا فالمسكين أرفع رتبة من الفقير، **وابن السبيل**: هو المسافر الذي انقطعت به السبل وانتهت مؤنته وهو بعيد عن وطنه، فهذا له حق الضيافة على كل من مر بهم في بلدهم، وعلل بأن هذا الفعل أجره عظيم وخيره عميم لمن فعله لوجه الله لا رياء ولا سمعة، ويحصل به لهم الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، وهو خير من فعل أهل الجاهلية الذين كانوا يؤثرون البعيد على القريب رياء وسمعة، ويعطون السادة وأهل السمعة تقرباً إليهم، ويتركون الأقارب والضعفاء<sup>(1)</sup>.

**ثم قال:** ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّالْيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾<sup>(٣٩)</sup>، **الربا في هذه الآية له معنيان<sup>(2)</sup>: الأول:** الربا المعروف شرعاً، وهو أن تعطي الإنسان مالاً وتطلب منه زيادة عليه مقابل القرض، والذي يفعل هذا الفعل آثم، ولا أجر له عند الله.

**والمعنى الثاني:** أن الربا مطلق الزيادة سواء كانت حسية أو معنوية، مثل ما يفعل بعض الناس حينما ينفقون أموالهم لتزداد سمعتهم في الواقع، فيمدحون بهذا الفعل، وهذه زياده معنوية وليست حسية، ونحوه أن يعطي غيره هدية أو يقدم له ضيافة، وينتظر منه أكثر منها، فهذا حرام ومأثوم صاحبه، ولا يكتب لصاحبه أجر في صحائف أعماله، ولا ينمو ولا يبارك الله فيه بل يمحقه ويبطله؛ لأنه كان لغير الله، ولو فعل ذلك الله وأخلص نيته لله لسجل ذلك العطاء في

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 104).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3 / 424).



صحائف أعماله، وضاعف الله أجره فيها، **كما في الحديث:** "إن الرجل إذا تصدق بتمرة من الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وقعت في يد الله فيريها له كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله حتى تعود في يده مثل الجبل" <sup>(1)</sup>، فمن أراد أن يزداد ماله ويتطهر من الأخلاق الرذيلة وينمو ويتضاعف أجره؛ فلينفق منه في سبيل الله بإخلاص ولا يشوبه براء ولا سمعة ولا منفعة دنيوية، **كما قال:** ﴿إِنَّمَا نُنْطِغُكُمْ لُوجَهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: 9].

**ويرى بعض أهل العلم** <sup>(2)</sup> أنه يُكره لمن يُطعم مسكيناً أن يقول له: ادعُ الله لي؛ لأن المسكين لو دعا الله له أو أثنى عليه؛ فقد حصل على الجزاء والشكور مقابل ما تصدق به عليه، **لحديث:** "من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا الله له حتى تروا أنكم قد كافأتموه" <sup>(3)</sup>، فالدعاء مكافأة للعتاء، ولذلك كان السلف يستحبون الصدقة خفية حتى لا يعلم بها أحد فيضاعف أجرها لهم عند الله، **وقد كان الإمام علي بن الحسين بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** الملقب بزين العابدين كثير الحرص على الصدقة سراً، فما علم الفقراء الذين كان ينفق عليهم بمصدر النفقة إلا بعد انقطاعها بموته <sup>(4)</sup>، أين هذا

(1) مسند أحمد: (16 / 577)، برقم: (10979)، وصحيح ابن حبان: (8 / 109)، برقم: (3316)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لابن تيمية: (ص: 170).

(3) مسند أحمد: (9 / 266)، رقم: (5365)، وسنن أبي داود (2 / 128)، برقم: (1672)، وإسناده صحيح.

(4) ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: (5 / 332).



الخلق العظيم اليوم ممن يُعطون الفقراء شيئاً يسيراً ويُصورهم وينشرون الصور في وسائل الإعلام!!.

### فوائد وهدايات من الآيات:

1- خطورة اتباع الهوى وأنه سبب للضلال، فاحرص على التفكير في الحق وأدلته.

2- أن دين الإسلام هو دين الفطرة السليمة.

3- أن القنوط من طبيعة النفس الإنسانية، ولا بد للإنسان أن يُهذبها بحسن الظن بالله.

4- أن إعطاء الحقوق لأهلها سبب للفلاح، وأولى الناس بها هم الأقارب والضعفاء والمحتاجين.

5- أن من أراد أن يزداد ماله ويتضاعف أجره؛ فلينفق منه في سبيل الله بإخلاص ولا يشوبه برىء ولا سمعة ولا منفعة دنيوية.



## تفسير المقطع الرابع من سورة الرابع

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠) **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (٤١) **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ** (٤٢) **فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** (٤٣) **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ** (٤٤) **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** (٤٥) **وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَنْفُلُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٤٦) **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (٤٧).

**قول الله تعالى:** ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠)، **يَسِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في هذه الآيات لكفار قريش نعمه المتعددة عليهم، فذكر أربع دلائل على انفراد الله تعالى بها في التصرف في الناس وإبطال ما زعموه من ادعائهم شركاء الله في الإلهية؛ فقد أوجدتهم من العدم، وخلقهم على هذه الهيئة المكرمة الحسنة،

ثم منحهم من فضله أنواعاً من الرزق الذي لا غنى لهم عنه في معاشهم، كالمال والولد والصحة، ونحوها مما يتمتع به الإنسان من أرزاق ونعم، فإذا انتهت آجالهم في هذه الحياة الدنيا؛ قبض أرواحهم وأماتهم، ثم يحييهم ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء، فهل تستطيع هذه الأصنام والآلهة التي منحوها صفة الشريك لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أن تفعل شيئاً من هذه الأمور الأربعة؟! **الجواب:** لا، فإنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ولذلك عقّب الله على هذا السؤال بتنزيه نفسه عن الشريك والمثيل والنِد الذي يدعيه المشركون مع الله.

**ثم قال:** ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١)، ظهر بمعنى بان وانكشف، والمقصود بالفساد ما فيه ضرر على الخلق، والمقصود بذلك ثمرة الإفساد، أو عاقبة الفساد الذي هو فعل الذنوب والشرك والمعاصي من العباد، فينتج عنها فساد البر بالقحط وقلة الأمطار ونزع البركة من الأرزاق، ونزول الأمراض والأسقام، وحصول الزلازل والمحن، وفساد البحر بتعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان، وكثرة هيجان الأمواج والرياح التي تعطل الأسفار فيه، وغير ذلك من الآثار السيئة التي تعم البر والبحر، **وذهب بعض المفسرين<sup>(1)</sup> إلى تفسير البر** بالقرى والمدن البعيدة عن السواحل والأنهار، والبحر القرى والمدن الملاصقة للسواحل والأنهار، ولكن إبقاء اللفظ على أصله الذي وُضع له في لغة العرب، وهو أن البر هو اليابسة والبحر هو الماء، أولى، وبين السبب لظهور هذا الفساد وهو ما

(1) ينظر: التفسير البسيط: (70 / 18).



فعلته جوارح البشر من الشر والمعاصي والمنكرات، ونسب الكسب إلى أيدي الناس مع أن الفساد قد يكون بالفرج واللسان وسائر الأعضاء؛ من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، واللام لام العاقبة، **أي:** فأذقناهم بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم وكفرهم<sup>(1)</sup>، أو هي لام العلة، **أي:** ليذيقهم جزاء بعض عملهم<sup>(2)</sup> في الدنيا؛ تنبيهاً لهم لعلهم يتوبون من كفرهم وشركهم ويرجعون إليه؛ فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، ولكن بعض الناس لا يستفيد من هذا الابتلاء، بل يزداد به عتواً ونفوراً إن نزل به، **كما قال:** ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43].

**وقوله:** ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾<sup>(٤٢)</sup>، **أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للمشركين:** تأملوا أثناء سيركم وسفركم في الأرض وتفكروا في آثار الأمم السابقة التي أهلكها الله، مثل قوم لوط، وقوم عاد، وقوم ثمود وغيرهم، فمنازلهم خاوية، وأراضيتهم مقفرة موحشة، وقد كانت عاقبتهم سيئة ونكالهم عظيماً، بسبب أن أكثرهم كانوا على الشرك بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، والقلّة منهم آمنّت بالله وصدّقت الرسل، وفي هذا تلميح وتهديد للمشركين من كفار مكة إن استمروا على الشرك بالله.

**وقوله:** ﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾<sup>(٤٣)</sup>، **الخطاب لمحمد ﷺ ومن معه من المؤمنين، المقصود**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 111).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4 / 263).



بالوجه هنا القصد، **أي:** اجعل قصدك اتباع الدين القيم، وهو دين الإسلام الذي لا اعوجاج فيه ولا خلل فيه، واستمر على التمسك به والاستقامة عليه في الدنيا من قبل أن تقوم الساعة، فإنه لا فائدة من الإيمان والاستقامة عند رؤية علامات الساعة الكبرى، فإذا جاء يوم القيامة وبعث الناس بين يدي الله وحاسبهم على أعمالهم؛ فإنهم ينقسمون إلى فريقين: مؤمنين يذهبون الجنة، وكفار يذهبون إلى النار، **كما قال:** ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

**وقوله:** ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ﴾ ٤٤، من كان كافراً في الدنيا فجزاء عقوبة كفره على نفسه لا يتحملها غيره، ومن عدل الله أن العقوبة والوزر على العبد تكون بقدر كفره، لا زيادة فيها ولا نقصان، ومن آمن وعمل صالحاً فجزاء ذلك له، ولكنه أطلق الجزاء الحسن دون تحديد؛ لأنه قائم على فضل الله، **وأشار بلفظة** "يمهدون" إلى أثر العمل الصالح في الدنيا في تحسين المرقد في الآخرة، وهذا يشمل القبر والمحشر والجنة، شبه حالة المكلف مع عمله الصالح وما يتحصل به من الثواب ويتخلص من العقاب، بحالة من يمهد فراشه ويوطئه ليسترخ عليه ولا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه<sup>(1)</sup>، وفيه بيان أن عمل العبد في الدنيا يعود منفعة أو ضرره عليه في الآخرة، لأن الله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

**وقوله:** ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ٤٥،

(1) ينظر: تفسير الألوسي: (11/ 50).



اللام للتعليل متعلقة بـ "يمهدون" <sup>(1)</sup> أي: ليشيهم الله أكثر من ثواب أعمالهم بفضلهم وكرمهم، والكافرون لا يحبهم وأدخلهم النار بسبب كفرهم، وذلك من عدله؛ لأنهم فعلوا قبائح يستحقون بها الكره والعقوبة في النار، وفي هذا إشارة إلى أنه يُحب المؤمنين.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ أَفْئَكُكُمْ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ <sup>(٤٦)</sup>، **ومن آيات الله الدالة على عظمته وقدرته وتفردته بالألوهية؛** تكوين الرياح وبعثها وتحريكها مبشرة بنزول الغيث لأنها تتقدمه، وفي حركتها منافع كثيرة كاعتدال الجو، وذهاب الرطوبة، وتلقيح الأشجار ونحوها، وإذاقة الرحمة للخلق هو نزول المطر إلى الأرض؛ حيث يكون من أثر هذه الرحمة إنبات الشجر وحصول الخصب والرخاء، وذهاب الغبار والأتربة وسائر ما كانوا يتأذون منه بسبب سكون الرياح وقلة الأمطار، **ومن منافع تحريك الرياح أيضاً** جري السفن على البحر، لأن السفن القديمة كانت شراعية تجري بالرياح فقط، ولا يوجد فيها مكائن تتحرك بالطاقة كسفن اليوم، وإذا تحركت السفن في البحر انتعشت التجارة بالبيع والشراء وجاءت الأرزاق، وقد فعل الله بكم ذلك لأجل أن تشكروه بالتوحيد والإيمان به، فيزيدكم من نعمه وفضله.

**ثم قال:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمْوُا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ <sup>(٤٧)</sup>، في هذه الآية إخبار للنبي ﷺ بأنه

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 117).



ليس أول رسول إلى قومه، بل قد سبقه رسل كثير إلى أمم كثيرة، وقد جاءوا أقوامهم بالمعجزات والحجج والبراهين، ودعوهم إلى التوحيد والعمل الصالح، فلم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وأذوهم، فعاقبهم الله بسبب كفرهم وإجرامهم وأهلكهم؛ لأن الانتقام هو سلب النعمة بالعذاب<sup>(1)</sup>، والمنتقم ليس من أسماء الله الثابتة له، ولا يُوصف الله بالمنتقم على الإطلاق ولا بالماكر ولا بالمُخادع؛ لأن هذه الأسماء جاءت مقيّدة بمن يستحق ذلك، فهو يمكر بمن يستحق المكر، وينتقم ممن يستحق الانتقام، ويخدع من يستحق الخديعة، وهنا جاء الفعل مقيداً بالإجرام، والإجرام فعلٌ قبيحٌ يشمل الإجرام في حق الله بالشرك والكفر، وفي حق الخلق بالمنكرات والآثام، فاستحقوا الهلاك بسبب كفرهم وإجرامهم، وأنجى المؤمنين بتحقيق وعده لهم بالنجاة، فإن الله إذا أخبر بشيء تحقق ذلك الشيء ووُجد على ما أخبر به سبحانه<sup>(2)</sup>، ولا يتخلف، وهذا الحق في إنجاء المؤمنين ونصرهم حق أوجبه الله على نفسه، وهو لا يُخلف الميعاد، خلافاً لمذهب المعتزلة الذين يوجبون ذلك على الله<sup>(3)</sup>، والألف واللام لاستغراق كمال الإيمان، وهو شرطٌ لنيل النصر والتمكين لهم، فقد يتأخر النصر عن المؤمنين أحياناً حتى يكتمل الإيمان عند أغلبهم، وفي هذا سؤال البعض: ما للمؤمنين والمسلمين يُعذبون ويُضربون من اليهود والنصارى ويفعلون بهم كذا وكذا وهم يُصلون ويعبدون الله؟! هل يُخلف الله وعده؟،

(1) الفروق للعسكري: (ص 77).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18 / 76).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3 / 484).



**والجواب:** لا، ولكن هناك قصور في تحقيق كمال الإيمان عندهم، وهناك سنة الإمهال والأجل للكافرين، فإذا اكتملت سنة الإمهال للكافرين، واکتملت شروط النصر للمؤمنين؛ أهلك الله المجرمين، ونصر الله المؤمنين، وفي الآية تبشير للنبي ﷺ بالظفر في العاقبة، والنصر على مَنْ كذبه.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان أن الذنوب والمعاصي من أسباب خراب البيئات، وذهاب البركات منها.
- 2- بيان أهمية التفكير والتأمل في أحوال الأمم السابقة التي أهلكها الله والاتعاظ بحالهم.
- 3- بيان أن نعم الله كثيرة، وأن هذه النعم تستدعي أن يشكر العبد ربه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عليها.
- 4- بيان أن النصر للمؤمنين، وأن الهلاك للكافرين ستان ماضيتان، تتحققان عند توفر شروطهما.



## تفسير المقطع الخامس من سورة الروم

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا  
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ۖ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾  
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ۖ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ  
كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ  
أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ۖ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ  
الْأُصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ  
بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً  
ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ  
السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ  
أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ۚ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ  
وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ  
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ  
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ وَلَا يَسْتَخِفِّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

**قول الله تعالى:** ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ٤٨ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ ٤٩﴾، **هذا بيان لعظمة قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في تدبيره شؤون الكون، فإن الله يُرسل الرياح، أي: يبعثها ويحركها بطريقة هادئة فتتحرك بها السحاب وتنقله في طبقات الجو حتى يتكثف وتزداد برودته ويمده وينشره في السماء، بالكيفية التي يريدّها الله سبحانه، فتكوّن السحب في السماء على أشكال متعددة كما هو مشاهد، وأحياناً تكون مترابطة، وأحياناً تكون قطعاً متباعدة متناثرة، ثم يتراكم هذا السحاب ويرتفع فتزداد برودته فيتحول إلى قطرات من المطر، والخلال الشقاق الذي بين بعضه وبعض<sup>(1)</sup>، فيخرج من خلال تلك الفراغات المطر، فينزل بوزن معين حتى لا يؤذي من نزل عليه، وهذا من رحمة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وتدبيره بالخلق، فإذا أصاب بهذا المطر من يشاء من عباده؛ فرحوا بهذه النعمة واستبشروا بآثارها، والعبودية هنا المقصود بها العبودية المطلقة، فقد يكون الذي تنزل الأمطار على أرضه وبلده مسلماً أو كافراً، وكانوا حين قد انقطع عنهم المطر وتأخر نزوله عنهم، قد أصابهم الإبلas، وهو شدة اليأس من رحمة الله، من كثرة انتظارهم لنزوله؛ فلما نزل عليهم استبشروا به استبشاراً كبيراً وفرحوا به فرحاً عظيماً، وفي ذلك إشارة إلى عظيم حكمة الله في خلق الإنسان، إذ جعله قابلاً لاختلاف الانفعال بين فرح وقنوط مع اتحاد العقل والقلب، كما جعل السحاب مختلف

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1468).



الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج المطر من خلاله<sup>(1)</sup>.

**وقوله:** ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٥٠)</sup>، الخطاب يصلح لكل ناظر، ورحمة الله هنا المقصود بها نزول المطر، والأثر هو ارتواء الأرض، وذهاب حرارة الجو، ونبات الزرع، واستبشار الخلق بذلك، فمن أحيا الأرض بالمطر بعد موتها باليبس والقحط، فهو القادر على إعادة الحياة إلى أجساد الموتى، وبعثهم ومجازاتهم يوم القيامة، وهو مثال تقريبي لكيفية البعث ضربه الله لهم، فإن الله لا يقف أمام قدرته شيء ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾<sup>(٥١)</sup>، في الآية مقارنة عكسية، فالرياح الأولى كانت رياح رحمة وخير، ولذلك جمعها؛ لأنها تتكوّن من عدة جهات، بينما أفرد الريح هنا؛ لأنها غالباً تكون من جهة واحدة وفيها معنى الشدة والقوة، **والمقصود بالريح هنا العذاب**<sup>(2)</sup>، أو الريح اليابسة الباردة التي لا خير فيها، فتسببت بيبس الزرع واصفرار لونه، **والمعنى** لو أرسلنا عليهم بعد المطر ريحاً يابسة باردة أذهبت خضرة هذا الزرع وأفسدته؛ لذهب منهم الفرح سريعاً، وعاد إليهم اليأس والقنوط من جديد، ولحصل منهم الجحود لنعم الله السابقة، فمن طبيعة الكافر أنه يجحد النعم، ويتذكر النقم، بينما المؤمن تجده صبوراً على النقم شكوراً على النعم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 122).

(2) التفسير البسيط: (18 / 79).



**ثم قال الله لنبيه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّعَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٢)**  
وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾، الخطاب  
في الآيات لمحمد ﷺ، وهو مثالٌ ضربه الله للكافر الذي لا يسمع الموعظة ولا  
يهتدي بها، فشبه حالهم بالموتى في عدم إحساسهم، وهم فعلاً موتى القلوب،  
**كما قيل:**

**ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء<sup>(1)</sup>**

فمن ماتت قلوبهم عن سماع الهدى والاستفادة منه يشبهون الموتى الذين في  
القبور ولا يسمعون من يناديهم من الأحياء، ومثلهم أيضاً كالشخص الحي الذي  
في أذنه صمم، الذي لا يسمع النداء ممن حوله لشدة انسداد أذنه، فكما لا تسمع  
الموتى ولا تسمع الأصم المناداة؛ فكذلك لا تسمع الكافر الحق والهدى، وإن  
سمع الصوت، فسماعه سماع لا عمل فيه، ولذلك نفاه الله عنه، والتولي هو  
الإعراض عن القبول والعمل، فإن المشركين كانوا يُعرضون عن سماع القرآن  
والنصح الذي كان يُقدمه لهم رسول الله ﷺ، ويُولون الأدبار معرضين عن ذلك،  
ومثلهم أيضاً كالشخص الأعمى الذي ذهب بصره، فلا تستطيع أن تريه الطريق  
ليسير عليه، **والمقصود بالأعمى هنا** أعمى البصيرة، فالضلال من أمراض القلوب،  
فهو لم ير الهدى لفساد قلبه؛ فاستمر في طريق الغواية والضلال، وحصر السماع  
المفيد للحق بالمؤمن بالله وبآياته المستسلم لأمر الله وشرعه، فهذا هو الذي وفقه  
الله للهداية والاستفادة من النصح والتوجيه.

(1) البيت لعدي بن الرِّعَاء الغساني، ينظر: الأصمعيات: (ص 152).



ثم ذكر الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى هنا مظهراً آخر من مظاهر قدرته في الخلق والإيجاد، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤)، الخطاب للبشر لأنهم هم المكلفون، والمقصود بالضعف هنا هو النطفة التي تكون علقة ثم مُضْغَةً، ثم يكون جنيناً ضعيفاً، ثم يولد طفلاً ضعيفاً يحتاج إلى عناية ورعاية، فهذه كلها تدخل في مرحلة الضعف، ثم يكبر الطفل وتقوى بنيته وجسده ويكبر فكره وعقله وسمعه وبصره وسائر قواه فيكون في مرحلة القوة، وهي مرحلة الشباب، بعدها تذهب مرحلة الشباب وتأتي مرحلة الضعف والشيبة والهرم، ثم بعدها مرحلة الشيخوخة، وهي آخر المرحل، والمرحلتان الأخيرتان مرحلة انحدار وضعف في الجسد والسمع والبصر وسائر الأعضاء، وهذه الأطوار التي يمر بها الإنسان كلها كانت وفق مشيئة الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى وتقديره، فهو الذي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ومن حكمته في هذا أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص<sup>(1)</sup>، وذليل الآية بالعليم القدير حتى لا يظن ظان أن هذا الضعف أتى عن جهل أو عجز، بل هو بعلم الله وقدره لحكمة يريدها الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥)، فإذا قامت القيامة وبُعث الكفار الذين كانوا يُنكرون البعث والنشور فإنهم يعودون إلى كذبهم ويحلفون أنهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة،

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 645).



وهذه طبيعة المشركين، فالكذب صفة مطردة فيهم منذ كانوا في الدنيا فقد كانوا يحلفون أنه لا يوجد جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور، وأن الله لم يرسل رسولا ولا أنزل كتابا، فُبُعْثُوا على تلك الطبيعة، والهدف من هذا الكذب هو تبرير كفرهم، وأن الوقت لم يكن كافيا لكي تبلغهم الحجة ليؤمنوا بالله، وكذبهم هذا الذي اعتادوا عليه، هو سبب لصرفهم عن اتباع الحق في الدنيا حين عرض عليهم!

**وقوله:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦)، فلما سمع أهل العلم من المؤمنين قولهم الباطل وكذبهم الفاضح، سارعوا إلى الرد عليهم، وهذه طبيعة مطردة عند أهل العلم والإيمان، فقد عاشوا في الدنيا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وإقامة الحق والعدل، فكانوا كذلك في الآخرة، فأكذبوا المشركين في قولهم هذا، وبينوا لهم أنهم قد عاشوا في الدنيا وقتا طويلا وفقا لما كتب الله لهم من أعمار في اللوح المحفوظ، ثم ماتوا وبقوا في البرزخ ما شاء الله لهم من الوقت، ثم بُعْثُوا في القيامة للحساب والجزاء، فهذه تفاصيل حياتهم، وفيها فرصة كافية للعمل والاستعداد للآخرة، فلا تكذبوا على الله ولا على أنفسكم، وهذا يوم القيامة الذي كنتم تنكرون وجوده، وفيه توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقبهم من العذاب<sup>(1)</sup>، ونفى عنهم العلم به لأنهم لم يستعدوا له، وغرهم جهلهم بالله فأنكروا قدرته على بعثهم، ولو كان عندهم أدنى علم ومعرفة بالله، لما أنكروا مثل هذه الحقائق الواضحة البينة.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 131).



**وقوله:** ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧)،

سبق بيان أن العلة من إنكار بقائهم في الدنيا كثيراً هو البحث عن عذر لهم يوم القيامة، فجاء التصريح هنا بالعلة، فمهما حاولوا البحث عن عذر لهم ولوا بالكذب واليمين الباطلة، فلا يتنفعون بذلك ولا يُقبل منهم العذر، فيوم القيامة يوم للحساب والجزاء وليست داراً للتوبة والاعتبار، فدار التوبة والاعتبار هي الدنيا، والسين والتاء للطلب، **أي:** ولا يُقبل طلبهم في إزالة العتب عنهم، **وفي الحديث:** "ولك العتبي حتى ترضى" <sup>(1)</sup>، **أي:** أسترضيك حتى ترضى عني، فهو لاء القوم رفضت معاذيرهم عند الله، ولا يرضى الله عنهم ولا يقبل توبتهم لأنه قد فات وقتها!

**ثم قال الله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨)، **يبين الله سبحانه وتعالى**

أنه قد أكثر من ضرب الأمثلة المتنوعة في هذا القرآن، من أجل أن تتضح للناس الحقائق، وتقرب لهم المعلومات، فضرب الأمثال أسلوب من أساليب إيصال المعلومة بأقصر طريق، غير أن المشركين لم يستفيدوا من تلك الأمثال، بل سارعوا إلى التكذيب بها وإنكار ما جاء به محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه من المعجزات والحجج، بل لشدة إعراضهم عن الحق يتهمون من جاءهم به بأنه مُبطل وأنه لا حق لديه!

**وقوله:** ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩)، **الكاف**

للتشبيه وتعود على ما فعله الله بهم من الطبع على قلوبهم وعدم التأثر بالمثال

(1) الدعاء للطبراني: (ص: 315)، برقم: (1036)



والموعظة والاعتناع بالمعجزة، فوقعوا في الكفر، وهي نتيجة حتمية لكل من أعرض عن الحق وجهل عظمة الخالق سبحانه، أن يجعل قلبه غير قابل لفهم الأمور الدينية أو الاستفادة منها، وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ.

**ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أي:** استمسك يا محمد بالصبر وتحمل تكذيبهم وأذيتهم لك وإعراضهم عنك، فما وعدك الله به من النصر والتمكين وظهور دينك على الدين كله وذهاب هؤلاء المشركين وهزيمتهم كائن لا محالة، وإنما هم يعيشون في سنة الإمهال، فإذا انتهت وقع بهم وعد الله، فإن وعد الله حق لا يتخلف، ونهاه أن يستخفه المشركون ويستعجلونه بفعل شيء لم يؤمر به، فالاستخفاف المبالغة في الخفة، وضده الرسوخ والثقل، **أي:** انتبه أن تترك الرزانة في المواقف والصبر والثبات على المبادئ ولا تخرج عن طورك وتفعل ما يريدون، بل اثبت على الحق، مهما واجهت منهم من تكذيب وإعراض واستفزاز، وهو أمر للنبي ﷺ ولكل داعية بعده يدعو إلى الحق في أي زمان ومكان، فأعداء الإسلام يحاولون دائماً أن يستخفوا الدعاة لكي يتصرفوا تصرفاً خاطئاً ثم ينسبوا هذا الخطأ إلى دينهم تنفيراً منهم وتشويهاً لهم، ونفى عن الكفار اليقين؛ لأن دينهم يقوم على الشك والظن، ومن كان هذا حاله فلا مبدأ سيبقى معه، ولا قناعة سيستقر عليها! بل سيدور مع مصالحه وأهوائه حيث دارت، فالיום يكون مع مبدأ وفكرة، وغداً مع مبدأ وفكرة أخرى!!



## فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان قدرة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وتدبيره في هذا الكون إشارة إلى قدرته على البعث والنشور والحساب.
- 2- بيان أن الكافر طُبع على اليأس والقنوط، وإن جاءت نعمة سرعان ما ينساها، بخلاف المؤمن الذي يشكر الله على نعمه ويصبر على بلائه.
- 3- بيان أن الهداية نوعان: هداية التوفيق وهي بيد الله، وهداية الإرشاد وهي بيد الرسل والدعاة.
- 4- بيان مراحل عمر الإنسان، وأنه يبدأ ضعيفاً، ثم يشب ويقوى، ثم يضعف، ليستعد للآخرة في وقت قوته ونشاطه.
- 5- أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يُعاقب المعرض عن قبول الحق بالختم على قلبه فلا يفهم الحق ولا يهتدي به.
- 6- نهى الله رسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن يستخفه الذين لا يُوقنون، وهو توجيه عام يشمل الدعاة في كل زمان ومكان أن يثبتوا على مبادئهم وأخلاقهم الحسنة مهما استفزهم أعداؤهم.



## تفسير سورة لقمان

## تفسير المقطع الأول من سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

## شخصية السورة:

سورة لقمان؛ سورة مكية<sup>(1)</sup>، والمقصد العام لهذه السورة، هو بيان الحكمة

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 330).

والدعوة إليها والتحذير من ما يُناقضها ويُخالفها.

**ابتدأت بقوله: ﴿الْم ١﴾**، وهذه الأحرف المقطّعة الصحيح فيها أنها لا تفسر لها، وإنما هي إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، فإنه مكوّن من هذه الأحرف التي تتكوّن منها لغة العرب، ومع ذلك لم يستطع العرب أن يأتوا بشيء من مثله.

**وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢﴾**، هذا وصف للقرآن الكريم الذي هو آخر الكتب السماوية، بأنه حكيم، **أي: ذو حكمة**، وهو حكيم، **أي: مُتقن** الإحكام فلا نقص فيه ولا خلل، وحكيم في تشريعاته وأحكامه، وحكيم في أخباره وقصصه، فليس فيها خلل ولا خيال، بل كلها حقائق، وأغلب آياته مُحكمة لا نسخ فيها، ولا غموض في معانيها، فجميع ما سبق من مقتضيات وصف القرآن بالحكمة.

**وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣﴾**، نصبت على أنها حال، أي حال كونه هدىً ورحمةً يهتدي به ويرحم به من أحسن في إيمانه وعمله، فيوفقهم للصراط المستقيم، ويخرجهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والتوحيد، ويرحمهم في تشريعاته وأحكامه، فيصلون باتباعه إلى دخولهم في الرحمة العظمى وهي جنات النعيم، وخص المحسنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم يستحقون ذلك، فمن أحسن في عمله جازاه الله تعالى على إحسانه هدىً ورحمة، فمن أراد أن يمنحه الله الهداية وأن يرحمه الله في كل أحواله؛ فعليه أن يُحسن في كل شؤونه بالإتقان للعمل، والإخلاص فيه.



**ثم وصف هؤلاء المحسنين بثلاث صفات رئيسية، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٤،** فهم يحافظون على الصلاة ويؤدونها بخشوع وبكامل أركانها وشروطها وواجباتها، ويُعطون الصدقة المطلقة من أموالهم طيبة بها نفوسهم إلى من يستحقها؛ لأن الآية مكية، ولم تكن الزكاة الواجبة قد فرضت في مكة، ويؤمنون بالآخرة إيماناً بلغ إلى درجة اليقين الذي ليس فيه أدنى شك، لأن الكفار من حولهم كانوا يشكون شكاً مطلقاً في البعث والنشور ويُنكرونه، فكان لا بد من إبراز هذا الفارق بينهم، فالؤمن لديه إيمان ويقين مطلق باليوم الآخر، فالأولى عبادة بدنية، والثانية عبادة مالية، والثالثة عبادة قلبية.

**وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥، هذا بيان** لجزائهم عند الله بسبب صفاتهم وأعمالهم السابقة، واستخدم اللام في "أولئك"، إشارة إلى بُعد مكانتهم وتعظيم شأنهم، ورفع مقامهم عند الله، واستخدم حرف الجر "على"؛ لأنهم علوا بالهدى وارتفعوا بسببه، وأتى بلفظ الرب هنا ليُشعرهم أن هذا الهدى الذي معهم منحه لهم من ربهم وأحسن إليهم به، وقدم الضمير على الاسم لأجل الاختصاص فلا فلاح لغيرهم إلا من ساواهم أو زاد عليهم، وأتى بالألف واللام التي تدل على استغراقهم للفلاح المطلق في الدنيا والآخرة، وهو النجاح والفوز الذي ليس بعده فوز.

**ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ٦،** ثم ذكر حال من لم يهتد بالقرآن



وأعرض عن سماعه والاستفادة من أنواره فحرم من دخول الإيمان والسعادة إلى قلبه، وشغل نفسه بما لا فائدة منه، بل عارض القرآن بالقول الباطل، و"من" هنا تبعية، **قيل** (1): إن هذه الآية نزلت في أحد رجال قریش، وهو النضر بن الحارث، فقد كان يذهب إلى بلاد فارس والروم ويأتي بأساطير الأولين وقصصهم وأخبارهم فيقرأها على الناس في مكة ليُعارض بها القرآن الكريم، **ولفظ**: "يشترى" ليست على بابها، وإنما هو تعبير عن عناية الرجل واهتمامه بهذا اللهو وكأنه يدفع ثمنه، **ولهو الحديث ذكر في تفسيره أقوال** (2)، **قيل**: إنه الغناء، **وقيل**: إنه الباطل، **وقيل**: الكذب، **وقيل**: السحر والشرك، ونحوها من الأقوال، والصحيح أنه اسم عام يدخل فيه كل ما يشغل عن الإيمان بالله والعمل بالشرع مما ذكر وغيره من كل كلام باطل يُلهي الإنسان عن الحق والخير والإيمان والصلاح، واللام للتعليل، أي من أجل أن يُضل الناس به عن سماع ما يدلهم على الله ويوصلهم إلى طريقه المستقيم وسبيله القويم، وهو الإسلام، وسبيل الله اسم يشمل دين الإسلام وكل ما فيه خير للبشرية، والمقصود بغير علم هنا **أي**: ليس عنده حجة ولا برهان لا عقلي ولا نقلي على ما جاء به، بل إن فعله هذا يدل على جهله، بل الحجج والبراهين تدل على عكس ما يفعل وأن فعله هذا باطل وضلال ولغو لا فائدة منه، ومن أهدافه أيضاً الاستهزاء بآيات القرآن الكريم عند تلاوتها، وجاء الضمير مؤنثاً ليشير إلى أن المقصود بهذا

(1) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (6/ 503).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 126).





ولكن الله أراد أن يُقرعه ويُوبخه، والخطاب يصلح لكل مُخاطَب بعد محمد ﷺ إلى قيام الساعة.

**ثم قال:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝٨ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾، انتقل الحديث بعد هذه الآيات إلى الحديث عن المؤمنين الصالحين، لبيّن الفرق بين حال المعرضين عن الآيات القرآنية وسماعها والاهتداء بهدايتها والمعارضة لها بالأقوال الباطلة أو بالأغاني والموسيقى وسائر آلات الطرب واللهو، وبين حال المؤمنين الذين يعملون الصالحات في الدنيا، فهم في الجنة في حال لا ينفك عنها النعيم المقيم، مما لا أذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون فيها لا يخرجون منها أبداً، قد وعدهم الله بذلك وعداً يتحقق ولا يتخلف، فهو كائن لا محالة، ثم ذيل الآية باسمين من أسمائه الحسنی غالباً ما يقرنان مع بعض، فالعزة تعني القوة، والحكمة تعني عدم الخلل والنقص ووضع كل شيء في موضعه، ومن عزته وحكمته؛ وفق من وفق، وخذل من خذل، وفائدة الجمع بين هذين الاسمين، أن يستشعر العبد قوة الله وحكمته في أفعاله وشرعه.

**ثم قال:** ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾، **يبين الله** لهؤلاء الكفار الذين يُنكرون البعث والنشور ويعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله العظيم الجليل سبحانه، بأنه خلق السموات السبع وهي خلقٌ عظيم لا يعرف حقيقته وكنهه على الواقع إلا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وما وصل إليه العلم الحديث من



تفاصيل إنما هو شيءٌ تقريبي له، ومن عظمة الخالق وقُدْرته أنه جعلها مركبة على الأرض كالقبة بدون أعمدة، ولو كان لها عمد لرآها الناس، وإنما استقرت واستمسكت<sup>(1)</sup> بقدرة الله تعالى، ولو رأيت قبة مبنية في مسجد وكانت هذه القبة واسعة وكبيرة فستجد مجموعة من الأعمدة القوية التي تحملها، وكلما توسعت هذه القبة كلما ازدادت الأعمدة، وكلما أتقن المهندس في ضبط هذه القبة ووسعها كلما قيل عنه مبدعاً، فما بالك ببديع السموات والأرض سبحانه، فقد خلق السماء وجعلها كالقبة على الكون كله، وصارت كغطاء وقبة للأرض، وهي قبة لسائر المجرات الكونية الأخرى مثل المريخ والمشتري والشعري ونحوها، وأظهر قدرته في الأرض بأن ثبتها بالجبال الرواسي التي نصبها تُرسي وتُثبت الأرض وتجعلها مستقرة فلا تتحرك، ولا تضطرب بالخلق الذين يعيشون عليها، ولو تحركت الأرض حركة خفيفة في جوفها وهو ما يُسمى الزلزال لحصل الدمار فيها، فكيف لو اضطربت الأرض اضطراباً شديداً، لهلك كل من يعيش عليها، وخلق ونشر على ظهر الأرض الدواب، وهي كل ما يدب على الأرض من الحشرات والدواب والأنعام وسائر المخلوقات التي تعيش على الأرض، وسخرها في مصالح بني آدم ومنافعهم، وأنزل من السحب الأمطار التي تتكوّن من البخار المرتفع من البحار والأنهار ثم تحركه الريح فيتكثف حتى يُصبح ماءً، ثم يأذن الله بنزوله إلى الأرض، فنبت به النباتات المتنوعة من كل الأصناف، وكريم المقصود به هنا الشجر المثمر أو المفيد

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 647).



الذي فيه منافع للإنسان والحيوان، وقُلَّ أن تجد شجرة إلا وفيها منفعة للخلق، علم بذلك من علم، وجهله من جهل، لأن الله لم يخلق شيئاً عبثاً.

**ثم قال سبحانه:** ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١١)، اسم الإشارة يعود إلى خلق السموات والأرض والجبال وخلق الدواب وإنبات الأشجار، هذا كله خلق الله، فأخبروني ماذا خلقت هذه الأصنام التي اتخذتموها من دون الله آلهة؟! هل تستطيع أن تخلق ذباباً؟ الجواب: لا، فلماذا تعبدونها من دون الله وهي بهذا العجز؟! وهذا يُسميه العلماء بالاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فإن الخالق القادر المتصرف هو الذي يستحق أن يُعبد وحده، بل هذه تُفيد الإضراب وتكون بمعنى لكن، **والمعنى** ولكن كانت عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور<sup>(١)</sup>، فسبحان من أذهب عقول بعض الناس فجعلهم يصنعون آلهتهم بأنفسهم ثم يعبدونها ويطلبون منها جلب النفع ودفع الضرر!.

**ثم قال:** ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١٢)، ما سبق ذكره هو ممهّدات ومقدمات لنصائح وحكم لقمان **عليه السلام**، والصحيح أنه حكيمٌ ورجل صالح وليس نبياً<sup>(٢)</sup>، والمشهور عند أهل السنة والجماعة أن لفظ "**عليه السلام**" خاصٌّ بالأنبياء

(١) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 647).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 273).



والرسل، خلافاً لغير أهل السنة الذين يُطلقون لفظ "عَلَيْهِ السَّلَامُ" على غير الأنبياء والرسل من أئمتهم، وقد كان لقمان رجلاً من أهل السودان<sup>(1)</sup>، منحه الله تعالى الحكمة، وهي الفقه في الدين والإصابة في القول وكمال العقل وحسن التصرف، فارتقى شأنه وارتفع بالحكمة لا بجنسه ولا بلونه، **ولذلك قيل<sup>(2)</sup>:**

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسبِ

فالذي يرفع الإنسان هو الأدب والأخلاق والعلم والحكمة، وليس حسبه ولا نسبه ولا جماله، فرفع الله ذكر هذا العبد الأسمر بالحكمة التي وهبها الله له وألهمه بها، ومنحه التوفيق بأن يشكر الله **مُبَحَّانَةً وَتَعَالَى** على كل نعمة أنعمها عليه، ثم ذكر قاعدة مطلقة في فعل الخير أو فعل الشر، فمن فعل خيراً فلنفسه، ومن فعل شراً فلنفسه، فأجر وثواب الشكر يعود على صاحبه، ووزر وعقوبة الكفر يعود على صاحبه، وترك بيان نتيجة الكفر احتقاراً لأصحابها، ونبههم إلى أن الله غني عنهم وعن شكرهم، فهو غني بذاته، ومحمودٌ على كل حال وعلى كل لسان، وغناه ممدوح ومرتبط بالحمد والثناء وليس فيه أشر ولا بطر كغنى بعض المخلوقين.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 333).

(2) البيت لأبي العتاهية، ينظر: جمهرة الأمثال: (2/ 312).



## فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن طاعة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** سبب للفلاح في الدنيا والآخرة، ومعصيته سبب للهلاك في الدنيا والآخرة.
- 2- أن كل ما يصد عن الإيمان والعمل الصالح، فهو من لهو الحديث ولا ينبغي الانشغال به.
- 3- أن من موانع الهداية والاستقامة على دين الله الكبر عن سماع الحق والإذعان له.
- 4- أن الله **جَلَّ وَعَلَا** هو المُنْفَرِد بالخلق ولا خالق غيره، فلا معبود سواه.



## تفسير المقطع الثاني من سورة لقمان

﴿وَلِذَٰلِكَ لَقَمْنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ. يَبْنِي لِأَشْرِكٍ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَىٰ الْآخِرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْقَال حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُٓ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ

الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣)، ثم بدأ بذكر وصايا لقمان لابنه، التي وعظه بها وهي من الحكم التي منحه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وألهمه بها فضلاً منه وكرماً، وقد بدأ هذه الوصايا والحكم بنهي عن الشرك بالله وتحقيق التوحيد، وهو أصل الإيمان، وهو الطريق الأمثل في ترتيب الأولويات في الدعوة إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم به معاذاً حين أرسله إلى اليمن، فقال له: "إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى" (1)، وسماها موعظة؛ لأنها ترهيب مقرون بالترغيب، وطبيعة النفس البشرية تحتاج إلى ملاينة وترغيب في الأجر لتقبل على الطاعة، وتخويفاً وتشديداً عليها لتبتعد عن المعصية، ثم علل النهي بأن الشرك ظلمٌ عظيم؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فالذي يعبد غير الله قد وضع العبادة في غير موضعها، وقد ظلم نفسه بذلك حيث عرّضها للهلاك والعذاب بسبب هذا الفعل القبيح، والشرك ذنب عظيم؛ لأنه أكبر الكبائر، كما في الحديث: "أكبر الكبائر الإشراك بالله" (2).

**وقوله:** ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ، فِي عَمَيْنِ

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٤)، هذه الآيات جاءت كجملة اعتراضية أثناء وصايا لقمان لابنه، وهي بمثابة التهيئة لما سيأمر به ولده من وصايا، والذي وصى الإنسان بوالديه هو الله، حيث أمره أن يبر بوالديه وأن يُطيعهما في طاعة

(1) صحيح البخاري: (9/114)، برقم: (7372).

(2) صحيح البخاري: (9/3)، برقم: (6871).



الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وعلل أهمية هذه الوصية بما تبذله الأم وما تتعرض له الأم من تعب وضعف بسبب حملها لهذا الولد، فإن الأم إذا حملت جنينها في بطنها تُصاب بالضعف، وكلما كبر الجنين في بطنها زاد تعبها وضعفها، وهذا مشاهد في الواقع، فالمرأة تكون في الأشهر الأولى أقوى منها في الأشهر الأخيرة من الحمل بسبب كبر الجنين في بطنها، إضافة إلى ما يصاحب هذا الحمل الثقيل من آلام للمرأة؛ لأنه يُضيق عليها المعدة والقلب وباقي الأجهزة التي توجد حول الجنين وتزداد الحاجة إلى الغذاء فإن دم الأم كله أو أغلبه يُصب في الحبل السري الذي يُغذي الطفل فيحصل فيه إنهاك للمرأة كلما استمر الحمل وطال، ثم تتعب في ولادته، وتهتم برضاعته فترة من الزمن حددها هنا بعامين، **أي:** خلال العامين، فبعض النساء قد تستكمل مدة الإرضاع كاملة، وبعضهن أقل أو أكثر، وكل هذا جائز إذا لم يكن ثم ضررٌ على الطفل في فطامه وفي الإرضاع والفطام مشقة وتعب على الأم، فإن الأم المرضعة تتعب بسبب الرضاعة، ولذلك أدخل بعض أهل العلم المرضعة في حكم المرضي في باب الصيام وجوز لها الفطر بسببه، كما أن الفطام يؤثر عليها من الناحية المعنوية، فإنها حين تفطم ولدها تشعر بالألم والحزن والتألم عليه، خاصة أنه لا يتعد عن الرضاع إلا بمشقة ويحتاج إلى وسائل لإبعاده عنها، وفي هذه المرحلة يكون الطفل منزعجاً جداً فتتألم الأم لانزعاجه، والمقصد من ذكر ذلك للابن أن يستشعر ما بذلته أمه من أجله حتى يبرّها ويحسن إليها، ولم يذكر شيئاً عن الأب؛ لأن ما تبذله الأم في الحمل والإرضاع والفطام يُشاركها في ذلك الأب فإنه هو من يقوم



على نفقتها ومتابعة أمرها والبحث عما تحتاج إليه، فهي لا تقوم بما يجب عليها نحو طفلها وجنينها إلا بمساعدة الأب، ثم جمع بين الوصية بالشكر لله أولاً والشكر للوالدين ثانياً؛ لأن الله هو الموجد والخالق والمُنعم على هذا الإنسان، ولأن الوالدين هما سبب في وجوده فقدّم حق الله على حق الوالدين، ثم ختم الآية ببيان مرجع الخلق كلهم وأنه إلى الله، وهو خبر لكنه يُفيد التهديد والوعيد، فإن الغاية من البعث والنشور هو الحساب والجزاء للخلق على أعمالهم.

**ثم قال:** ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ ۚ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾، هذا بيان لحدود الطاعة للوالدين، وأنها لا تلزم الولد إذا كانت تتعارض مع طاعة الله، فلو طلب الوالدان واجتهدا في دعوة الولد إلى الشرك بالله بغير علم، وكل ما يصرف الإنسان عن التوحيد فهو جهلٌ لا حجة فيه، فالواجب عليه أن لا يطيعهما في ذلك، وعليه أن يوحد الله ولا يشرك به، وأن يبر والديه في غير معصية الله، ولا يطع الولد والديه إذا أمراه بالشرك والكفر وترك الصلاة وفعل المحرمات والمنكرات، وعليه أن يحسن عشرتهما، ويحسن إليهما بالمال والخدمة والكلمة الطيبة، وقيد ذلك بالدنيا؛ لأنها دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء وقيد هذه المصاحبة بالمعروف، وهو الشيء الذي ليس بمنكر ولا منهى عنه، وتعارف الناس على أنه حسن مقبول، ثم أمر الولد أن يتبع ويطيع الرسل والدعاة إلى الله الذين يدعونه إلى التوحيد والعمل الصالح والتوبة والإنابة إلى الله، ثم يبين أن الآباء والأبناء جميعاً سيرجعون إلى



الله يوم القيامة، وسيُنْبئ كل واحد منهم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شر، ويحاسبهم على ذلك.

**ثم قال:** ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمَوَاتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَاتِ بِهَا اللهُ اِنَّ اللهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ﴾ (١٦)، هذه الوصية الثانية من وصايا لقمان لابنه، وقد كرّر له النداء بالبنوة، وهو أسلوب تحفيز وتشجيع وعطف وحنان لكي يستجيب، وخص هذه النصيحة بتعظيم الله في نفس الولد، فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قد أحاط بكل شيء علمًا، وأن الواجب على العبد أن يخاف الله ويعظمه في سره وعلايته، وهي وسيلة عظيمة من وسائل التربية للناشئة والصغار فلا تمنعهم دائماً عن فعل القبائح بالتخويف من العقاب، بل عظم الله في نفوسهم؛ ليكون انتهاؤهم عن القبائح تعظيماً لله وحباً له **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، **والضمير في ﴿اِنَّهَا﴾**: يعود على الخصلة الحسنة أو السيئة التي يفعلها العبد، فهي لا تغيب عن الله ولو كانت صغيرة الحجم بوزن حبة الخردل، وهو نوع من الحبوب يمتاز بصغر حجمه وخفته، فلو كانت هذه الخصلة مخفية في داخل صخرة، وهذه الصخرة كانت في أي مكان في السموات أو في الأرض بحيث لا يطلع عليها البشر ولا يدري بها أحد، فإن الله يعلم بها ويأتي بها، فهو لطيف في استخراجها خبير بمكانها، ويحاسب صاحبها عليها، وجمع بين اسميه اللطيف، وهو دقيق العلم الذي يوصل الشيء إلى صاحبه بلين ورفق، والخبير الذي يعلم جزئيات الأشياء، وهما يدلان على إحاطة علم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالجزئيات والكيلات ولطفه في إيصالها الشيء إلى من يستحقه.



**ثم قال:** ﴿يَبْتَغِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧)، كانت النصيحة الأولى والثانية في نصحيح **العقائد**، وهي أصول الدين، ثم ثنى نصحه بأعمال الجوارح وأعظمها الصلاة، ومعنى إقامة الصلاة تأديتها بكامل شروطها وأركانها وواجباتها، وهي عبادة بدنية تتعلق بحق الله، وأضاف إليها عبادة تتعلق بحق الخلق، وهي عبادة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي عبادة لا تترك لقائم بها صاحباً، بل تعرضه للإيذاء من أصحاب الشر والفساد، فأمره بالصبر على ما يصيبه من المخالفين له، **وهذه الأعمال الثلاثة:** إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والصبر على الأذى من الأمور الواجب فعلها، فهي عزائم وليست رخصاً، فشانها عظيم ومن أعلى الأمور، ويلزم الإنسان أن يقوم بها ولا يتركها، لما لها من الأهمية في حياة الفرد والمجتمع.

**ثم قال:** ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) **وأقصد في مشيك وأغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** (١٩)، ثم انتقل بالنصح من باب العبادات إلى باب الأخلاق والآداب، وهي إصلاح السلوك اليومي للفرد داخل المجتمع، فنهاء عن بعض الأخلاق السيئة، ومنها: التكبر على الخلق، والتصغير من صغر البعير إذا أصابه داء فلوى منه عنقه<sup>(١)</sup>، **أي:** لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقاراً لهم، ولا تظهر لهم الكبر والغطرسة عند لقاءك بهم، ولا تمش بينهم مشية المتكبر، ونصبت مرحاً على

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (١٩٨ / ٤).



الصفة لمفعول مطلق، أي مشياً مرحاً، والمرح، فرط النشاط من شدة الفرح<sup>(1)</sup> الذي فيه أشر وبطر، فإن الله تعالى يكره هذه الصفات السيئة، والمختال شديد الخيلاء، وهو من الصفات السيئة للهيئات، والفخور كثير الفخر، وهو من الصفات السيئة للأقوال، وكلاهما لا يُحبهما الله ولا يحب من اتصف بواحدة منهما، وأمره بالتواضع في مشيته، والقصد هو التوسط في كل شيء، وهو في المشيء الاعتدال فيه، فلا يمش مشية المتماوت الضعيف الهزيل، ولا يمش مشية المتبخر المتكبر، وأمره بغض صوته أثناء الكلام، فليس من الأدب رفع الأصوات بدون حاجة مع الخلق عمومًا، ومع الله من باب أولى، **فقد سمع الرسول** ﷺ بعض الناس يرفعون أصواتهم بالدعاء، فقال لهم: "أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا"<sup>(2)</sup>، **فالصرخ** ورفع الصوت صفة سيئة، تشبه نهيق الحمير، فلها حظ من النكارة، واختار صوت الحمار لقبحه، فأوله زفير وآخره شهيق، ولأنه ينهق بدون سبب يخصصه كتعب ونحوه<sup>(3)</sup>، وإنما ينهق إذا رأى شيطانًا<sup>(4)</sup>.

**هذه هي وصايا لقمان** التي ذكرها الله في القرآن، وهي عبارة عن نماذج للوصايا في باب العقائد والعبادات والأخلاق، وهناك وصايا غيرها ذكرت في كتب الوعظ، فقد أوصلها الطاهر ابن عاشور في تفسيره إلى نحو سبعين

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 167).

(2) صحيح البخاري: (4 / 57)، برقم: (2992).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (25 / 123).

(4) ينظر: عمل اليوم والليلة لابن السني: (ص: 272)، برقم: (314).



وصية<sup>(1)</sup>، وهذه الوصايا منها ما يثبت ومنها ما لا يثبت؛ لأنها جاءتنا عن طريق روايات بني إسرائيل، ولا يوجد فيها سند متصل حتى نعرف صحتها من ضعفها، ولكنها حكم ونصائح أغلبها لها دليل من شرعنا.

**ثم قال الله سبحانه وتعالى:** ﴿الْمَرْثَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾<sup>(٢٠)</sup>، الخطاب لكفار قريش المكذبين بالبعث والنشور، يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، والرؤية هنا قلبية، وتعني التفكير والتأمل في الكون، فقد سخر الله ما فيه من شمس وقمر ونجوم وأمطار وأشجار ونحوها لخدمتهم ومنفعتهم، وأتم عليهم نعمه وغمرهم بكثرتها، من الثوب السابغ الثوب الذي يغطي الجسد كله، **وهي نوعان: نعم حسية** ظاهرة تراها العين، **ونعم معنوية** باطنة لا تراها بالعين، **فالحسية** مثل الشمس والقمر والصحة والمال والولد ونعمة الإسلام والإيمان والنطق بالشهادتين، **والمعنوية** مثل اليقين والتوكل وراحة النفس والاطمئنان وغيرها، ثم انتقل من الخطاب المباشر إلى خطاب الغيبة للتنويع، **أي:** ومنكم أيها المشركون مع نعم الله عليه من يكثر الجدل في استحقاق الله للألوهية دون سواه بدون دليل ولا برهان على ذلك، ذكر هذه الثلاثة؛ لأنها مصدر العلم والوصول إلى الحق، وهي علم مبني على الاجتهاد والاستنباط، أو الاتباع لعالم راسخ، أو قراءة ذلك في كتاب واضح ليس في أحكامه غموض ولا خفاء، وقد نفاها كلها عن هؤلاء المشركين المجادلين في صحة شركهم بالله.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21 / 173).



**وقوله:** ﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١)، فإذا دعاهم الرسول إلى عبادة الله وحده بالحجة والبرهان، أعرضوا عن ذلك واستمروا في شركهم بالله وعبادة غيره تقليداً لأبائهم وأجدادهم بدون علم ولا حجة ولا برهان على ذلك، والاستفهام تعجبي استنكاري لفظاعته وبطلانه عقلاً، **والمعنى** لو دعا الشيطان آبائكم إلى الشرك الذي يوصلهم إلى عذاب السعير في جهنم، فهل تتبعونهم على ذلك؟!، فأين ذهبت عقولكم؟! وفي هذا ذم للتقليد والمقلدة الذين يسيرون وراء من لا يعلمون ما حجته، فربما يقذف بهم في الهاوية ويوصلهم إلى جهنم وبئس المصير!

**ثم قال:** ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢)، لما ذكر حال الجهلة من الذين أشركوا بالله بغير علم وكفروا بالله تقليداً لأبائهم واتباعاً للشيطان، ذكر حال المؤمنين الصادقين المتبعين للحجة والبرهان، وأثنى عليهم بأنهم أقبلوا بقصدهم وتوجههم إلى الله واستسلموا لأمره وخضعوا لعبادته وتوحيده دون سواه، وبلغوا رتبة الإحسان في أعمالهم إتقاناً وإخلاصاً، فمن فعل ذلك فقد تمسك تمسكاً بليغاً بالعقدة الموثقة التي لا تنقطع، التي من تمسك بها؛ توثق ونجا وسلم من الهلاك، **والمعنى** أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه (1)، وإلى الله مرجع أمور كل الناس ومنتهأها، فيحكم بينهم ويجازيهم بما عملوا.

**ثم قال:** ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُہُمْ فَنَنْبِئُہُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6 / 347).



بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾، الخطاب  
لمحمد ﷺ لتسليته بسبب كفر قومه به، حيث نهاه عن الحزن والتألم  
لإعراضهم عن الحق وكثرة جدالهم له، بل اترك أمرهم إلى الله، فإن مرجعهم  
إليه وسيخبرهم بأعمالهم القبيحة ويُعاقبهم عليها يوم القيامة، فعلمه محيط بكل  
شيء، حتى إنه يعلم ما في الصدور من الخواطر والوساوس قبل أن تنطق بها  
اللسان، وأن بقاءهم في الدنيا مع كفرهم إنما هو إمهال لهم زمناً قليلاً يتمتعون  
بزخارفها ليزدادوا إثماً، ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاق على  
نفوسهم في جهنم؛ لأنهم لا يدخلون النار بأنفسهم، بل بمجرد أن يروا النار  
يهربون منها، فتأخذهم الملائكة إليها بالقوة وتدفعهم إليها دفعاً، فيسقطون فيها  
رغمًا عن أنوفهم، نسأل الله السلامة والعافية.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- وجوب تعاهد الأبناء بالتربية والنصح والتوجيه فهم أمانة في أعناق  
الوالدين.
- 2- بيان أن التربية يجب أن تشمل جميع أحكام الإسلام من عقائد  
وعبادات ومعاملات وأخلاق.
- 3- أن النظر والتأمل في نعم الله الظاهرة والباطنة يدفع الإنسان إلى شكر الله  
عليها.
- 4- بيان خطر التقليد الأعمى، فإنه يُوقع الإنسان في الهلاك.
- 5- أهمية الاستسلام والخضوع والإخلاص لله سبحانه في كل الأعمال.



## تفسير المقطع الثالث من سورة لقمان

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥) **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أَتَقْوَارِبُكُمْ وَأَخْشَوْنَ مَا لَا يَجْزِي وَالِدَعَنَ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَازَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥)، **الخطاب موجه لرسول الله ﷺ**، والضمير يعود لكفار قريش، فلو سألهم من خالق السموات والأرض، لأجابوا بأن الله هو الخالق لها، فقد كانوا يقولون بذلك، فاحمد الله على ظهور الحجة وسقوط الشبهة، **والمعنى** ما دام أنكم تقولون أن الله هو الخالق لا سواه؛ فهو المعبود بحق لا سواه، فلماذا تعبدون غيره؟! وفي ذلك إشارة إلى استحباب حمد الله والثناء عليه عند ظهور الحجة وسقوط الشبهة مع أي مخالف لإعادة الفضل إلى الله، فهو الذي أظهر الحق وأزهق الباطل، بل تفيد الإضراب عما سبقها، **أي:** لو كانوا يعلمون عظمة الله وقدرته واستحقاقه للألوهية لما عبدوا الأوثان والأصنام، ولكن جهلهم بالله وقلة علمهم به **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** كانت سبباً في كفرهم وإعراضهم عن الله، وهذه الأثرية ليست محدودة بزمن، بل هي الغالبة في حياة البشرية حتى اليوم، **كما قال:** ﴿وَأِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، فأكثر الخلق يكفرون بالله لجهلهم بعظمته واستحقاقه للألوهية، وفي ذلك إشارة إلى خطورة الجهل وعاقبته الوخيمة، ولا عذر للإنسان أن يجهل ربه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بعد أن أرسل الرسل وأنزل الكتب إليهم وأقام عليهم الحجة.

**ثم قال:** ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٣٦)، فمن خلق السموات والأرض فهو المالك المتصرف فيهما، وفي هذا إشارة إلى أن معبوداتهم من الأوثان والأصنام هي من ضمن ما في السموات وما في الأرض،



وأن الله مالکها فهي مملوكة له، فيكيف تكون آلهة؟! وهو غني عن ملكه وليس بحاجة إليه، وهو حميد في غناه ومحمود بكل لسان في الأمور كلها.

**ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧)،** هذا افتراض الغرض منه بيان عظمة علم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** للسامعين، **والمعنى** لو قُدِّر أن تتحول جميع أشجار الأرض وتُصنع أغصانها كلها أقلاماً، ويصبح كل ما في الأرض من ماء وهو يعادل سبعين بالمائة (70٪) من مساحة الأرض يتحول إلى مداد ويضاف إليه ماء سبعة أبحر أخرى ثم يكتب بتلك الأقلام وبهذا المداد كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله؛ لانتهد البحار والأقلام، ولم ينته كلام الله الذي هو علمه<sup>(1)</sup>؛ لأن المداد والأقلام تتناهى وعلم الله لا يتناهى، إذ هو صفة متعلقة بذاته لا حد له ولا نهاية، والله عزيز في فعله وحكيم في تدبيره وأمره.

**ثم قال الله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨)،** الخطاب للمشرکين الذين كانوا يُنكرون البعث والنشور، فأخبرهم أن خلقهم جميعاً كخلق نفس واحدة، وبعثهم جميعاً كبعث نفس واحدة، لأنه يقول للشيء كن فيكون، وفي هذا بيان لقدرة الله في الخلق والإيجاد والبعث والحساب، وذيل الآية باسمين من أسمائه الحسنی، فهو سميع لأقوال الخلق، بصير بأحوالهم، لا يشغله شيء عن شيء، قد أحاط سمعه وبصره بكل شيء.

**ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ**

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/122).



**الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأت الله بما تعملون خبيراً** ﴿٢٩﴾، **الاستفهام** تقريرى لا يحتاج إلى جواب، والرؤية هي العلمية التي تتعلق بتفكر القلب وتأمله في الأشياء، والخطاب يصلح لكل من يرى ويتأمل في قدرة الله، **والإيلاج هو: الإدخال** <sup>(1)</sup>، **ويتضمن معنيين، الأول:** أن الليل يأخذ من ساعات النهار فتزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار في فصل الشتاء، وأن النهار يأخذ من الليل فتزداد ساعات النهار وتنقص ساعات الليل في فصل الصيف، **والمعنى الثاني للإيلاج:** هو في كيفية خروج الليل ودخول النهار، وخروج النهار ودخول الليل، فإن ذلك يكون بالتدرج، فلا تحس بظلام مفاجئ ولا بنور مفاجئ، وفي هذا بيان لعظمة الله وقدرته وتدبيره في الخلق، والتسخير جعلها تسير في خدمة الخلق ووفقاً لمصالحهم، فكل من الشمس والقمر وباقي الكواكب والمجرات تدور في أفلاكها وتستمر في السير فيها إلى الأجل المحدد الذي تنتهي فيه حركتها، وهو عند قيام الساعة، وذيل الآية بما يفيد التهديد والوعيد فلا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق، وسيجازيهم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

**ثم قال:** ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يدَّعونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٠﴾، **الضمير** في ذلك يعود على ما سبق ذكره من التدبير والتقدير في إيلاج الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر وجريانها، والباء يحتمل أن تكون سببية <sup>(2)</sup>، **والمعنى** من يفعل ذلك ويؤمنه فهو المستحق للعبادة دون سواه، وهو

(1) التحرير والتنوير: (21 / 185).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1492).



وحده الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعيدته حق، وعبادته هي الحق، وأن عبادتكم لغيره من الأصنام والأوثان باطلة، وهو **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** العلي بذاته وصفاته على خلقه، القاهر فوق عباده، الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وهو الكبير على كل شيء، وكل ما عداه خاضع له.

**ثم قال سبحانه:** ﴿الْمَرَّانَ الْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُريَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١)، هذا استفهام تقريرى آخر لإظهار نعمة أخرى من نعم الله على الخلق، وهي نعمة جريان السفن الكبيرة العملاقة على سطح البحر وهي محملة بالأثقال، بنعمة الله وهي إرسال الرياح التي تحركها، فإن الرياح إذا سكنت لم تتحرك تلك السفن، والخطاب موجه لمن كان في عهد النبي ﷺ ولم يكن آنذاك سفن تعمل بالطاقة أو النفط ونحوها، وإنما كانت السفن القديمة كلها تسير بالرياح، وهي أحد ألطافه ونعمه على الخلق، واللام للتعليل، أي لكي تنظروا بعض آيات الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الدالة على قدرته وعظمته **جَلَّ وَعَلَا**، والآية المقصود بها العلامة والحجة التي يستفيد منها من تأملها، فيتعظ منها ويعتبر بها، و**صَبَّارٍ** صيغة مبالغة من الصبر، و**شكور** صيغة مبالغة من الشكر، وهما صفتان لا بد أن يتصف بهما العبد؛ لأنه يعيش بين نعم تحتاج منه إلى شكر، ونعم تحتاج منه إلى صبر.

**ثم قال:** ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢)، الخطاب للكفار،



والظُّل جمع ظُلة، والمقصود بها الأمواج الكبيرة الضخمة التي ترتفع حتى تصير كالسحابة التي تظل من تحتها، فإذا رأى الكفار الراكبون على الفلك ذلك الموج الكبير فوق رؤوسهم خافوا على أنفسهم الهلاك؛ فأخلصوا في عبادتهم وتوجههم ودعائهم إلى الله وتركوا أوثانهم وأصنامهم وشركائهم، فلما انتهت تلك الأمواج وخرجوا بسلام من البحر إلى البر، انقسموا إلى قسمين، الأول: المقتصد، وهو المتوسط في الجحود والكفر، الذي انزجر بعض الانزجار، وإن كان باقياً على كفره، والقسم الثاني: وهو كثير الجحود الذي يُنكر قدرة الله وعظمته والبراهين الدالة على وجوده، والخُتار بمعنى الغدار وزناً ومعنى<sup>(1)</sup>، وهو كثير الغدر الذي ينقض العهد، والكفور شديد الجحود لنعم الله.

**ثم قال سبحانه:** ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقْوَارِبَكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝٣٣﴾، **الخطاب عام** يشمل الناس أجمعين، المؤمنين والكفار، فأمرهم بتقوى الله، فالمؤمن يستمر في تقواه ويتعد عما يُغضب الله، والكافر يُسلم ويتقي ما يُغضب الله من الكفر والجحود، وأمرهم أن يخافوا يوم القيامة الذي أهواله عظيمه وعذابه شديد، ومن شدة أهواله لا ينفع ولا يشفع والد لولده، وبدأ بالوالد؛ لأن شفقتة بابنه أكثر من شفقة الابن بأبيه، ولا ينفع ولا يشفع ولد لوالده، فكل إنسان مشغول بنفسه يبحث عن خلاصه، **كما قال:** ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37]، ونكر "شيئاً" ليشمل القليل والكثير،

(1) تفسير الرازي: (25/ 132).



إن وعد الله وهو قيام الساعة والحساب والجزاء حق ثابت لن يتخلف، وواقع لا محالة، فلا يغرنكم ما في هذه الحياة الدنيا من شهوات وملذات وتشغلكم عن الاستعداد لهذا اليوم العظيم، والتغدير: كثرة الخداع، لأن شهوات الدنيا تخدع الناس وتلهيهم عن الاشتغال بما ينفعهم من الاستعداد ليوم القيامة، والغرور: هو الشيطان، لأن من شأنه أن يغري الخلق، ويمنيهم بالأمانى الباطلة، ويلهيهم عن الآخرة، ويصدّهم عن طريق الحق<sup>(1)</sup>، ويلحق به النفس الأمارة بالسوء التي تزين لصاحبها الباطل والشهوات وتشغله عن الطاعات والقربات.

**ثم ختم الله السورة بقوله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤)، **وفي الحديث:** "مفاتيح الغيب خمسة"<sup>(2)</sup>، ثم تلى هذه الآية، **والمقصود بمفاتيح الغيب** الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، **فالأول:** علم مجيء الساعة، فعلمه محصور بالله لا يعلمه أحد غيره، **والثاني:** علم موعد نزول الغيث، وعبر بالمضارع الذي يفيد الاستمرار، فكل غيث ينزل فهو الذي يعلم مواعده وكميته ومكانه وزمانه وإلى أين يسوقه على وجه الدقة، **والثالث:** علم ما في الأرحام، فيشمل رحم كل أنثى من جميع الحيوانات، والمقصود ما فيها من الأجنة من ذكور أو إناث على سبيل التفصيل والدقة، **والرابع:** علم ما تفعله وتكسبه كل

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 282).

(2) صحيح البخاري: (4/ 1733)، برقم: (4420).



نفس في المستقبل من خير أو شر، **والخامس:** علم المكان الذي تموت فيه كل نفس، فقد يختار العبد المكان الذي يعيش فيه، ولكنه لا يعرف المكان الذي سيموت فيه، فإن الله إذا أراد أن يقبض نفساً في مكانٍ ساقها إليه لسبب أو لآخر، وذيل الآية بوصف نفسه بأنه عليم، وهي صيغة مبالغة من العلم، وخبير، وهي صيغة مبالغة من الخبرة، فهو سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال الكون كله، كبيرها وصغيرها، فهو عليم بخير بدقائق الأشياء وعظيمها، فعمم علمه بجميع الأشياء بعد تخصيص علمه بمفاتيح الغيب.

**وقد يقول قائل:** إذا كانت هذه مفاتيح علم الغيب التي لا يعلمها إلا الله، فقد اكتُشف حديثاً أن الأطباء يستطيعون معرفة نوع الجنين وهو في بطن أمه، وأن أجهزة الأرصاد والفلك يستطيعون الآن تحديد مواعيد نزول المطر؟! والجواب: أن هذه المعرفة معرفة عامة وليست دقيقة، فهم يعلمون علماً إجمالياً نوع الجنين بعد مرور فترة من الحمل، أما قبلها فلا يستطيعون معرفة نوعه، أما الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فعلمه شامل لما في الأرحام من أول لحظة، وأما إخبارهم بنزول المطر فيكون على سبيل التوقع من خلال دراسة مجموعة من ملاحظات حركة الرياح وتجمعاتها وعلم الفلك وما يتعلق به من سنن كونية، وليس على وجه الدقة والتحديد للزمن والمكان والكميات ونحوها التي هي علم خاص بالله سبحانه.



## فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان سعة علم الله وكلماته، وأنها لا تنتهي.
- 2- بيان أن من علامات قدرته وآياته **جَلَّ وَعَلَا** في الخلق؛ تقلب أحوال الليل والنهار، وتسير الشمس والقمر فيما ينفع الخلق.
- 3- بيان فضيلة الصبر، وفضيلة الشكر، فإنهما عبادتان عظيمتان، فالصبر يكون على النقم، والشكر يكون على النعم، ومن تعبد لله بهاتين العبادتين فهو من عباد الله الصالحين.
- 4- بيان خطورة الاغترار بالدنيا والاستسلام للشيطان وخطواته، فإنهما يشغلان العبد عن الاستعداد ليوم القيامة.
- 5- بيان إحاطة علم الله سبحانه، وأن مفاتيح الغيب الخمسة بيد الله، لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب.



## تفسير سورة السجدة

## تفسير المقطع الأول من سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ  
 بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ  
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ  
 دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي  
 يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ  
 الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ  
 مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
 وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ .

## شخصية السورة:

سورة السجدة<sup>(١)</sup>؛ سورة مكية<sup>(٢)</sup>، ومقصدها الأعظم بيان حقيقة الخلق  
 وأحوال الناس في الدنيا والآخرة، وقد ورد في فضائلها: "أن النبي ﷺ كان يقرأ

(١) ينظر: روح المعاني، للألوسي: (١١ / ١١٣).

(٢) ينظر: روح المعاني، للألوسي: (١١ / ١١٣).

بها في صلاة فجر يوم الجمعة"، والحديث في الصحيحين<sup>(1)</sup>، وفي مسند أحمد<sup>(2)</sup> من حديث جابر: "أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ بها وبسورة الملك"، والحديث وإن كان في سنده ضعف، ولكنه بمجموع طرقه يرتقي للاستدلال به.

وهذه السورة ابتدأت بالأحرف المقطعة، ﴿الْم ﴿١﴾﴾، فألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، واختلف المفسرون في تفسيرها، والراجح أنها من أحرف الهجاء التي تتكوّن منها لغة العرب، وأن ذكرها في بداية بعض السور لبيان معجزة القرآن<sup>(3)</sup>، والمعنى أن هذه أحرف اللغة التي تتكلمون قد نزل بهذه الأحرف القرآن الكريم، فصار معجزاً بلفظه ومعانيه، وقد تحداهم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بأن يأتوا بجزءٍ من سورة أو بجزءٍ من آية مثله، فلم يفعلوا، فدل ذلك على الإعجاز، والقرينة الواردة على ترجيح هذا المعنى: أن جُلَّ أو أغلب السور التي افتتحت بحروف الهجاء جاء بعدها ذكرُ القرآن، كما قال هنا: ﴿الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾، والمقصود بالكتاب هنا القرآن الكريم، وفي سورة البقرة: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1-2]، وفي سورة طه: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1-2]، وهكذا، ولو تتبعنا الحروف الهجائية التي ابتدأت بها السور؛ لوجدت أن ما جاء بعدها إنما هو حديثٌ عن القرآن، فهذه قرينة لترجيح هذا القول في معنى الأحرف المقطعة.

(1) رواه البخاري: (5/2) برقم: (891)، ومسلم: (599/2) برقم: (880).

(2) رواه أحمد: (26/23) برقم: (14659).

(3) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي: (25/1).



**وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾**، ذَكَرَ هنا التنزيل بصيغة المضارع، وأضاف التنزيل إلى الكتاب، وأتى بالألف واللام التي تدل على التعريف، والتعريف هنا يُعطي الكتاب مكانةً وكأنه صار معروفاً من كثرة ما قيل حوله من خلاف، وكلمة التنزيل تدل على أن القرآن ليس من كلام محمد، بل هو مُبَلَّغ للقرآن، وأن القرآن نزل على قلبه، **كما في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** (١٩٣) **عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** (١٩٤) **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** (١٩٥) [الشعراء: 193-195].

**وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**، **أي: لا شك فيه**، فلا شك في صدق هذا الكتاب، وأنه من عند الله، ولا شك في صدق أحكامه التي احتوى عليها، ولا في صدق أخباره التي ذكرها، ولا في شيء مما احتواه.

**ثم قال: ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، **والمعنى** تنزيلُ الكتاب من رب العالمين، **وكلمة: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**، **قال بعض المفسرين: جملة اعتراضية<sup>(1)</sup> لبيان مكانة القرآن**، وأنه لا شك فيه ولا ريب، بل هو كله حق وصدق، وأضاف الرب إلى العالمين هنا ليشعر الخلق أنه مربوبهم وأنه هو الذي خلقهم ورباهم، وأن من رحمته بهم بعد خلقهم وتربيتهم أنه لم يتركهم سدىً ولا هملاً، بل أنزل إليهم هذا الكتاب الذي فيه هدايتهم، ودلهم فيه على الحق والصواب حتى لا يقعوا في الضلال والانحراف.

**وقوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾**، جمع عالم، وهو كل ما خلق الله.

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21 / 205).



**ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ﴾**، في البداية حدثنا عن القرآن أنه تنزيلٌ وأنه لا ريب فيه، هذا هو الواقع وهذه هي الحقيقة، ثم ذكر لنا بعد إخباره عن هذه الحقيقة، ما يدعيه الكافرون من المشركين عن القرآن، حيث ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم افتراه، أي: اخترعه واختلقه من عند نفسه، وتقول له على الله، و﴿أَمْ﴾؛ هذه تُسمى بأم المنقطعة التي **بمعنى: بل**، والتي تُفيد الإضراب من جهة، وتفيد التعجب للسامع من جهة أخرى لبطلان ما تحويه من قول، والقائلون هذا القول هم كفار قريش الذين كان القرآن ينزل فيهم.

**ثم جاء الإضراب الثاني صريحاً في قوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾**، يعني: ليس الأمر كما تقولون، والضمير عائد إلى القرآن، والحق جاء معرفاً بالألف واللام التي تفيد التعريف وتفيد الاستغراق ليشمل كل حق، **والمعنى** أن القرآن كله حق لا مِرَّة فيه.

**وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾**، الخطاب موجّه لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإضافة الرب إلى كاف الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم تدل على عناية الله به، وأنه ما كان ليُنزل هذا القرآن على شخصٍ يفترى عليه، فهو من حيث الدلالة يُفيد تكذيبهم، ومن جهة أخرى يدل على تزكية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ليس بكاذبٍ ولا مفتر.

**ثم بين العلة من هذا الإنزال للقرآن؛ فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾** (٢)، **اللام** للتعليل، يعني: الهدف من إنزال القرآن هو الإنذار وهو التخويف، أي: لتُخَوِّفَ به وبما جاء به **﴿قَوْمًا مَّا أَتَهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ﴾**، **والمقصود بالقوم هنا قيل: قريش<sup>(١)</sup>، وقيل: العرب كلهم<sup>(٢)</sup>، والراجع أن**

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري: (٢٠/ ١٦٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (٤/ ٣٥٧).



المقصود به العرب كلهم، ليشمل عرب الجزيرة كلها، فإن العرب لم يكن قد أرسل فيهم رسولٌ منذ إسماعيل عليه السلام، الذي سكن في بلادهم، وتزوج منهم وتعلم لغتهم وكان رسولاً نبياً، لكن رسالته لم تكن عامة لكل العرب، بل كانت لأهله الموجودين حوله، فإذاً من إسماعيل إلى بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يُبعث في جنس العرب رسول ولا جاءهم من نذير، **كما قال:** ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، فهكذا كان حال العرب، فقد كانوا في جاهلية جهلاء، بدون رسل ولا أنبياء ولا كتب، وكانوا على الشرك وعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلم يكن عندهم الهداية إلى الحق، **ولذا قال:** ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣)، بهذا النذير، والمقصود بالهداية هنا الإرشاد والدلالة والبيان، وهو أحد أنواع الهداية المرتبطة بالرسول والدعاة والمرشدين.

**والنوع الثاني:** هداية التوفيق، وهذه بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **كما قال:** ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272]، وحتى يفهم السامع كلام الله؛ فلا بد أن يجمع النصوص الواردة في كل مسألة، ثم ينظر في معناها، لأن بعض الناس بسبب قلة علمه يظن التعارض في بعض الآيات، **فيقول هنا:** كيف نسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الهداية إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم نفاها عنه؟! **والجواب:** هذا الإشكال يُحَلُّ بأن **يقال:** إن الهداية نوعان: هداية الدلالة والإرشاد؛ وهذه ممكنة للبشر ومن ضمنهم الأنبياء والدعاة، وهي المثبتة لهم في بعض الآيات، وهداية التوفيق؛ وهي خاصة بالله، ولا يملكها البشر، وهي المنفية عنهم في بعض الآيات، وبهذا يزول الإشكال.



**ثم قال تعالى:** ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، هذا حديثٌ عن أفعال الله سبحانه، وقدرته، والهدف من هذا البيان المتضمن أن هذا الكون الذي خلقه الله ودبره وأوجده وهو المتصرف فيه وحده دون شريك له، فيلزم منه أن يكون هو الإله المعبود، وحده لا شريك له، وهذا الذي يُسميه العلماء بالاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فالخالق المبدع الرازق المتصرف، هو المستحق وحده دون سواه للعبادة.

**وقوله:** ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، يعني: السموات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما وما داخلهما من الخلق.

**وقوله:** ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أي خلقهما في ظرف زمني مقداره ستة أيام، مع أنه قادر على أن يخلقهما في لحظة، ولكن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أراد بذلك أن يُعلِّمنا سُنَّةَ التدرج، ويبيِّن لنا أهمية عنصر الزمان في كل عمل، فلا نستعجل الأمور، بل نأخذ بسُنَّةِ التدرج في كل قضية.

**ثم قال سبحانه:** ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، ثم: حرف عطف يدل على التراخي، **فلا استواء** على العرش كان بعد خلق السموات والأرض، **واستوى** بمعنى: علا، فالله تعالى في جهة العلو، وهو علوٌ يليق بجلاله، لا يجوز للإنسان أن يسأل عن كَيْفِيَّتِهِ، ولا أن يتخيله بعقله، فإن معرفة كنهه لا يمكن أن يصل إليه المتخيلون، **وحق المسلم أن يقول في ذلك:** آمنا بما جاء عن الله ورسوله من أسماء الله وصفاته على ما أراد الله ورسوله من دون تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم



ولا تمثيل، فلا نشبهها بخلقه أو ننفيها عنه، كما فعلت بعض الفرق<sup>(1)</sup>، بل نقول: استوى استواء يليق بجلاله، وهكذا نقول في باقي الصفات، والعرش هو القبة التي فوق السموات، وهو أعظم المخلوقات.

**ثم قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾**<sup>(٤)</sup>، هذا خطاب لمن يعبدون غيره، فليس لهم غير الله من ولي ولا شفيع، والمقصود بالولاية هنا الحب والنصرة، فإن هذا مقتضى معنى الولي، والشفيع هو الوسيط الذي يشفع عند غيره، بمعنى: لو أراد الله أن يعذبكم لن تجدوا من ينصركم، ولن تجدوا من يشفع لكم عنده، وهو نوع من التهديد والوعيد لهؤلاء الكفار.

**وختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾**، التذكر هنا بمعنى التفكير، فمن تفكر فسيوصله تفكيره إلى التذكر، وهو الاتعاظ، والمعنى هنا: هلا تتعظون أن لا إله إلا الله، وأن لا معبود بحق إلا الله، وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله، وبإعمال الفكر؛ يصل العبد إلى الهداية، سواء كان ذلك التفكير في آيات الله الكونية التي من ضمنها السموات والأرض والعرش وغيرها، فهذا الكون هو الكتاب المفتوح الذي تقرأه بفكرك، أو كان ذلك التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم المكتوبة، ففيها ما يوصل ويدل على التوحيد والإيمان بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

**ثم وصف نفسه بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾**، التدبير في اللغة:

(1) كالمعتزلة، والجهمية، ومتأخري الأشاعرة، والماتريدية، ينظر: الزناد شرح لمعة الاعتقاد، علي الخضير: (42).



التفكر<sup>(1)</sup> في الأمر حتى تُنجزه بإتقان، أو التفكير في طريقة إنجاز الشيء حتى تُنجزه بإتقان، وبالنسبة لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَمَعْنَاهُ**: ينجز الأمر مُتَقَنًا بدقة تامة كاملة، **والأمر في مدلولات الوحي يأتي على معنيين**: إما الأمر الشرعي، وإما الأمر الكوني، **فالأمر الشرعي هو**: ما يأمر به الله تعالى خلقه من التكاليف والأحكام الشرعية من حلال أو حرام ونحوها<sup>(2)</sup>. **والأمر الكوني**: هو مقتضى فعل الله المطلق<sup>(3)</sup> الذي: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، فتفسير الفلك وخلق السموات ونزول الأمطار وغيرها من الأفعال التي تقع في هذا الكون؛ هذه كلها داخلية تحت الأمر الكوني.

**وأي الأمرين قَصَدَ هنا؟! هناك قولان للمفسرين<sup>(4)</sup>: فبعضهم قال**: الشرعي، **وبعضهم قال**: الكوني. ولا مانع أن يكون المقصود هنا الأمرين معًا: الشرعي والكوني<sup>(5)</sup>، فهو يُدبر الأمر الشرعي فيُرسل الرسل ويُنزل الكتب ويُحل الحلال ويُحرّم الحرام، وهو الذي يقول للشيء في هذا الكون كن؛ فيكون، والأمر الشرعي والكوني كلاهما ينزل من السماء، أي من جهة العلو أي من قبل الله، وهذا يدل على

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21 / 212)، وفي تاج العروس، للزبيدي: (266 / 11).

(2) ينظر: التنبهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيقة، عبد الرحمن آل سعدي: (65).

(3) ينظر: المرجع السابق: (65).

(4) ينظر: تفسير القرطبي: (14 / 86).

(5) ينظر: تفسير السعدي: (653).



أن الله في جهة العلو، خلافاً لمن ينفي ذلك من بعض الفرق (1).

**ثم قال:** ﴿ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ﴾، الضمير يعود على الأمر، **فإن قلنا** الأمر الشرعي، **فالمعنى:** يعرج إليه أعمال العباد، كما قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]، فيعرج إليه أخبارهم، **مثلاً:** هذا كفر، وهذا أسلم، هذا عصي، وهذا أطاع، إلخ..، فكل الأمر يرجع إليه ويعرج إليه، وتعرّج به الملائكة إلى الله كل يوم، أو كان الأمر الكوني، **فالمعنى:** تعرّج الملائكة إليه بما حصل في الأرض، مثلاً: بموت فلان، ومرض فلان، ووقع زلزال هنا، وحصل خيرٌ هنا... إلخ، فالأمر كله يصعد إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالعروج** هو الصعود.

**وقوله:** ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، هنا كلامٌ محذوف، وتقديره: يعرج إليه في لحظة، لو قيسَت هذه اللحظة على ما تفعلونه بطبيعتكم أيها البشر لساوت ألف سنة من حسابكم، فيكون المعنى على هذا التصور أن الأمر يعرج إليه في لحظة، ولكن في حسابكم، أيها البشر؛ يعادل ألف سنة مما تعدونه من السنين، وهذا يدل على أن السنة المقصود بها في هذه الآية سنوات الناس المستخدمة التي هي اثنا عشر شهراً، وتحتوي على ثلاثمائة وستين يوماً، واليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، كما هو متعارف عليه عند الناس اليوم.

**ثم قال سبحانه:** ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦)، ذلك اسم إشارة مضاف إليه اللام التي تُفيد البعد، وإضافة اللام إلى ذلك يأتي على

(1) ينظر: التمسك بالسنن والتحذير من البدع، شمس الدين الذهبي: (104).



**صورتين: صورة التعظيم والتبجيل، وصورة التحقير والتبعيد،** فهنا لا شك أنها من الأول، لأنه عائدٌ إلى لفظ الجلالة الله الخالق المدبر، **فاللام هنا** تفيد علو المكانة، وتعظيم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

**ثم وصف نفسه، بقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، الشهادة:** ما تشاهده المخلوقات وتحسه، والغيب ما غاب عنهم، سواءً كان غيباً مُطلقاً لا يعلمه أحد، مثل علم الساعة، ومثل ما يتعلق بذات الله ونحوه، أو كان علماً غيبياً جزئياً، وهو الذي يعلمه بعض الخلق ويخفى على آخرين، فالله تعالى عالم الغيب كله، وعالم الشهادة كلها، وهذا يدل على سعة وإحاطة علم الله بالخلق.

**ثم وصف نفسه بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، والمعتاد في نصوص كثيرة من القرآن أن يقول: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، إلا أنه قال هنا: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فما هو سر الجمع بين هذين الاسمين.**

**العزیز:** من العزة وهي القوة، وأنه لا يحتاج إلى أحد، فهو الذي كل شيء في هذا الكون بقوته وعزته وقدرته، وفيه إشارة لما سبق في الآية السابقة من خلق السموات والأرض والتدبير وإنزال الأمر، هذا كله يظهر فيه معنى القوة والعزة.

**والرحيم:** فيه إشارة إلى ما سيأتي ذكره في الآية التي تليها، **وهي قوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾،** فخلقك أيها الإنسان فيه معنى الرحمة، فجعلك إنساناً لطيفاً، وأحسن خلقتك، وصورك فأحسن صورتك، وأودع فيك جزءاً من



رحمته، وفي الحديث: "إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ مِائَةَ جُزْءٍ مِنَ الرَّحْمَةِ، فَأَنْزَلَ وَاحِدَةً مِنْهَا لِيَتَرَأَى بِهَا الْخَلْقَ، وَتَرَكَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"<sup>(1)</sup>، وهذه تسمى الرحمة المخلوقة وليست الرحمة التي هي صفة ذاتية لله سبحانه، فأثر رحمته ظاهر في خلق الناس، فجمع بينهما ليشمل عزته وقدرته في خلق الكون، وتشمل أثر رحمته في خلق الإنسان بطريقة فيها معنى اللطف والرحمة ونحو ذلك.

**وقوله:** ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، هذا وصف مطلق في كل المخلوقات، فما من خلق خلقه الله تعالى إلا وهو في صورة حسنة، وكل خلق صورته الحسنة وفقاً لطبيعته ولما يحتاجه، فالسموات حسنة بحسب طبيعتها، والأرض حسنة بحسب طبيعتها، وهكذا باقي المخلوقات، فالله خلق كل شيء خلقاً حسناً، والإحسان يأتي في لغة العرب على مدلولين<sup>(2)</sup>: الأول: أحسن بمعنى أتقن، والثاني: أحسن بمعنى أوصل الخير إلى الناس، فأحسن هنا، بمعنى أتقن كل شيء خلقه، يعني: خلق الله مُتَقِنٌ في كل شيء خلقه، في السماء، في الأرض، في الحيوانات، في سائر المخلوقات، ومنه الإحسان في العبادة. والمعنى الثاني في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77] أي: أوصل الخير إلى الناس كما أوصله الله إليك.

**ثم قال:** ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(٧)</sup>، مع أنه قد ذكر إحسان الخلق مطلقاً، والإنسان أحد مخلوقاته، فقد أحسن خلقه من ضمن المخلوقات، لكنه

(1) رواه البخاري: (99 / 8) برقم: (6469)، ومسلم: (4 / 2108) برقم: (2752).

(2) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: (13 / 117).



نص هنا على خلق الإنسان ليظهر مكانته وفضله وتكريمه على باقي المخلوقات في هذا الكون، **كما قال:** ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، **والألف واللام** هنا للتعريف والمقصود به هنا آدم؛ لأنه هو الذي خلق من طين فقط، وخلق حواء منه.

**وقوله:** ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ﴾، ثم هذه أيضاً للعطف المترaxي، فإن آدم خلق وبعد فترة صار عنده ما يتناسل منه، وهم ذريته، وسُمي نسلًا؛ لأنه ينفصل عن الأصل، ويخرج منه، **كما في قوله:** ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51]، **أي:** يخرجون من قبورهم، وحفظ النسل إحدى الكليات الخمس من كليات الشريعة.

**وقوله:** ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (٨)، **والمقصود بالسلالة هنا:** النطفة، وسُميت نطفة المني سلالة؛ لأنها تُستل من الرجل **أي:** تخرج منه، و(من)، في معناها قولان<sup>(1)</sup>: **قيل:** إنها بيانية، **وقيل:** إنها تبعيضية، وهو الراجح؛ لأن العلم الحديث أثبت أن النطفة من المني التي تتدفق من الإنسان عند التقائه بالمرأة تخرج منها ملايين الحيوانات المنوية، والذي يصل إلى البويضة ليلقحها بعضها فقط، وهي في الغالب الحيوانات المنوية القوية.

**ثم وصفها بقوله:** ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾، **أي:** مُبتذل ومهان لا يُلتفت إليه، وفي هذا اللفظ إشعار للإنسان المعرض المتكبر بأصله!!

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21 / 216).



**وقوله:** ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾، أي: أكمل خلق جسده، فالنطفة إذا وصلت إلى البويضة واستقرت في الرحم يجري تعديلها على المراحل والأطوار من علقه إلى مضغة، ثم خلق العظام وكسوتها باللحم حتى يكتمل خلق الجسد.

**ثم قال:** ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾، أي: يرسل الله الملك فيأمره أن ينفخ فيه الروح، والروح هذه نسمة علوية لا يعلم عنها إلا الله وحده.

**كما قال:** ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، وهي التي يتم بها الحياة، فيتحول هذا الجسد من مضغة لحم ودم إلى إنسان يتحرك ويتكلم وينمو، فاجتمع فيه أصلا: جسد يُغذى مما أخرجته الأرض، وروح تغذى بالوحي!!

**ثم قال:** ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ﴾، هذا أسلوب من أساليب الامتنان، فالله يمتن على خلقه بهذه النعم التي صيرها لهم، وتحول الخطاب من الغيبة إلى الحاضر حتى يستشعر السامع أنه المخاطب بها، والسمع معروف والبصر معروف، والأفئدة المقصود بها: القلوب والعقول، وهي وسائل أو أدوات المعرفة، فإذا استخدمتها الإنسان استخداماً صحيحاً أوصلته إلى العلم المطلق، ومنه العلم بالله، والقليل من الناس من يشكرون الله على هذه النعم، **كما قال:** ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: 13]، أو قليل شكركم الله، في مقابل تلك النعم الكثيرة.



## فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن الراجح في معنى الأحرف المقطعة التي ابتدأت فيها بعض السور؛ أنها من أحرف الهجاء التي تتكوّن منها لغة العرب، وأن ذكرها في بداية بعض السور لبيان معجزة القرآن.
- 2- بإعمال الفكر والتدبر؛ يصل العبد إلى الهداية، سواءً كان ذلك التفكير في آيات الله الكونية التي من ضمنها السموات والأرض والعرش وغيرها، أو في آيات الله الشرعية المنزلة في القرآن الكريم.
- 3- أن أدوات المعرفة: هي السمع والبصر والفؤاد، فإذا استخدمها الإنسان استخداماً صحيحاً أوصلته إلى العلم المطلق، ومنه العلم بالله.



## تفسير المقطع الثاني من سورة السجدة

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ١٠ ﴿قُلْ يَنفَعُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ١١ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ١٢ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ١٣ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١٤ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ١٥ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ١٦ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٧ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ١٨ ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوءِ﴾ ١٩ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ٢٠ ﴿

قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾، الواو استئنافية، والقول هنا

محكي عن الكفار، **والمقصود بهم** كفار مكة الذين كانوا ينكرون البعث والنشور، حيث قالوا هذا القول لنينا محمد صلى الله عليه وسلم أو لمن كان يُجادلهم في إثبات البعث والنشور، **والمقصود بقولهم**: ضللنا، **أي**: ذهبت أجسادنا في التراب، وتفرقت، تمزقت، وأكلتها الدود، وأصبحت غير معروفة.

**وقوله**: ﴿أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، هذا سؤال استبعاد، **والمعنى** فكيف يمكن أن نرجع من جديد ونصير أحياء، وهل سيخلقنا الله خلقاً جديداً مكتمل الخلقة، كما كنا في الدنيا، وهي حكاية لإنكارهم البعث وتكذيبهم بالنشور، ولم يُجب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عليهم؛ لأن الجواب واضح في أذهان العقلاء، فإن الذي أنشأ الخلق من العدم قادرٌ على أن يُعيدهم مرة أخرى، والإعادة كما هو معروف أهون وأسهل من الإيجاد.

**ولكنه أضرب عن كلامهم هذا وعن شبهتهم، فقال**: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾، **بل**: للإضراب، **والمعنى** كلامكم غير صحيح، فالذي دفعكم إلى التكذيب ليس لأن العقول تُنكر قدرة الله على البعث والنشور، بل من عنده عقل سليم سيعلم أن الله قادر على ذلك، ولكن السبب الرئيس في إنكاركم هو الكفر والجحود الذي جعلكم لا تُعملون عقولكم في الوصول إلى معرفة الحق، وتلقّيتم هذا الكفر عن آبائكم تقليداً لهم، وفي إضافة اللقاء إلى ربهم، تبكيت لهم، فكيف تكفرون بالله وهو الذي خلقكم وأوجدكم ورباكم ثم نسيتم هذا كله، وكفرتُم بالله وجحدتم لقاءه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**!!

ثم أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿قُلْ يَنُوفَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ﴾،



هذا الكلام **يقول علماء البلاغة**<sup>(1)</sup>: إنه عبارة عن تهيئة للجواب الحقيقي الذي هو في ختام الآية، وهو قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١١)</sup>، فالمرجع إلى الله، ولكنه ذكر كيف يتم الموت ومن يقوم به ومن وُكِّل به، وهذا رد على كلامهم السابق المعروف في عقائدهم، **كما قال عنهم**: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾<sup>(٣٧)</sup> [المؤمنون: 37]، فنسبوا الموت والحياة إلى أنفسهم، وكأنهم هم الذين يختارون الحياة وهم الذين يختارون الموت، فبيّن الله لهم في هذه الآية أن الذي يحييهم هو الله، وأن الذي يُميتهم هو الله، وأن الله قد وُكِّل بإماتتهم ملك الموت، فهو الذي يقبض الأرواح، ولم يأت دليل صحيح على تسمية ملك الموت بعزرائيل، وإنما هذا الاسم مشهور في الإسرائيليات، وذكر هنا ملك الموت على الانفراد، بمعنى أنه هو القائد للمجموعة الذين حوله.

**وقد ورد في آيات أخرى بالجمع، كما في قوله**: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ [الأنعام: 61]، **وفي قوله**: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93]، **والمعنى** أن هناك مجموعة من الملائكة يُساعدونه في قبض الأرواح، كما ثبت في حديث البراء بن عازب، الطويل في وصف نزع الروح<sup>(2)</sup>، **وفيه**: أن ملك الموت ينزل وتنزل معه ملائكة الرحمة في نزع روح المؤمن، وتنزل معه ملائكة العذاب في نزع روح الكافر أو الفاجر، وبهذا تجمع بين النصوص.

(1) ينظر: الصناعتين، لأبي هلال العسكري: (431).

(2) رواه أحمد، قرطبة: (4/ 295) برقم: (18637)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز:



**وقوله:** ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، أي: وكله الله وأمره وأعطاه قدرة على قبض أرواح الناس مع اختلاف أسباب الوفاة، واختلاف أماكن الأجساد، وكثرة الأعداد التي تُقبض في اللحظة الواحدة على مستوى العالم، وذهب بعض أهل العلم: إلى أن أرواح كل المخلوقات موكَّل بها الملائكة<sup>(1)</sup>، مثل أرواح الطيور وأرواح الحيوانات وكل ما فيه نفس حية فإنها تُقبض مثل ما يُقبض روح الإنسان، ولكن الإنسان كرمه الله حياً وميتاً؛ فجعل له طريقة معينة في الغسل والصلاة والدفن ونحوها.

**ثم قال:** ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١١)</sup>، ثم حرف عطف يفيد التراخي، وفي هذا إشارة إلى حياة البرزخ، وهي الفترة التي يعيشها من توفي ودُفن في البرزخ حتى يُنفخ في الصور النفخة الثانية، فيبعث الله الجميع ويرجعون إليه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**.

**ثم قال الله سبحانه:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾، **الخطاب موجه إلى نبينا محمد ﷺ** عند نزول القرآن عليه، ولكنه بعد النزول أصبح صالحاً لكل من يقرأ الآية، أي: لو رأيت حال المجرمين حينما يُبعثون بين يدي الله، وهم خافضون لرؤوسهم مع الذلة، وهو فعل المذنب الخجلان حين يُقابل الله بعد أن أنكر قدرته، وكفر به واستعمل نعمه في معصيته، فقد خفضوا رؤوسهم ذلةً وخضوعاً وخوفاً وخجلاً من تكذيبهم، ولا ينفعهم ذلك اليوم، ولو فعلوا جزءاً من هذا الخجل في الدنيا لنفعهم، ولو من أدوات الشرط، وحذف الجواب

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14 / 93).



للتهويل والتعظيم، **وتقديره هنا:** لرأيت مطلعاً وهولاً عظيماً، والمجرمون هنا هو وصفٌ لمن سبق ذكره، وهم الكفار الذين أنكروا البعث والنشور.

**وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي:** بين يدي ملك الملوك **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وسلطانه العظيم، وهذا يزيدهم ذلّةً وخوفاً، وكرّر كلمة الرب مع الكفار لتذكيرهم بما يجب عليهم نحوه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ولما نكسوا رؤوسهم اعترفوا، ولكن الاعتراف في هذا الوقت لا ينفع صاحبه، **فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾**، أبصرنا النار التي كنا ننكر، وأبصرنا البعث والحشر الذي كنا ننكر، وأبصرنا الوقوف بين يدي الله الذي كنا ننكر، وسمعنا ما يدل على ذلك كله، فرأوا الحقائق التي كانوا ينكرونها بعيونهم وسمعوها بأذانهم يوم القيامة، **فما المطلوب؟! قالوا: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، أي:** أرجعنا إلى الدنيا من أجل أن نعمل صالحاً، فنؤمن بك ونتبع رسلك، هذا إقرار منهم واعتراف بأنهم كانوا على عمل غير صالح، **ثم أكدوا بقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢)**، فقد وصلوا لما بُعثوا بين يدي الله إلى حالة اليقين بأحقية ألوهية الله وربوبيته بعد أن كانوا في حالة الشك المطلق منها في الدنيا.!!

**ثم قال الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾، يقول بعض المفسرين:** إن هذه الآية كلها جاءت كجملة اعتراضية قبل الجواب على سؤال المشركين<sup>(1)</sup>، وأتى بها هنا ليبيّن حكمة الله من الأمر والنهي، وحكمة الابتلاء بالتكليف، ولو أراد الله أن يجعل الأنفس كلها على الهدى والإيمان؛ لجعل ذلك مشيئة كونية،

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21 / 222).



وفطرهم على الإيمان والهدى، كما فطر الملائكة، ولكن مشيئته وإرادته اقتضت أن يتلي الخلق بالتكاليف، فخلق جنةً ولها أهل، وخلق ناراً ولها أهل، فأهل الجنة من وُفقوا للإيمان والعمل الصالح، وأهل النار من لم يُوفقوا، وهم الذين حق عليهم القول، **أي:** سبق عليهم القول في علم الله الأزلي أنهم سيكونون من أهل النار، وهذا ليس فيه حجة لمن يقول إنه مجبور على الكفر أو المعصية؛ لأن الله لم يُخبر بهذا العلم أحداً من الخلق، بل كتبه في اللوح المحفوظ، وطلب من الناس أن يعملوا الخير وأن يتركوا الشر، وبَيَّن لهم الطريقين، **كما قال:** ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، والمكلف هو من يختار الطريق.

**ثم قال:** ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣)، ولكن سبق القول في علم الله أنه سيكون هناك مكذبون من الجن والإنس، لأنهما هما الصنفان المكلفان بالأمر والنهي، وسيكون مصيرهم إلى النار، فأتي بهذه الآية كجملة اعتراضية لبيان حكمته **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** من الابتلاء للخلق بالتكاليف.

**ثم جاء الجواب على طلبهم:** ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، فقال لهم: ﴿فَذُوقُوا﴾ **يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟**، **أي:** لا رجعة إلى الدنيا، وإنما اذهبوا إلى النار؛ لتطعموا عذابها، وعبرَ هنا بالذوق مع أنه من أفعال اللسان؛ لتهكم، **والمعنى** لتذوق أجسادكم ألم العذاب مثل ما يذوق اللسان طعم السكر أو الملح، وحذف المفعول به لتهويله، والباء هنا للسببية، **أي:** بسبب نسيانكم لقاء الله؛ حصل لكم ذلك العذاب، **والمقصود بالنسيان هنا:** ليس هو النسيان المعروف عند الناس، فلو كان



هو لكان معفياً عنه، **كما في الحديث**: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه الله"<sup>(1)</sup>، **ولكن المقصود به هنا** الإهمال المتعمد، والإعراض المتعمد عن الإيمان والطاعة، نسي بمعنى: أهمل، وترك، وأعرض.

**وقوله: ﴿يَوْمَكُمْ هَذَا﴾**، نسب اليوم إليهم مع أنه ليس خاصاً بهم، من باب تعظيمه في نفوسهم، وجاء باسم الإشارة هذا ليدكرهم أنهم كانوا يُنكرونه في الدنيا، وأصبح حقيقة تراه أعينهم.

**ثم قال: ﴿إِنَّا نَسِيْنَكُمْ﴾**، فهذا هو العقاب الأول لكم، النسيان مقابل النسيان، فالجزاء من جنس العمل، فلما أعرضتم؛ أعرض الله عنكم، وترككم وأهملكم، كما تركتم وأهملتم أمره في الدنيا.

**ثم قال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾**، وهذا هو العقاب الثاني لكم، دخولكم النار وتعذيبكم فيها، ووُصف العذاب بالخلد لأنهم سيُخلدون فيها ولن يخرجون منها.

**ثم قال: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**، **الباء هنا** سببية، حيث عاقبكم بذوق عذاب الخلد بسبب ما عملتم من الكفر والقبائح.

**ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾**، فهذا الوصف محصور ومقصود على من

(1) رواه ابن حبان، كما في الإحسان: (202 / 16) برقم: (7219)، والطبراني في المعجم الكبير: (340 / 9) برقم: (1110)، والبيهقي في السنن الصغرى: (301 / 3) برقم: (2586)، وصححه الألباني في الإرواء: (123 / 1).



هذه صفته، وهم المؤمنون حقاً بالآيات سواء كانت الآيات القرآنية أو الآيات الكونية، وكلاهما آيات عظيمة تدعوا إلى الإيمان بالله الخالق الرازق المستحق وحده للعبادة **جَلَّ وَعَلَا، والتذكير هنا بمعنى: الوعظ، أي: إذا وُعظوا بها، سواء كان الوعظ بالآيات القرآنية التي تتلى، أو كان الوعظ بالتفكر العقلي والتأمل الفكري للإنسان في ملكوت الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا رأى شيئاً عجيباً من مخلوقات الله تعالى خضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.**

**وقوله: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾**، هذا بيان لثمرة الخضوع لله من هذا المخلوق، فإنه يخِر، **والخروء معناه النزول من أعلى إلى أسفل، كما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النحل: 26]، فالعبد يكون واقفاً فينزل ساجداً بين يدي الله، والسجود هو لصق الجبهة والأنف مع باقي أعضاء السجود وتمكينها من الأرض، **كما في الحديث: "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم، وأشار إلى الجبهة والأنف ثم ذكر اليدين والركبتين وأطراف القدمين" (1)**، **والسجود هو الهيئة التي تدل على كمال خضوع العبد واستسلامه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالأنف والجبهة هما عنوان العزة، وسُمِّي أنفاً من الأنفة، فكان السجود على الأنف والجبهة عنوان الخضوع والاستسلام.**

**وقوله: ﴿وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾**، **الواو عاطفة، يعني: ليس سجوداً فقط للأعضاء والجسم، بل أيضاً سجوداً للقلب واللسان، فإذا سجدوا سَبَّحُوا الله ونزهوه عن**

(1) رواه البخاري: (162 / 1) برقم: (812)، ومسلم: (354 / 1) برقم: (490)، عن ابن عباس



النقائص، **والباء هنا للملابسة، يعني:** جمعوا بين التسييح والتحميد.

**ثم قال:** ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، فذكر هنا العلة التي يمتنع بها من لم يسجد، وهي الكبر، فإبليس منعه الكبر من السجود، وكذلك الكافر منعه الكبر من السجود، أما من سجد وخضع لله؛ فقد ذهب منه الكبر!!

**ثم ذكر لهم صفة أخرى، فقال:** ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، **تجافى** بمعنى تتباعد، **والمضاجع** الفرش كما في قوله: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، **أي:** في الفرش وفي مكان النوم، **والمعنى** أن جنوبهم تتباعد عن الفرش، فلا يقطع الليل كله في النوم، وإنما يقوم عدة مرات من فراشه للصلاة بين يدي الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وقد وردت روايات كثيرة عن الصحابة تفسر زمن ذلك، **ف قيل:** إنها الصلاة بين المغرب والعشاء<sup>(1)</sup>، **وقيل:** إنها صلاة العشاء نفسها<sup>(2)</sup>، **وقيل:** إنها صلاة المغرب نفسها<sup>(3)</sup>، ولكن قد جاء في حديث معاذ بيان ذلك بأنها صلاة الليل، قال: "قلت يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ النار الماء، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم قرأ

(1) ينظر: جامع البيان، للطبري: (20/ 178).

(2) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (4/ 362).

(3) ينظر: جامع البيان، للطبري: (20/ 179).



عليه: ﴿تَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾<sup>(1)</sup>، فهذا تفسير للآية من النبي ﷺ،  
وأن المقصود بها قيام الليل؛ وقد وردت فيه فضائل كثيرة، فهو لاء كانوا يقومون  
الليل ولا ينامونه، كما قال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17].

ثم قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، فهم إذا قاموا بين يدي الله كان حالهم  
حال الخائف الطامع، ولا شك أن حبهم لله دفعهم إلى تعظيمه والوقوف بين  
يديه، وتلك هي أصول العبادة، وهي: كمال الحب، وكمال الخوف، وكمال  
الرجاء، وبها جميعاً يجب أن يتعبد الإنسان لربه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فلا تعبد الله  
بالخوف فقط؛ فتكون من الخوارج، ولا تعبد الله بالرجاء فقط؛ فتكون من  
المرجئة، ولا تكن من الزنادقة الذين يدعون أنهم يعبدون الله عشقاً وحباً  
وغراماً!!، بل نعبد الله محبةً، وخوفاً، ورجاءً، وهذه هي صفة عبادة الرسل  
والأنبياء عليهم السلام، وهم أكمل الناس عبادة لله!!

ثم وصفهم بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾<sup>(١٦)</sup>، فعباداتهم متنوعة ما بين  
سجودٍ وخُضُوعٍ وقيام الليل وهذه عبادات بدنية، وتعظيم الله في القلب محبةً  
وإجلالاً، وجمعهم بين الخوف منه والرجاء فيما عنده، وهذه عبادات قلبية، ثم  
ذكر نفقاتهم من زرق الله، وهذه من العبادات المالية، وتنوع عبادة العبد دليل  
على كمال صلاح كل جوارحه، لأنه يمكن أن تكون عابداً لله بقلبك ولسانك  
وبيدتك ولكنك بخيل في باب المال والنفقة، لأن النفقة عبادة مالية، تُخرج

(1) رواه الترمذي: (11/5) برقم: (2616)، وابن ماجه: (5/116) برقم: (3973)، وصححه  
الألباني والأرنؤوط.



الشح والطمع من نفسك، فتصدق وتُعطي وأنت تعتقد أن الله سيُخلف عليك،  
**كما قال:** ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: 39]، وتعتقد أنك تُعطي من  
 مال الله إلى خلق الله، وأن العوض من الله، **كما قال:** ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا  
 حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَزْوَاجًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245].

**وقوله:** ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، لفظ عام يشمل كل نعم الله التي رزقها العبد،  
 فليس الرزق محصوراً على المال فقط، صحيح أن المال أعظم أنواع الرزق،  
 ولكن هناك رزقٌ من نوع آخر، فالوجاهة رزق، فأنفق من وجاهتك، واشفع  
 للناس، **وفي الحديث:** "اشفعوا تُؤجروا"<sup>(1)</sup>، والعلم رزق، فأنفق من علمك،  
 وعلم الناس، وبلغ عن النبي ﷺ آية أو حديثاً، أو أي علمٍ مما تعلمت،  
 والصحة رزق، فأنفقها في طاعة الله، وهكذا...!

**ثم قال سبحانه:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، فهو لاء القوم  
 وعدهم الله الجنة، وهي مما تقر به العين إذا رأتها، ولكنه هنا لم يُصرح باسمها،  
 وإنما ذكرها بوصفها وأخفى الاسم تشويقاً إليها، وتعظيماً لما فيها، فلا يعلم  
 شخص من هؤلاء الذين سبقت صفاتهم بالجزاء المخفي له عند الله، ولن يراه  
 إلا إذا مات ودخل الجنة، وقد جاءنا في القرآن الكريم وصفاً تفصيلياً للجنة،  
 ومع هذا الوصف التفصيلي؛ إلا أنه لم يُحاط بكل ما في الجنة، **وفي الحديث**  
**القدسي:** "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

(1) رواه البخاري: (2/ 113) برقم: (1432)، ومسلم: (4/ 2026) برقم: (2627)، عن أبي

موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



على قلب بشر<sup>(1)</sup>.

**وقوله:** ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، الباء هنا سببية، أي: بسبب أعمالهم الصالحة، ومنها ما سبق من وصفهم به، فأعطاهم الله هذا النعيم جزاءً لهم.

**ثم قال:** ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾<sup>(١٨)</sup>، سبق أن ذكر لنا حال أهل النار ومصيرهم، وذكر لنا صفات أهل الجنة وجزاءهم، ومن خلال المقارنة بين الحالين يتضح لنا الفرق بينهما وأنهما لا يستويان في المصير والجزاء، فلا يستوي حال المؤمن في الدنيا في راحته وسعادته وانشراح صدره وإيمانه، ولا حاله في القبر ولا حاله في الجنة بحال الكافر الذي يعيش في الدنيا في ضنك وقلق واضطراب، وفي البرزخ في عذاب وتعب، وفي المحشر في فزع وخوف، وفي النار في عذاب وسعير، نسأل الله السلامة والعافية.

**المقصود بالفاسق هنا هو الكافر؛ لأن الفسق على نوعين: فسق أصغر، هذا ممكن أن يقع فيه بعض المؤمنين، وفسق أكبر وهو الكفر المخرج من الملة، ثم بين جزاء كل فريق، فقال:** ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٩)</sup>، فجزاء المؤمنين الصالحين الجنة التي سبق بيانها إجمالاً، وسماها: جنة المأوى، لأن المؤمنين يأوون إليها، أي: يسكنون فيها، وتكون منزلاً لهم، وهذا الجزاء لهم كان بسبب أعمالهم الصالحة.

(1) رواه البخاري: (4 / 118) برقم: (3244)، ومسلم: (4 / 2174) برقم: (2824)، عن أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



**ثم قال:** ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا لَهُمْ النَّارُ﴾، والمقصود بالفسق هنا، الفسق الأكبر؛ لأن النار لا يخلد فيها إلا الكافر، أما العاصي الذي عمل بعض الفسوق والعصيان، ولم يتب منها فلا يخلد في النار.

**وقوله:** ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾، إرادة الخروج منها موجودة من أول يوم، ولكن لا يحصل لهم ذلك، ومن صور الإرادة عندهم أنهم يشعرون أنهم إذا ماتت أجسامهم وجلودهم من شدة العذاب؛ ظنوا أن بموتهم ينتهي العذاب عنهم، وكأنهم خرجوا من النار، ولكن ذلك لا يحصل لهم، **بل قال الله:** ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]، فهذه صورة من صور الإعادة، **وقيل:** أنهم كلما رفعتهم النار إلى أعلى، فكروا أنهم سيخرجون، فتعيدهم إلى أسفل<sup>(1)</sup>، فيبقون بين صعود ونزول.

**وقوله:** ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾، ويُقال لهم من باب التبكيت **والتقريع:** ذوقوا عذاب النار، لأن العذاب في الآخرة، **نوعان:** عذاب حسي يصيب الأجساد بالحرق والسعير، **وعذاب معنوي**، وهو ما يسمعه أهل النار من تقريع الله والملائكة لهم بالكلام الذي يُوجعهم من الناحية النفسية، ومنه هذا القول، فالإنسان لو أصيب بمصيبة، وجاءه شخص، **وقال له:** ذُوق العذاب، لازداد ألماً وتعباً، وهو في هذه اللحظة أحوج ما يكون إلى أن يقال له كلمة طيبة تُهيء نفسه للصبر، فأهل النار -بجوار العذاب الأليم الذي يحصل لهم- يُقال لهم: كلمات التبكيت والتقريع مزيداً في العذاب النفسي لهم.

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/107).



**وقوله:** ﴿الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ تَكَذُّبٌ﴾ ، تذكيرٌ لهم بفعلهم في الدنيا، فقد كانوا لا يؤمنون بالآخرة ولا بالبعث ولا بالنار، وقد أصبحت الآن حقيقة، فذوقوا عذابها.!

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- يحصل اليقين للكفار بما كانوا ينكرونه من أمور في الدنيا؛ حين يُعْثُونَ بين يدي الله ويشاهدونها حقيقة، بعد أن كانوا في حالة الشك المطلق منها في الدنيا.!!
- 2- أن السجود لله هو الهيئة التي تدل على كمال خضوع العبد واستسلامه لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 3- أن العذاب في الآخرة، نوعان: عذاب حسي يصيب الأجساد بالحرق والسعير، وعذاب معنوي، وهو ما يسمعه أهل النار من تقرير الله والملائكة لهم بالكلام الذي يُوجعهم من الناحية النفسية.



## تفسير المقطع الثالث من سورة السجدة

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١)  
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ  
 ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾  
 وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ  
 هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ  
 أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا  
 يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ  
 مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَانْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ  
 صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ  
 عَنْهُمْ وَانْتَظَرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١)، **الخطاب هنا** موجه للكفار عموماً، ومن ضمنهم كفار قريش الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ، فقد هددهم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وتوعدهم بأنه سيذيقهم من العذاب الأدنى، والمقصود به هنا عذاب الدنيا، **وقد اختلف**

**المفسرون في نوع هذا العذاب**، هل هو القحط والسنون<sup>(1)</sup>، أم المصائب والابتلاءات<sup>(2)</sup>، أم الهزيمة والقتل الذي حصل لهم في بدر<sup>(3)</sup>، أم غير ذلك؟ والراجح أنه عام، فيشمل كل أنواع العذاب التي أصابت الكفار في الدنيا، من مصائب، وابتلاءات وحروب، وزلازل، ومِحَن، وقتل، وجوع، وغير ذلك، **وقيل**: إن المقصود بالعذاب الأدنى هنا عذاب القبر<sup>(4)</sup>، لكن هذا القول ضعيف، ويرده السياق، **في قوله**: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لأنه لا رجعة بعد الموت إلى الدنيا، **وفي قوله**: ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، المقصود بالعذاب الأكبر هو عذاب النار في الآخرة، **ودون لها تفسيران، الأول**: بمعنى غير، **والثاني**: بمعنى أقل، وكلا المعنيين يصلح هنا، فعذاب الآخرة غير عذاب الدنيا، وعذاب الدنيا أقل في الرتبة من عذاب الآخرة.

**ثم قال**: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا تعليل لإصابة الكفار بشيء من العذاب في الدنيا، فالهدف والحكمة منه لعلهم يرجعون إلى الحق، فيؤمنوا، ويعرفوا الصواب ويهتدوا إليه.

**ثم قال سبحانه**: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾، أي: لا أحد أشد ظلماً من الذي وعظ بآيات الله فكذب بها أو ردها، و(مَنْ) هنا ليس

(1) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (363 / 4).

(2) ينظر: جامع البيان، للطبري: (188 / 20).

(3) ينظر: جامع البيان للطبري: (190 / 20).

(4) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (364 / 4).



المقصود بها سؤال الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب، وإنما المقصود بها سؤال استنكاري تعجبي استغرابي، فيستغرب ويتعجب ممن هذا حاله، والآيات هنا إما أن تكون الآيات الشرعية أنزلها الله في القرآن الكريم، أو في كتب الله عموماً، أو الآيات الكونية، أو هما معاً، وهذا أبلغ، فإن الإنسان قد يتعظ بالآيات الكونية أكثر مما يتعظ بالآيات الشرعية؛ لأن الآيات الكونية يُشاهدها ويراهها ويحسها كل الناس، بينما الآيات الشرعية لا يفهمها ولا يعيها إلا من وفقه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لفهمها، وأضاف الآيات إلى الرب؛ لأن معنى الرب فيه معنى الرعاية والعناية بهذا العبد، **والمعنى** هذه آيات ربك الذي أوجدك ورباك.

**وفي ذلك تحفيز لشعور العبد نحو خالقه ومولاه، وقال هنا: ﴿مُرْ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾**، ب (ثم)، **وفي قوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾** [الكهف: 57] ب (فاء التعقيب)، فما الفرق بين هذه وتلك؟ الجواب: هذا إخبار عن حال الناس وموقفهم مع الآيات، فبعض الناس يُعرض عن الآية بمجرد سماعها، وبعض الناس يمكن أن يستمع ويُفكر ثم بعد التفكير بوقت يُعرض، وكلا الأمرين دليل على قلة الفقه، ذاك أعرض بدون تدبُّر وذاك أعرض بعد التأمل، والنتيجة واحدة وهي عدم الاستجابة للآيات.

**ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾** ٢٢، هذا الأسلوب خبري لكنه يُفيد التهديد، **والمعنى** إن هذا الذي ظلم نفسه بتكذيبه بآيات الله وإعراضه عنها، لن يُترك بدون عقوبة، فهو مجرم ولا بد أن يعاقبه الله وينتقم منه، **وفي قوله: ﴿إِنَّا﴾**، المقصود بها هنا نون العظمة، فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إذا حدث عن نفسه



قد يُحَدَّث بالإنفراد وقد يُحَدَّث بالجمع، فهنا الجمع للتعظيم، فهو إلهٌ واحد لا شريك له، وفي قوله: ﴿مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وصفٌ يُبَيِّن سبب الانتقام منهم، وهذا يدلنا على أن صفة الانتقام لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ليست مطلقة، وإنما هي من الصفات المقيدة، أو التي يُسمونها صفة المقابلة، مثل: المكر والخداع والاستهزاء، فالله لا يُوصف مطلقاً بها بل تقيّد بمن يستحق ذلك، وهذه مثلها فلا يُسمى الله بالمنتقم؛ لأن المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى، ولكن إن قلته من باب الإخبار؛ فيجوز، لأن باب الإخبار يجوز فيه ما لا يجوز في باب التسمية، والصواب أن يطلق هذا الوصف عليه مقيداً فيقال: المنتقم من المجرمين، بمعنى أن صفة الانتقام مرتبطة بالمجرمين، كما يقال: أنه يُمكر بمن يستحق المكر، ويخدع من يستحق الخديعة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، **الواو هنا** إما استئنافية أو عاطفة، **فإذا قلنا**: عاطفة، فعلى ما سبق من إعراض كفار قريش عن الإيمان وتكذيبهم بالرسول ﷺ، **وإن قلنا**: استئنافية، فمعناها ذكر قصة جديدة، وموسى هو ابن عمران **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وهو نبيُّ أُرسِل في بني إسرائيل، والمقصود بالكتاب هنا التوراة.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾، **والخطاب فيها لمحمد** ﷺ، **والمريّة**: الشك، وقد ذكر المفسرون عدة أقوال في عودة الضمير، الأول: أنه يعود إلى موسى، **والمعنى** فلا تكن يا محمد في شكٍّ من لقاء موسى، وهذه بشارة لمحمد ﷺ، وقد لقيه في ليلة الإسراء والمعراج، وجرى بينهم الحديث



والحوار بخصوص تخفيف الصلاة، كما هو مشهور في حديث الإسراء والمعراج<sup>(1)</sup>، ورجّح هذا القول ابن جرير<sup>(2)</sup>.

**والقول الثاني:** أنه يعود إلى الله، أي: فلا تكن في شك من لقائه في الآخرة، وضعّف هذا القول ابن عطية<sup>(3)</sup>، وعلى هذا المعنى يكون قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾، جملة معترضة، والمعنى فلا تكن يا محمد في شك من لقاء الله، وجاءت على سبيل الوعظ والإرشاد للنبي ﷺ، ولأئمة، وهذا يأتي كثيراً في القرآن، وليس لأن محمداً ﷺ في شك، وإنما من باب التوكيد والتعليم لأئمة، أن لا تشك في لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو الوقوف بين يديه.

**والقول الثالث:** أنه يعود على الكتاب<sup>(4)</sup>، أي: فلا تكن في شك من لقاء الكتاب، والمقصود أثره، فالرسول إذا أُعطي الكتاب كان ذلك عنواناً للرسالة والبعثة، ثم حصول المشقة له في تبليغه والأذية من المخالفين له، والمعنى فلا تكن في شك مما قد سيصيبك بعد إنزال الكتاب عليك من مشقة التبليغ وأذية المخالفين من قومك.

**والقول الرابع:** أن الضمير يعود إلى ما لاقاه موسى من أذية من قومه،

(1) رواه البخاري برقم: (3239)، (4/116)، ومسلم برقم: (165)، (1/151)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(2) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري: (20/193-194).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (4/364).

(4) ينظر: المصدر السابق.



**والمعنى** فلا تكن في شك مما لاقى موسى من قومه من أذية، فإنك ستحصل على مثلها من قومك، ورجح هذا القول ابن عاشور<sup>(1)</sup>، فهذه أربعة معانٍ في عودة الضمير، وهذا يدل على سعة لغة العرب، ويدل على مكانة العلماء وتبحرهم في فهمها، حتى تنتبه اليوم إلى البضاعة المزجاة لأولئك القوم الذين يُفسرون القرآن وهم جهلة بلغة العرب، ولا يعرفون شيئاً من بلاغة القرآن، ولا يعرفون أصول النحو ولا قواعد الإعراب، ولا مفردات المعاجم والاشتقاق، فإذا بهذا المفسر يناقض كلامه بعضه بعضاً ويضرب بعضه بعضاً، ويظهر القرآن على أنه مختلف ومتناقض!!، وليس كتاب هداية وإعجاز وبيان للأمة!!، فانتبهوا يا طلبة العلم!! وتعلموا أصول التفسير وقواعده، وتعلموا لغة العرب وبلاغتها، فإن الله أنزل القرآن بلغة العرب!!

**ثم قال:** ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾<sup>(٢٣)</sup>، الضمير يعود إما إلى موسى، **أي:** وجعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل، وإما إلى الكتاب وهو التوراة، **أي:** وجعلنا التوراة هادية لبني إسرائيل، وكلا المعنيين صحيح، **فإن قلت:** الكتاب؛ فالمبلغ له موسى، فالهداية تكون بموسى عن طريق الكتاب، **وإن قلت:** موسى؛ فموسى سيهدي بني إسرائيل بما أوحى إليه من الكتاب، واللام لام الاختصاص، فموسى أو التوراة خاصة بهداية بني إسرائيل، بينما جعل الله القرآن ومحمداً هدىً للناس أجمعين، ورحمة للعالمين، وبنو إسرائيل هم: أولاد يعقوب **عليه السلام**، ومن تناسل منهم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (21/ 235-236).



**ثم قال:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: وصيرنا من بني إسرائيل رؤساء يُقتدى بهم في الخير، ومن هنا تبعيضية، بدليل أنه يوجد من بني إسرائيل من ليسوا أئمة في الخير، بل هم أئمة في الشر.

**وقوله:** ﴿يَهْدُونَكُ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يعملون بشريعتنا، ويدعون إليها، ويقتدي بهم غيرهم في ذلك، لأن الإمام لا يُسمى إماماً إلا إذا اقتدى به غيره، **والمقصود بالأمر هنا** الأمر الشرعي الذي أنزله الله في الوحي، وهو فعل الطاعات وترك المحرمات.

**وقوله:** ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾، (لَمَّا): بالتخفيف والتشديد، **قراءتان، أي:** حينما تحقق صبرهم، فربط بلوغهم إلى رتبة الإمامة **بشرطين:** بحصول الصبر واليقين منهم، والصبر يشمل جميع أنواع الصبر.

**وقوله:** ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤)، أتى بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار، فاليقين أمر لا بد منه في كل لحظة، وهو من أعمال القلوب، وأطلق لفظ الصبر؛ ليشمل أنواع الصبر الواجبة الثلاثة، **وهي:** الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على الابتلاء، وأطلق لفظ اليقين؛ ليشمل كل أنواعه: اليقين بالله وبكتابه وبرسله وبالיום الآخر، واليقين بوعدده ووعيده، ونحوها.

**ثم قال سبحانه:** ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥)، السياق يتحدث عن بني إسرائيل، وفيهم المؤمنون الصالحون، وفيهم الكافرون المجرمون، وقد حصل بينهم اختلاف في أمور الدين، وماتوا



وهم على هذا الاختلاف، **فَأَجَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الفصل بينهم إلى يوم القيامة، **والمقصود بالفصل هنا** ليس مجرد الحكم بأن يُقال: هذا مؤمن وهذا كافر، فقد قيل هذا في الدنيا، وإنما المقصود يجازي الكافر على كفره في جهنم، ويجازي المؤمن على إيمانه في الجنة، ويبيّن أن يوم الفصل الكامل الحقيقي المنتهي الذي لا مراجعة فيه ولا استئناف سيكون في يوم القيامة.

**وقوله:** ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، **أي:** في الأمر الشرعي والأفعال الاختيارية التي يفعلها العبد فيما يتعلق بالدين، وليس الاختلاف الكوني الذي جبلوا عليه ولا اختيار لهم فيه كاللون والجنس واللسان ونحوه، فهذا من آيات الله في الخلق، **كما قال:** ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ﴾ [الروم: 22]، فهذا اختلاف مشروع لتنوع الحياة!!

**فائدة:** ما الحكمة من ذكر قصة موسى وقومه في وسط حديثه عن المكذبين لمحمد ﷺ من أهل مكة؟!

**الجواب:** والله أعلم، أن الله تعالى أراد أن يُسلّي محمداً ﷺ فيما يحصل له من تكذيب وأذية من قومه، **وكانه يقول له:** لست أول من كُذّب، ولست أول من أُوذِي، فقد حصل لموسى التكذيب والأذية، ووجد من قومه من كان إماماً في الحق صابراً عليه، وسيكون من أمتك أيضاً أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، فهذه سنة الله تعالى في الذين خلوا من قبلك من الرسل، فلا تحزن ولا تيأس ولا تبتس، وهذا فيه تسلية وتصبير للنبي ﷺ خاصة أن السورة مكية، وكان المؤمنون في مرحلة استضعاف وأذية، فاحتاجوا إلى التصبير بمثل هذه الآيات.



**ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾**، عاد الخطاب مرة أخرى لكفار قريش، **والمعنى** أولم يتبين لهم من خلال الواقع والأخبار، كم هي الأمم التي أهلكها الله قبلهم؟!، **(كم) هنا** تعجبية للتكثير، فالأمم المكذبة لرسالتها التي أهلكها الله قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة جداً، والقرون جمع قرن، وهو الطبقة من الناس الذين يعيشون في زمن واحد <sup>(1)</sup>، **كما قال** صلى الله عليه وآله وسلم: "خير القرون قرني" <sup>(2)</sup>، **أي**: الذين عاشوا معي، وهم الصحابة، "ثم الذين يلونهم"، وهم التابعون، "ثم الذين يلونهم"، وهم أتباع التابعين، **وذهب أهل الحساب من أهل اللغة** إلى أن القرن مائة سنة <sup>(3)</sup>، وهذا الذي مشى عليه أهل الاصطلاح، فيقال الآن: نحن في القرن الخامس عشر الهجري، يعني: قد مرّ ألف وأربعمائة وأربع وأربعون سنة، فالقرن الخامس عشر قد مرّ منه أربع وأربعون سنة، **لكن القرن المقصود به هنا** هو الأمة التي تعيش مع بعض.

**ثم قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾**، **يعني**: أن الكفار المخاطبين يمرّون في رحلاتهم إلى اليمن وإلى الشام على قرى عاد وقرى ثمود وقرى قوم لوط؛ فيرون بقايا مساكنهم التي بقيت بعد هلاك أجسادهم بالعذاب، **وهذا مثل قوله: ﴿وَلَهُمَا لِيَامَامٍ مُبِينٍ﴾** [الحجر: 79]، **أي**: إن هذه المساكن في طريق واضح لكم في ذهابكم وعودتكم.

(1) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: (334 / 13).

(2) رواه البخاري: (2 / 5) برقم: (3650)، ومسلم: (4 / 1963) برقم: (2533).

(3) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: (334 / 13).



**ثم قال:** ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٣٦)، **أي:** في هلاكهم، وفي سماعكم لأخبارهم وقصصهم آية، أفلا تسمعون سماع اتعاظ وتذكر، وإنما عقب هنا بالسمع، لأنهم لم يُشاهدوا بأعينهم هلاك الأمم، وإنما شاهدوا المساكن، أما هلاك الأمم فسمعوها عن طريق الأخبار، فكل أمة تروي هلاك من سبقها، ثم جاء القرآن فأسمعهم أخبارهم كاملة.

**ثم قال:** ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾، **الرؤية هنا** بصرية أم قلبية؟ **يمكن أن تكون** بصرية لبعض الناس، **ويمكن أن تكون** قلبية للبعض الآخر، فمن يُشاهد السحاب ونزول المطر ونبات الأرض، فهذه رؤية بصرية، ومن لا يُشاهد ذلك وإنما يعلم ذلك من خلال السماع والأدلة، فهذه رؤية قلبية، والسَّوق هو الزجر من الخلف، فتسوق الجمل **أي:** تزجره من خلفه، وهذا يعني أن الملائكة الموكلة بالسحب التي تحتوي على الماء، تزجرها من الخلف، فتنتقل من مكان إلى مكان، هذا إن كانت في السماء، أما إن كان الماء في الأرض؛ **فالمقصود** بسوق الماء؛ جعله يجري من مكان إلى آخر كما في الأنهار والعيون، **والأرض الجُرْز هي:** الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، فإذا ساق الله إليها الماء، أو أنزل إليها المطر نبت بهذا الماء الزرع.

**وقوله:** ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾، **بين** أن الزرع الذي يُنبت يستفيد منه صنفان: الإنسان، والحيوان، فما كان فيه ثمر وحبوب فيأكله الإنسان، وما لا يستطيع الإنسان أن يأكله أو لا يوجد فيه ثمر، فهو طعام للأنعام، وقدّم الأنعام على الإنسان هنا، لأن سياق الحديث هنا عن إنبات الأرض بالمطر، وأكثر



الزرع الذي ينبت منه يكون طعاماً للأنعام، وأخّر ذكر الأنعام في قوله: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَآتِيكُمْ﴾ [النازعات: 33]، لأن السياق هنا عن بيان نعم الله على الإنسان.

**وقوله:** ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ (٢٧)، عقب هنا بحاسة البصر؛ لأن إنبات الزرع وظهور الثمرة تراها العيون، فالعبرة بالبصر، **والمقصود هنا:** بصر اتعاظ وتذكر.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾، أي: يقول مشركو مكة لمحمد: أنت قلت: إن بيننا وبينك معركة، وإن العذاب سينزل بنا، وإنك ستنتصر علينا، فمتى يكون ذلك؟! يسألون على سبيل الاستبعاد والاستنكار، **كما في قوله:** ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1] وهذا يدل على خفة عقولهم.

**وقوله:** ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨)، الخطاب لمحمد ومن معه من المؤمنين، لأن النبي ﷺ أخبرهم أن من لم يؤمن سيُعذب وسيُعاقب، وقال لهم أصحابه ممن آمن به مثل ذلك، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن لا يُجيبهم على سؤالهم هذا، لأنه سؤال استخفاف، وسؤال من قوم لا يفقهون، بل أمره أن يُجيبهم إجابة الحكيم، وهو أن ينقل السائل من السؤال الخطأ إلى السؤال الصحيح، أو يعطيهم إجابة سؤال صحيح مُفترض، **فقال له:** ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾، يوم الفتح ليس هو الوقت الذي ينزل فيه عذابكم، سواء كان عذاب الأسر أو القتل أو القحط أو غيرها من العقوبات الدنيوية، بل يوم الفتح الحقيقي، هو يوم القيامة، وليس ما تستعجلونه من العذاب الدنيوي، فالصحيح أن تسألوني عن يوم القيامة وما ينجيكم من العذاب فيه، فهو يوم الفتح الحقيقي لأن الفوز فيه لا خسارة بعده، **كما قال:** ﴿فَمَنْ زُحِّجَ عَنِ النَّارِ



وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿آل عمران: 185﴾، ولذلك من الخطأ في التفسير: أن يُفسَّر يوم الفتح بأنه فتح مكة، كما ذهب إليه بعض المفسرين<sup>(1)</sup>، بحجة أن الفتح الثاني هو الفتح الأول بدليل إعادته معرِفاً، ولكن السياق لا يستقيم مع هذا التفسير، والصواب أن يُقال هذا من أسلوب الحكيم: فالفتح الذي سألتهم عنه ليس جوابه مناسب لكم، وأن الفتح الحقيقي بيننا وبينكم سيأتي يوم القيامة بدليل ما بعده، وهو قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾، وهذا لا يكون إلا حينما تقوم الساعة، ولو قلنا إن المقصود بهذا الفتح فتح مكة: لكان التفسير باطلاً؛ لأن مكة فتحت، وآمن آلاف الناس، وقُبِل منهم الإيمان.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾<sup>(٢٩)</sup>، أي: ولا هم يُمهلون.

ثم أمر الله نبيه ﷺ في آخر هذه السورة أن يُعرض عن هؤلاء الكفار كثيري الجدل والخصومة، فلا فائدة من مجادلتهم، فلا تضيّع وقتك معهم، ولا تتعب نفسك بهم، وأعرض عنهم بمعنى أهملهم، وليس معنى ذلك ألا تدعوهم، أو لا تبلغهم الدعوة، فالنبي ﷺ مع هذه الآيات التي فيها إعراض عنهم، كان بين الحين والآخر يعرض عليهم الدعوة.

وقوله: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾<sup>(٣٠)</sup>، أي: انتظر إيمانهم وهداية الله

لهم، أو ما يفعل الله بهم، كما حصل لهم في فتح مكة، وهم منتظرون مثلك ما يفعل الله بك، ولكن شتان بين انتظار الشفيق الذي ينتظر إيمانهم وهدايتهم، وبين انتظارهم، فقد كانوا ينتظرون هلاكه أو موته، فشتان بين نوعي الانتظار:

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 111).



الداعية ينتظر من المجرم أن يُسلم، والمجرم ينتظر من الداعية أن يهلك وابتعد من طريقه ليستمر في كفره وإعراضه، فشتان بين انتظار هؤلاء وانتظار هؤلاء.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن صفة الانتقام لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ليست مطلقة، وإنما هي من الصفات المقيّدة، أو التي تسمى بصفة المقابلة، مثل: المكر والخِداع والاستهزاء، فالله لا يُوصف بها مطلقاً، بل تقيّد بمن يستحق ذلك.
- 2- أن الإمامة في الدين لا تنال إلا بشرطين: الصبر واليقين.
- 3- أن يوم الفتح الحقيقي؛ هو يوم القيامة، وليس ما يستعجل به الكفار من العذاب الدنيوي، لأن الفوز فيه لا تعقبه خسارة..



# تفسير جزء الأحزاب

## ( 22 )





## تفسير سورة الأحزاب

## تفسير المقطع الأول من سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۚ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝ (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ (٧) لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (٨)﴾

## شخصية السورة:

**سورة الأحزاب؛** سورة مدنية<sup>(1)</sup>، نزلت بعد الهجرة في المدينة، **والمقصد العام للسورة، هو:** بيان مكانة النبي ﷺ عند ربه، وعناية الله به، وحماية جنابه وأهل بيته، فقد ناداه الله في هذه السورة خمس مرات بلفظ: (يا أيها النبي)، **ومعلوم** أن من تكريم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لرسوله ﷺ أنه ما ناداه في القرآن باسمه مُجرِداً، وسُميت بسورة الأحزاب لحديثها عن الأحزاب، وهم مجموعة من القبائل الذين تجمعوا لغزو المدينة فيما يُسمى بغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب.

**وافُتُحت بقوله:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾، نادى الله رسوله ﷺ هنا بصفة النبوة، وفي موضع آخر بصفة الرسالة، **كما في قوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ۝٦٧﴾ [المائدة: 67]، فجمع له بين الوصفين تشريفاً له، والخطاب بالوصف دون الاسم يدل على التكريم والتشريف له، وأمره في هذا النداء بالاستمرار على التقوى والازدياد منها، وفيه إشارة إلى أهمية الوصية بالتقوى لعموم الخلق، فإذا كان الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أمر رسوله بالتقوى وهو إمام المتقين؛ فمن باب أولى أن يؤمر بها غيره من الخلق، فلا تأخذك العزة بالإثم حينما تُنصح ويُقال لك: اتق الله!، فتشعر بأنه قد اعتُدي على جنابك وأخطى في حقك!!، **كما قال الله:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۝٢٠٦﴾ [البقرة: 206]، فهذا الشخص الذي يدور حول ذاته، ولا يقبل النصح

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 375).



والتوجيه، فلا يلزم أن يُقال لك: اتق الله، أنك لست من المتقين، بل المقصود: استمر على التقوى واحرص عليها حتى لا تنقص، وقد كان النبي ﷺ أكمل الخلق في التقوى، وقد أخبر عن نفسه بذلك رداً على من ظن أن عباداته قليلة، فقال: "أما إني أتناكم له وأخشاكم له" (1)، فهذا محمد ﷺ أكثر الناس تقوى، ومع ذلك يأمره الله بالتقوى، فكيف بحالنا نحن؟!، ثم نهى عن طاعة المنافقين والكافرين، فلا يقبل كلامهم ولا يسير في طريقهم، ولا يخضع لخططهم، فأصناف الناس في المدينة كانوا ثلاثة: مؤمن صادق في إيمانه ظاهراً وباطناً، وكافر ظاهر كفره، ومنافق يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، **فنهاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُطِيع الصنف الثاني والثالث، وأطلق الطاعة ولم يقيد بها بشيء؛ لتشمل كل شيء، وإن كان الأصل أنها في جوانب الدين والإيمان وأمور الآخرة، ولكن أيضاً حتى في أمور الدنيا يمكن أن يستغني عنهم لفساد دنياهم وفساد أخلاقهم، فقد يدسّون السم في العسل، فكن على حذر منهم، وأمره أن يشاور المؤمنين الصادقين، وطاعة المنافقين والكفار والسير في طريقهم من أخطر ما أصيبت به أمة الإسلام اليوم، والمنافقون هم العلمانيون المارقون من الدين، العملاء لليهود والنصارى والكفار باطنياً، الذين يعيشون مع المسلمين ظاهراً، فقد أفسدت المسلمين ديناً ودنيا، ولو تتبعنا مصائب المسلمين اليوم لوجدناها نتيجة وثمرة لطاعة الكافرين وطاعة المنافقين، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد نهى رسوله ﷺ، وهو المؤيد بالوحي عن أن يُطيع هؤلاء، فكيف بحالنا؟! وكان**

(1) صحيح مسلم: (2/ 779) برقم: (1108).



النهي بالوصف ليشمل الخطاب كل كافر ومنافق في كل زمان ومكان، فكل من اتصف بهاتين الصفتين فاحذر منه، وعللّ هذا الأمر والنهي بأن أمره ونهيه صادر عن عليم، أحاط بكل شيء علمًا، وحكيم، ليس في حكمه خللٌ ولا خطأ، فالخطأ ومخالفة الصواب غالبًا ناتج عن أحد أمرين أو هما معًا: إما الجهل وقلة العلم، وإما قلة الحكمة أو فقدانها، والله منزّه عن ذلك.

**وقوله:** ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، **أمر الله نبيه** ﷺ، باتباع ما أنزله إليه من الوحي، بواسطة جبريل **عليه السلام**، وهو القرآن الكريم، **والسنة النبوية** **وحي كما قال:** ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4]، فأنت في غنى من أن تأخذ بمشورة كافر أو منافق، ففي الوحي غنية عن ذلك كله فاتبعه، والخطاب للنبي ﷺ وهو أمر لأتمه، **ولفظ:** (إليك)، إشعار بالاختصاص، وهذا يدل على أن ما أوحى الله به من الوحي والأحكام والعبادات وغيرها إلى الرسول ﷺ أنها ناسخة للأحكام السابقة في شرائع الأنبياء قبله، **وكلمة:** (من ربك)، إشعار بالعناية والرعاية له، فالذي خلقك وأوجدك ورباك هو الذي أنزل عليك الوحي الذي فيه خيرٌ لك في دينك ودنياك، **وعللّ ذلك بقوله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ لأن الاتباع للوحي عمل، ويحتاج إلى إتيان ونية صادقة، فنبهنا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** إلى أنه مطلع على كل عمل نعمله، ليكون خالصًا صوابًا يقبله الله منا.

**وقوله:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، **وأمر الله رسوله** ﷺ، بالتوكل، **وهو:** تفويض الأمور إلى الله والاعتماد المطلق عليه في جميع الأمور



والأحوال، **كما قال:** ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: 44]، والتوكل لا يكون على مخلوق أبداً، وإنما يكون على الخالق الحي، **كما قال الله:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]، **والتوكل** لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت، وهو الله، وكفى بالله وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه، فإنه يكفيه في شؤونه كلها فلا يحتاج إلى غيره، فما أجملها من توجيهات ربانية لو عمل بها المسلم لصلحت له دنياه وآخرته!!

**وقوله:** ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (٤)، هذه حقيقة معروفة بالحس والواقع، وذكر الرجل هنا فيه احتراز عن المرأة الحامل، فيوجد في جوفها أكثر من قلب!! وسمي القلب قلباً؛ لكثرة تقلب أحواله، بسبب الشبهات والشهوات، وعدم ثباته على حالة واحدة، **وفي الحديث:** "كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك" (1)، فهذه الحقيقة الأولى في الآية، ذكرها الله تمهيداً لما بعدها، فكما لا يوجد قلبان في جوف رجل سليم معافى، فكذلك لا يُمكن أن تصير زوجتك مقام أمك في الحرمة والمكانة، بمجرد أن تقول لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكذلك لا يمكن أن يصير من نسبته إليك من الولد ولم يكن من صلبك ولداً لك لا حُكماً ولا حقيقةً، بل هي مجرد دعوى، **والمعنى** فكما لا يكون لواحد قلبان كذلك لا يكون للشخص المظاهر أُمّان، ولا للولد

(1) مسند أحمد: (19/160) برقم: (12107)، وإسناده صحيح.



المنسوب إلى غيره!! واسم الإشارة عائد إلى ما سبق، وأنها ليست حقائق واقعية، بل مجرد أقوال صدرت من أفواه القوم دون تبصر وتأمل في معانيها ولوازمها، والله وحده هو من يقول الحق الذي لا مزية فيه، وفي هذا إشارة إلى بطلان ما سبق من أقوال، وهو سبحانه من يوفق لسلوك الطريق الصحيح، وأرشدكم بهذه الحقائق ليُبعدكم عن الظنون والخزعات والخرافات، ويدلكم على الحقائق السليمة والطريق الصحيح.

**ثم أرشدكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطَرِيقُهُ التَّعَامُلُ مَعَ الْأَدْعِيَاءِ مِنَ الْأَوْلَادِ، فَقَالَ:**  
**﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾، أي:** انسبوا الشخص إلى أبيه، **وقولوا:** فلان بن فلان، فهذا الفعل أعدل، وموافق للحقيقة والواقع، فإن لم تعلموا من هو أبوه كحال بعض اللقطاء الذين لا يُعرف آبائهم، وهو مسلم فاستخدموا معهم أخوة الدين بحيث تكون العلاقة بينكم وبينهم علاقة الأخوة في الإسلام، فإن كان لا اسم له؛ سمَّه ما شئت من الأسماء الحسنة وانسبه إلى عبد الله، **مثلاً قل:** محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الجبار؛ لأن الخلق كلهم عبيد لله، ثم انسبه إلى البلد الذي يسكن فيه، **فتقول:** الإبي، أو الصنعاني، أو المكي، أو المدني، ونحوها، فإن كان طفلاً صغيراً فأرضعه من أحد محارمك ليصير محرماً لنسائك إذا كبر، والمولى من الولاء، وهي النصرة، ويُنسب إليك الشخص بالولاء لو اعتقته أو أسلم على يديك أو تحالف معك، فهذه أنواع الولاء الثلاثة.

**وقوله:** **﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾**



وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾، وهي قاعدة عامة في كل خطأ، والسياق هنا يفيد الخطأ الخاص بمخاطبة الأدعياء بخلاف ما سبق، فقد تُنادي الشخص تنسبه إلى غير أبيه خطأً، ولم تقصد المخالفة لأمر الله، ومن تعمد المخالفة بالقصد والإرادة إليه، فإن الله سيؤاخذ به على ذلك إن لم يتب إلى الله، ثم حثهم وطمعهم بالتوبة والمغفرة لذنوبهم بالإخبار عن الله أنه غفور رحيم، يغفر ويرحم من تاب ورجع إليه سبحانه.

**ثم قال:** ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، وهذه أيضاً قاعدة شرعية، فالنبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا حكم بشيء نفذ حكمه، ووجبت طاعته عليهم، ويجب أن يكون حبهم للنبي ﷺ مقدماً على حبهم لأنفسهم وأهلبيهم وأموالهم وأولادهم، وفي الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين" (1)، وفي رواية (2): فقال عمر: يا رسول الله! -وكان عندهم ما يسمى اليوم بالشفافية- والله إنك لأحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال له النبي ﷺ: "لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال عمر: والله لأنت أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال: "الآن يا عمر"، أي: الآن اكتمل إيمانك وقمت بما أوجب الله عليك من تعظيم وتوقير وحب محمد ﷺ، فهذه القاعدة تُبين أن على المسلم أن يُعظم رسول الله ﷺ وأن يُحبه وأن يكون له من الولاية والتعظيم والحب أكثر ما للنفس، وفي

(1) صحيح البخاري: (12/1) برقم: (14).

(2) صحيح البخاري: (129/8) برقم: (6632).



**الحديث:** "أنا أولى بكل مؤمن، من ترك ديناً فعلي، ومن ترك مالا فلاهله" (1)، وقد كان النبي ﷺ أميراً للمؤمنين، فمن توفي من المسلمين وعليه دينٌ لزم ولي أمر المسلمين أن يقضي دينه من بيت مال المسلمين

**وقوله:** ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَنَهُمْ﴾، أي: إن زوجات النبي ﷺ في تحريم النكاح لهن والمكانة والاحترام لهن بمثابة الأم، وهذه الأمومة تعود إلى حرمة نكاحهن لا غير؛ لأنه لم يثبت شيء من أحكام الأمومة بين المؤمنين وبينهن سوى هذه الواحدة، ألا ترى أنه لا يحل رؤيتهن، ولا يرثن المؤمنين ولا يرثونهن (2)، والخطاب للصحابة الذين كانوا معاصرين له، ويشمل جميع الأمة بعدهم، وفي هذه الآية إشارة إلى تحريم الطعن في زوجاته، فإذا كنت من المؤمنين؛ فزوجات النبي ﷺ بمثابة أمك، فهل ترضى أن يُطعن في عرض أمك أو يتكلم على أمك أحد؟

**وقوله:** ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦)، هذه الآية ناسخة لأحكام التوارث السابقة، وكان النبي ﷺ قد أخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وكانوا يتوارثون على ذلك (3)، وجعلت التوارث خاصاً بالأقارب، قربوا أو بعدوا، فيرث بعضهم بعضاً، سواء

(1) صحيح مسلم: (591/2) برقم: (866).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (176/18).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (210/20).



كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وذلك بعد أن فتح الله على المهاجرين وأغناهم من فضله، وصار بعضهم من كبار التجار، مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما، وكتاب الله هو اللوح المحفوظ، فهذا الحكم مكتوب فيه ومخصص بفترة من الفترات ثم جاء النسخ وفقاً لانتهاؤ تلك الفترة المحددة للحكم السابق، والكل بعلمه وإحاطته، واستثنى من هذا الحكم العطاء لهم بالوصية أو بالصدقة، كأن تقول: أوصي بكذا من التركة لأخي في الله وفي الإسلام فلان، ولا تنس أولياءك من الذين آخى بينكم النبي ﷺ من أن تُوصي لهم قبل الموت بشيء فهذا جائز، ثم أكد نسخ الميراث بالهجرة ونحوها، ورده إلى ذوي الأرحام من القربات، قد كُتب وقدره الله في اللوح المحفوظ.

**ثم قال الله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧)، هذا إخبارٌ من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** للناس بأنه قد أخذ الميثاق من كل الأنبياء عموماً ومن أولي العزم منهم خصوصاً، **وهم** محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**، وخصهم بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم على غيرهم، وقدم ذكر نبينا محمد ﷺ مع تأخر زمانه؛ إشعاراً بتقدم رتبته ومكانته عليهم، فهو أعظم الخلق وسيد ولد آدم من الأنبياء والمرسلين، **والميثاق، هو:** اليمين<sup>(1)</sup> على إخلاص العبادة لله سبحانه، وإبلاغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد، والجهاد في سبيله، وأن يصدق

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/304).



بعضهم بعضاً، ويتبع بعضهم بعضاً، وهل هذا الميثاق خاص بالأنبياء، أو كان ضمن الميثاق الذي أخذ الله على ذرية آدم في عالم الذر؟ محتمل هذا ومحتمل هذا، والسياق يدل على الأول، لأنه وصف بالغليظ، ولأنهم مطالبون بمهام إضافية غير عامة الخلق، وذكر الأربعة الأولين ولم يذكر أسماء آبائهم، وذكر عيسى مع أمه؛ إشارة إلى مكانة أمه وأنه وُلد منها بمعجزة، والميثاق الغليظ، هو المؤكد الشديد الذي يجب الوفاء به.

**وقوله:** ﴿لَيْسَ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، **السلام** للتعليل، **أي:** أخذنا ميثاقهم لكي نسأل الأنبياء عن صدقهم في تبليغ الرسالة، وذلك تبكيتاً للكافرين، ولكي يُظهر مكانة الرسل عند أقوامهم المكذبين بهم، وإلا فالله يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ومطلعٌ على ما قام به الأنبياء والرسل في الدنيا، وسيتم السؤال يوم القيامة بين يدي الله، والسؤال لهم سؤال عرض، وليس سؤال حساب.

**وفي الحديث:** "من نُوقِشَ الحساب عُذِبَ"<sup>(1)</sup>، ولم يذكر ثمرة وجزاء صدقهم، وهي واضحة من خلال ذكر جزاء الكافرين بهم، فقد أعد الله لهم عذاباً مؤلماً في جهنم، عبّر بالكفر؛ لأن الكفر أوسع من الكذب، فيدخل فيه الكاذبون وغيرهم.

(1) صحيح البخاري: (32 / 1) برقم: (103).



## فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- من تكريم الله لرسوله ﷺ أنه ما ناداه في القرآن باسمه مُجرِداً.
- 2- أن الوصية بالتقوى مشروعه مهما بلغ الإنسان من الصلاح.
- 3- النهي المطلق عن طاعة المنافقين والكافرين، وخاصة في أمور الدين.
- 4- أهمية التوكل على الله، وأن من توكل على الله كفاه.
- 5- بطلان ما كانت عليه الجاهلية من عادات وخرافات تخالف الواقع وتصادم الحق.
- 6- بيان كيفية التعامل مع العبيد واللقطاء.
- 7- بيان مقام النبي وزوجاته وحقه وحق زوجاته على أمته.
- 8- بيان نسخ التوارث بين أخوة الدين وردها إلى الأقارب.
- 9- مزية أولي العزم من الرسل، ومكانة رسولنا محمد بينهم.
- 10- أن البلاغ للدعوة ميثاق شديد يجب على الرسل وأتباعهم تنفيذه.



## تفسير المقطع الثاني من سورة الأحزاب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوهُمَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْإِدْبَرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنِ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنِ ارَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ ارَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ ۞ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْمُعَوفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشْحَهَ عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَهَ عَلَى الْخَيْرِ ۖ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا

وَلَا يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْمَئِذٍ بِمَنْعَةٍ لَّوْ أَنَّهُمْ بِأَدْوَابٍ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

**قال الله تعالى:** ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٩﴾﴾، بدأت بهذه الآية قصة غزوة الأحزاب وبيان شيء من أحوالها، حيث خاطب الله عباده باسم الإيمان، وأمرهم أن يذكروا نعمه عليهم، باسترجاع واستشعار ما حصل لهم في ذلك الموقف من نعم، وأضاف النعمة إلى الله؛ ليشعرنا أن كل النعم منه، **كما قال:** ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، فهو موجدُها ومُعطيها، والمتفضل بها على خلقه، وخصَّهم بالنعمة دون غيرهم، رغم أن المنافقين كانوا يعيشون معهم الموقف، لكنهم ليسوا داخلين في هذا الامتنان، ثم ذكر موضع النعمة، فقد قدم جنود الأحزاب وهم قُرَيْش ومن معها من الأعراب ومن انضم إليهم من اليهود وذلك لحصار المدينة واقتحامها، وقد بلغوا أكثر من عشرة آلاف مقاتل حول المدينة، بالإضافة إلى من بداخلها من المنافقين واليهود الذين نقضوا العهود مع رسول الله، ولم يذكر ما فعلوا بالمسلمين من حصار وأذية لهم قرابة شهر، وإنما ذكر موضع النعمة من الله عليهم، حيث أرسل الله على هؤلاء الجنود الريح الشديدة، وهي ريح الصبا وكانت باردة، ففرقت جمعهم وشتت شملهم، وخلعت أوتاد خيامهم وقلبت قدورهم، **وفي الحديث:** "نُصِرَتْ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور"<sup>(1)</sup>، **والصبا:** هي الريح التي تهب من

(1) صحيح البخاري: (33/2) برقم: (1035)



مشرق الشمس، والدبور: هي الريح التي تهب من مغرب الشمس، وأرسل عليهم جنوداً من الملائكة لم يرها المؤمنون، قذفت الرعب في قلوبهم، فانهزم المشركون من غير قتال، وكان الله بصيراً بما يعمل به الناس من إيمان وجهاد ومشاركة في الخير ونحوها، أو نفاق وشك ومشاركة في الشر والباطل ونحوها، وسيجازي كلاهم على عمله.

**ثم وصف الحال، فقال:** ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾<sup>(١)</sup>، أي: جاءكم جنود الأحزاب من جهة الشرق، ومن جهة الغرب، وجاء بنو قريظة من أعالي المدينة وكانوا هم العدو الداخلي المخفي الذين تعاضدوا وتحالفوا مع قريش ومن معهم لمحاربة النبي ﷺ ثم وصف حال المؤمنين أثناء الحصار، فأبصار المؤمنين من شدة الفزع والهلع تضطرب وتتحرك يميناً وشمالاً، وهي إشارة إلى الحال التي وصلوا إليها من الخوف والذعر، حيث بلغت قلوب المؤمنين الحناجر من شدة ذلك، وهل هذا الوصف حقيقي أم مجازي؟!، **قولان<sup>(١)</sup>، قيل:** حقيقي، لأن الإنسان الخائف إذا اشتد خوفه تنتفخ الرئة، فإذا انتفخت الرئة ضايق القلب، فيرتفع إلى الحنجرة، فيسد النفس، **وقيل:** بل هو مجازي يدل على شدة الرعب، فمن شدة الخوف ينقطع التنفس وكأن القلب قد سد الحنجرة التي منها يخرج النفس، وتعددت ظنون المحاصرين بالله وتنوعت ظنونهم؛ فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم.

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: (ص: 1528).



**ثم قال:** ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١)، هنالك، أي: في مكان الحصار وأثنائه حصل الاختبار للمؤمنين، فظهر ضعيف الإيمان وقوي الإيمان، وحصلت لهم شدة، حتى اضطربت القلوب والنفوس وتعرضت لفتنة عظيمة، وهذا يدل على أن الموقف كان شديداً وخطيراً عليهم.

**وقوله:** ﴿وَلِإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢)، وأثناء وقوع الابتلاء الشديد للمؤمنين نطق بعض المنافقين الخالص نفاقهم ومن في قلوبهم مرض الشك والريب والشبهة، فقالوا: إن محمداً يعدنا أن نفتح مدائن كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله! هذا والله هو الغرور، وأي كفر بعد هذا القول القبيح، واتهام الله ورسوله بالكذب، **وقد كان النبي** ﷺ أمر أصحابه بحفر الخندق فاعترضتهم صخرة كبيرة، فحاولوا كسرها فلم يستطيعوا، **فجاء النبي** ﷺ وأخذ المعول وضرب الصخرة بالفأس ضربة طار منها الشرار وقطع منها الثلث، **وقال:** "الله أكبر فتحت قيصر، والله إني لأرى القصور الحمر"، ثم ضرب الثانية فقطع منها الثلث الثاني، **وقال:** "الله أكبر فتحت كسرى، والله إني لأرى القصور البيض"، ثم ضرب الثالثة فقطع الثلث الباقي، **وقال:** "الله أكبر فتحت اليمن، والله إني لأرى باب صنعاء" (1)، **قال النبي** ﷺ هذا الكلام لأصحابه وهم في بردٍ شديد وجوع شديد وخوفٍ شديد، فصدّق المؤمنون بهذا الوعد، وكذب به المنافقون وقالوا: لا يستطيع أحدنا أن يخرج ليول من شدة الخوف ومحمد يعد أصحابه بقصور

(1) الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر: (ص: 170).



كسرى وقيصر واليمن، والغرور: الوعد الذي لا حقيقة له.

**قال الله:** ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣)، الطائفة تقع على الواحد فما فوقه (1)، فالطائفة الأولى من المنافقين ثبّطت الناس، بأن وعد الله بالنصر لن يتحقق، والطائفة الثانية طلبت من أهل المدينة أن يرجعوا من المعسكر إلى ديارهم، وعبروا عن المدينة بـيثرب؛ أنفًا من اسمها الجديد في الإسلام، لكن القوم لم يعترفوا به وظلّوا يتخاطبون بالاسم القومي للمدينة، معللين هذا الطلب بقولهم: لا مكان لإقامتكم واستمراركم في الحراسة في جبل سلع، فتركوا هذا المكان، وارجعوا إلى بيوتكم حفاظًا على رقابكم، فربما يأتي الأحزاب فيقتلونكم، وهو تحريض واضح لترك الجهاد والمرابطة مع رسول الله ﷺ في الخندق، والطائفة الثالثة كانت أقل جرأة ممن قبلها، فكانوا يأتون إلى النبي ﷺ يطلبون منه الإذن للهروب والعودة إلى بيوتهم بأعذار باطلة، منها: أن بيوتهم مكشوفة للعدو وغير مُحصنة، فنفى الله صحة هذا العذر وأبطله، وأثبت أن بيوتهم مُحصنة ولا تحتاج إلى من يحرسها، وأن الهدف من استئذانهم هو إرادة الهروب من الرباط والحراسة معك، بأعذار كاذبة.

**ثم قال:** ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَرُوا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا سِيْرًا﴾ (١٤)، أي: ولو دخلت عليهم الأحزاب الموجودون خارج المدينة من الكفار من أطراف ونواحي المدينة، وتمكنوا من الوصول إلى بيوت هؤلاء

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/306).



المنافقين داخل المدينة، ثم طُلب منهم الكفر والشرك والردة والعودة عن الإسلام وإعلان الكفر؛ لاستجابوا لذلك دون تردد، وما تأخروا عن تنفيذ هذا الطلب إلا لحظات قليلة، وفي هذا إشارة إلى إبطال السبب الذي يبحثون عنه للحفاظ على حياتهم، وأن الهروب من الجهاد والكفر بالله خوفاً من القتل لن يزيد في الأعمار ولن يجعلهم مُخلدين في الدنيا، فأجلهم مهما طال فهو يسير بالنسبة للآخرة، وفيه إشارة إلى طبيعة الكافر في المحافظة والحرص على الحياة الدنيا، **كما قال: ﴿وَلَنَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** [البقرة: 96]، ولذلك يهربون من الجهاد خوفاً من الموت ويتركون الإسلام حرصاً على الحياة.

**ثم قال الله تعالى عنهم أي: المنافقين: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾** (١٥)، وقد سبق للمنافقين أن هربوا من المعركة في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة، ثم عاهد الله بعض من رجع من المنافقين أن لا يهربوا من معركة قادمة، فجاءت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة، فحصل منهم الهروب والتلُّكُّو عن المراقبة والحراسة مع الرسول ﷺ، فذكرهم الله بذلك وأنهم سيُسألون عن عهدهم في الآخرة، لماذا لم يوفوا به، وسوف يُحاسَبون على ذلك.

**ثم قال: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** (١٦)، **قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: إن الهروب من الجهاد والمراقبة في سبيل الله خشية الموت؛ لا يزيد في أجلكم، فالأجل مكتوب والموت إذا نزل لا**



مناص منه، ففراركم هذا لن يزيد في آجالكم ولن يمنع انتهاء حياتكم، وفي حالة فراركم وكان أجلكم لم يَحْزَنْ فاستمتعكم بالحياة سيكون زمناً قليلاً، لأن الدنيا كلها متاع قليل بالنسبة للآخرة.

**ثم قال الله:** ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧)، **وقل أيضاً:** إن الخلق كلهم يعيشون تحت سلطة الله وقهره، ولا يستطيع أحد أن يخرج من مُلك الله ويفر من بطشه، فالأرض أرضه والسماء سماؤه، والكون كله له، فأين المهرب؟! ومن يمنعكم من الله إن أراد بكم السوء بالهزيمة أو بالقتل أو بالتشريد أو بنحوها من الأسباب، أو أراد بكم الرحمة بالسلامة من الشرور والقتل ونحوها، فالأمر كله بيده، فهو الذي بيده النفع وبيده الضرر، وأينما ذهبوا فلن يجدوا لهم ولياً غير الله يتولى أمرهم، ولا نصيراً غير الله يمنع العقاب عنهم.

**ثم قال الله تعالى:** ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨)، **هم:** قد للتحقيق، والمعوقون، المنافقون المُشَبِّطون والمخذلون للناس عن الجهاد والرباط في سبيل الله، وقد سبق شيء من أفعالهم، والمعنى أن الله قد علم حالهم وسوف يجازيهم على فعلهم، وعلم أيضاً قول من دعا غيره إلى اللحاق به وترك نُصرة رسول الله ﷺ، ثم وصف حال هؤلاء المنافقين بأنهم ليس من مشاريعهم الخروج إلى الجهاد ولا الرباط في سبيل الله، ولا ممارسة الحرب والقتال، ولا الاستعداد لها، فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، وقلة منهم من يخرج رياءً ويبقون في هلع وخوف؛ يبحثون عن أي عذر



للهرب، بسبب جنبنهم ونفاقهم وسخافة عقولهم وقلة تفكيرهم.

**وقوله:** ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾، ثم ذكر وصفاً آخر لهم، وهو: أنهم بخيلون في النفقة في سبيل الله، فلا يشاركون في النفقة في سبيل الله، وهم أيضاً جنباء لا يخرجون للقتال، والبخل والجبن خلقان سيئان يتصف بهما المنافقون، **وقد كان النبي ﷺ يستعيز بالله منهما، كما في الحديث: "اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل" (1)**، ثم ذكر من أوصافهم أنهم إذا قامت الحرب وجاء الغزاة وأصاب الناس الخوف، وجدتهم في حالة ترقب ونظرٍ بحثاً عن مخرج من هذا الخوف، وحالتهم سيئة من الرعب والخوف الذي أصابهم، فأبصارهم مضطربة وكثيرة الدوران كحال الذي يعاني سكرات الموت، فإذا انتهت المعركة وذهب الخوف وأمن الناس، آذوكم بألسنتهم الحادة بالكلام السيئ والألفاظ القبيحة، ورفعوا أصواتهم بالملامة لكم، لماذا لم تأخذوا بمشورتنا وتسمعوا كلامنا، ونحوها من العبارات، وإن كان هناك غنائم ألحوا عليكم بأحقيتهم فيها، وهم في الحقيقة بخلاء على المال والغنيمة، فهذا حالهم في وقت الحرب بلعوا ألسنتهم من شدة الخوف، وفي وقت الأمن يُكثرون من

(1) صحيح البخاري: (36 / 4) برقم: (2893).



الكلام السيء ويؤذون المؤمنين بألفاظهم القبيحة، فأفعالهم هذه دليل على عدم إيمانهم بالله حقيقة، وما عملوا من أعمال صالحة في الظاهر، فلا أجر لهم ولا ثواب؛ بل يبطل الله ثوابهم فيها؛ لأن العمل الصالح لا يقبل إلا بالإيمان الصادق، والضمير في ذلك يعود إلى إحباط أعمالهم الظاهرة، فهو يسير على الله أن يحوله إلى هباء منثور، عقوبة لهم بسبب كفرهم ونفاقهم.

**ثم قال:** ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٢٠)</sup>، بعد أن انتهت الغزوة وذهب الأحزاب ورجع المؤمنون فرحين مسرورين إلى أهلهم، لم يقتنع المنافقون أن الأحزاب قد ذهبوا، بل كانوا يظنون أنهم سيرجعون مرة ثانية ويدخلون المدينة، ولو جاء الأحزاب مرة ثانية وحاصروا المدينة أو دخلوها لتمنى المنافقون أنهم ليسوا من أهلها وأنهم كانوا يسكنون في البادية مع الأعراب بعيدين عن المدينة، حتى لا يشاركوا في القتال ولا يصيبهم أذى، ويظنون يسألون عن أخباركم مع عدوكم ويتظنون الهزيمة لكم، ولو كانوا مشاركين لكم في الغزو فليس عندهم من الإيمان ما يدفعهم إلى القتال، فهم يخافون الموت، فلن تستفيدوا منهم إلا التشييط والتشكيك، وقد تأتي الهزيمة لكم بسببهم، كما قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47].



## فوائد وهدايات من الآيات :

- 1- استحباب تذكّر نعم الله على العبد بين الحين والآخر، ليدفعه ذلك إلى شكرها.
- 2- بيان شدة الابتلاء الذي وقع للمؤمنين في غزوة الخندق.
- 3- بيان حال المنافقين ومواقفهم المشبّطة للمؤمنين في تلك الغزوة.
- 4- طبيعة الكافرين والمنافقين في حرصهم على الحياة الدنيا وجهلهم بأقدار الله.
- 5- بيان حقارة الدنيا وأنها يسيرة إلى الدار الآخرة.
- 6- خطورة المنافقين على المجتمع المسلم، وخاصة وقت الحروب والفتن.
- 7- من صفات المنافقين المطردة طعنهم في أهل العلم والإيمان قديماً وحديثاً.
- 8- بطلان أجور أعمالهم الصالحة الظاهرة في الدنيا لعدم صدق إيمانهم.



## تفسير المقطع الثالث من سورة الأحزاب

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ  
 كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ  
 وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ﴾ (٢٢) قُلِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ  
 مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۚ﴾ (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ  
 وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ۚ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۚ﴾ (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۚ﴾ (٢٥)  
 وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۖ فَرِيقًا  
 تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۚ﴾ (٢٦) وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْغُوهَا  
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۚ﴾ (٢٧).

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ  
 وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢٢)، هذه الآية جاءت بعد قصة سورة الأحزاب،  
 وبيان حال المؤمنين فيها وحال المنافقين المتخلفين عنها، وقد كان الرسول  
 ﷺ وهو أشرف الخلق وأفضلهم، مرابطاً في الخندق ومشاركاً لأصحابه في  
 حفره، ولم يترك مكانه ولم يرجع إلى بيته وتعرض للخوف والبرد والأذى،

والأسوة هي القدوة حسنة أو سيئة، وقيدت هنا بحسنة، والسياق هنا سياق قتال وجهاد، فكيف يليق بأصحابه أن يتركوا المراقبة والجهاد ويرجعوا إلى ديارهم، يتركوا التأسي والبقاء مع رسول الله ﷺ؟!، فظاهر الآية عتاب لمن تخلف بالمدينة عن رسول الله ﷺ (1)، ومعناها على العموم، وهو مشروعية التأسي بكل أحواله وأفعاله ﷺ، إلا ما كان خاصاً به مثل أن يتزوج أكثر من أربع، ونحوها من الخصائص.

**وقوله:** ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣١)، فذكر هنا ثلاثة عوامل يستعين بها المسلم على حسن الاقتداء بالنبي ﷺ:

**الأول:** عظم الرجاء بالله، وهو لا يأتي إلا بعد الإيمان بالله ﷺ، فمن استيقن إيمانه كان راجياً ما عند ربه من الثواب والأجر.

**والثاني:** رجاء الفوز والنجاة يوم القيامة.

**والثالث:** ذكر الله كثيراً بلسانه وقلبه، فمن تحققت فيه هذه الصفات الثلاث؛ كان أكثر تأسيًا واقتداء برسول الله ﷺ، لأن النفوس المؤمنة الزاكية تُحب الله وتحب رسول الله ﷺ، وإذا أحببت رسوله اتبعته، وسارت وفق هديه وشرعه، وإذا فسدت النفوس وقست القلوب وغفلت الألسن عن ذكر الله؛ حصلت القطيعة بينها وبين الاتباع والتأسي لرسول الله ﷺ.

**ثم قال الله تعالى:** ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18 / 213).



وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾، هذا بيان لحال المؤمنين الصادقين لما رأوا الأحزاب يحاصرون المدينة، قالوا في أنفسهم: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ وصدق الله فيما أخبرنا به من سنة الابتلاء في القرآن الكريم، مثل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]، أو أخبروا به رسوله في الحديث الصحيح، مثل حديث خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد برده له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟! فقال: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون" (1)، وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيماناً بالله، وانقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله ﷺ، وهذه الآية دليل على أن الإيمان يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأن المؤمن إذا استسلم لأمر الله وشرعه ورضي بأقدار الله وأخذ بالأسباب لدفعها؛ ثبته الله وجاءه النصر والفرج القريب من الله.

ثم قال سبحانه: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ

(1) صحيح البخاري: (201/4) برقم: (3612).



نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾، من تبعية، أي: إن بعض الرجال من المؤمنين عاهدوا الله وصدقوا في عهدهم مع الله، والرجولة وصف مدح في القرآن الكريم، لا يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا لِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَّصِفَ بِهَا، كما قال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ﴾ [النور: 37]، وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ [التوبة: 108]، وهذه الآية نزلت في بعض الصحابة الذين تخلّفوا عن غزوة أحد لسبب ما، كما في حديث أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: "يا رسول الله غبت عن أول قتالٍ قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع"، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: "اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: "يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجدر ربحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾، نزلت فيه وفي أشباهه" (1).

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾، أي: فمن هؤلاء الرجال من قضى نحبه، وفي معنى نحبه عدة أقوال (2): عهده، أو نذره، أو

(1) صحيح البخاري: (19/4) برقم: (2805).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/457).



أجله فمات، وهي معاني متقاربة ولا تعارض بينها، وأصل النحب بذل الجهد، ومنه النحيب، وهو رفع الصوت بالبكاء<sup>(1)</sup>، والمعنى أنهم بذلوا وسعهم للوفاء بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت، فمنهم من قاتل حتى قتل، فوفى بنذره ووعد، ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد، وما بدلوا نيتهم فيما قالوا من عهدٍ أو وعدٍ أو نذرٍ بل ماتوا وقد استكملوا ما وعد به، كمثّل هذا الذي حصل لأنس بن النضر، وفي هذه الآية نعي لحال المنافقين الذين بدلوا وغيروا وأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وقالوا أقوالاً ثم تخلّفوا عنها، ووعدوا ثم كذبوا، وحلفوا ثم أخلفوا، وفي الآية إشارة إلى أهمية وضرورة الثبات على المبدأ، وخطورة تبديل المبادئ والقيم تبعاً للأهواء والمصالح الشخصية، فالأصل في المسلم أن يكون صادقاً في تدينه، وأن يستمر المسلم عليه، وأن يدفع من أجل المحافظة عليه الغالي والنفيس، ويصبر على الأذى حتى لو طُرد أو سُجن ولا يبيعه بعرض من الدنيا، كحال بعض المنتسبين اليوم إلى الإسلام ينتقل بين الملل والأهواء، ويدور مع المذاهب والأفكار بناءً على المصالح والأهواء، ويغيرها بناءً على السياسات والأحوال، والعياذ بالله.

**وقوله:** ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، ذكرت تعقيباً على الموقف السليم الذي كان عليه المؤمنون الصادقون في الدنيا، فهو موقف يُشكر لهم، واللام للتعليل، والباء سببية، أي: ليجزيهم بسبب صدقهم، وأطلق الجزاء ولم يُحدده ليشمل الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يجازيهم بالحياة

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (222 / 1).



السعيدة وقبول الناس لهم وحسن سمعتهم، ونحوها من ثمار الصدق، وفي الآخرة الأجر العظيم وجنات عرضها السموات والأرض أعدّها الله لعباده الصادقين في إيمانهم وأقوالهم.

**وقوله:** ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٤)،

هذا بيان لجزاء المنافقين الذين تركوا الصدق في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم في الدنيا، وأطلق العذاب ليشمل كل أشكال العذاب في الدنيا والآخرة، وجعل عذابه لهم تحت مشيئته، **أي:** إن استمروا على نفاقهم عذبهم أو يوفقهم بالتوبة؛ فيرفع عنهم العذاب بها، وهذا الحكم ليس خاصاً بالمنافق بل بكل كافر ومشرِكٍ وعاصٍ إذا تاب، تاب الله عليه ورفع عنه العذاب، وعَلَّ ذلك بأن الله غفور لمن أذنب وتاب، ورحيم بالخلق حيث هيا لهم أسباب العودة إليه، فلا يأس ولا يقنط من وقع في النفاق والشرك والمعصية، فرحمة الله واسعة، فمن أقبل على الله بالتوبة الصادقة؛ قبله وغفر له ورحمه.

**ثم قال الله سبحانه:** ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمَنَّا لُؤَاخِيراً وَكَفَى اللَّهُ

الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٢٥)، هذا بيان لنهاية معركة غزوة الأحزاب، فبعد خمسين ليلة من الحصار والخوف والتعب للمؤمنين، جاء الفرج من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لهم، فأرسل على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة زلزلت أقدامهم وقذفت الرعب في قلوبهم، فولوا هاربين منهزمين وعادوا خائبين خاسرين مصحوبين بحقدهم وقهرهم وشدة غضبهم لفشل خطتهم وعدم تحقق هدفهم، والخير بالنسبة لهم هو النصر على المسلمين،



وهو شر بالنسبة للمسلمين، فلم ينالوا شيئاً مما أرادوه للمسلمين من الشر، وكفى الله المؤمنين القتال الكامل والمواجهة العامة مع عشرة آلاف مقاتل من الكفار، فقد كفاهم الله بالريح والملائكة، وهذا لا ينفي وقوع مناوشات بينهم أحياناً، وقُتل فيها بعض الصحابة وأُصيب البعض في أطراف الخندق، وعَلَّ الله ذلك بقوته وعزته فما حصل للمؤمنين من نصر هو أثر من آثارها، فالقوي العزيز لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

**ثم قال:** ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (٦٦)، ثم بيّن ما فعله الله باليهود من أهل المدينة الذي نقضوا العهد وشاركوا الأحزاب في حصار المدينة، بعد رده للغزاة من الأحزاب القادمين من خارج المدينة من قريش وغطفان وغيرها من القبائل دون أن يُحققوا أهدافهم، والمقصود بهم هنا يهود بني قريظة<sup>(1)</sup>، فقد نقضوا العهد وتواطؤوا مع الأحزاب على حصار المدينة، وناصروهم على المؤمنين، **والصياصي هي** الحصون المرتفعة، وكان عادات اليهود أن يبنوا بيوتهم في الأماكن المرتفعة، ليحموا أنفسهم بسبب جبنهم فأخرجهم الله من حصونهم، بعد أن قذف الله الرعب في قلوبهم، وآخر الله ذكر الرعب في اللفظ للإشارة إلى أنه استمر معهم حتى بعد النزول، فظلوا يرتجفون من الخوف إلى أن سلّموا أنفسهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وقد كان أُصيب بأكحله في الخندق فُقطعت إبهام رجله وانتقضت، فأخذه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلى خيمة في

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 397).



المسجد وكان يعودُهُ، فكان سعد يقول: اللهم لا تُمتني حتى تُريني في قُرَيْظَةَ ما تقر به عيني؛ لأنهم كانوا حُلَفَاءَ وكانوا قد خانوا الله ورسول الله ﷺ، فحاصرهم النبي ﷺ قرابة خمسٍ وعشرين ليلة، ثم استسلموا ورضوا بِحُكْمِ سعد بن معاذ فيهم، فجاء سعد بن معاذ وهو مريض من قدمه التي أصابها سهم في الخندق راكباً على حمار إلى المكان الذي كان يجلس فيه النبي ﷺ، فقال للأَنْصَار: "قوموا إلى سيدكم فَأَنْزِلُوهُ"، وقال النبي ﷺ: "أَحْكَمُ بِهِمْ بما شئت"، فقال: وحُكْمِي سار عليهم أَجمعين؟ قال: "نعم"، قال: وعليكم؟ قال: "نعم"، فقام فحمد الله ثم أَثنى عليه، ثم قال: فَإِنِّي أَحْكَمُ فِيهِمْ أَن تَقْتُلَ مَقَاتِلَتَهُمْ، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي ﷺ: "لقد حكمت فيهم بِحُكْمِ الله ورسوله" (1)، ثم أخرجوا إلى أَحْجَارِ الزَيْتِ التي بالسوق، فضربت أعناقهم، وكانوا قرابة سبعمائة رجل، ثم انتقض جُرْحُ سعد فمات بعد ذلك، وقد قرت عينه بما فُعلَ بِهِمْ.

**ثم قال:** ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢٧)، فصارت وآلت أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم للمؤمنين، وبشّر الله المؤمنين بأنهم سيفتحون أرضاً غير أراضي اليهود لم يسبق لهم فتحها من قبل، قيل (2): هي مكة، أو خيبر، أو فارس والروم، أو اليمن، وهذه الأقوال

(1) صحيح ابن حبان: (498 / 15) برقم: (7028)، ورواه البخاري: (35 / 5) برقم: (3804)، مختصراً.

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (459 / 3).



كلها ذكرت على سبيل المثال، والصحيح أن كل أرضٍ فُتحت بعد غزوة الأحزاب فهي داخلة في وعد الله هذا؛ لعموم اللفظ الذي يشمل كل أرض لم تكن أقدام المؤمنين آنذاك قد وصلت إليها، وعلل ذلك بإحاطة قدرته بكل شيء، فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- مشروعية التآسي بكل أحوال النبي ﷺ وأفعاله، إلا ما كان خاصاً به.
- 2- بيان أن الابتلاء والاختبار سنة في حق المؤمنين يعقبها النصر والتمكين لهم.
- 3- أن الثقة بالله وبنصره ووعدته ووعيده والانقياد لأمره من أهم صفات المؤمنين الصادقين.
- 4- بيان تزكية الله لأصحاب رسوله ﷺ وأنهم صدقوا في إيمانهم وجهادهم، وهي شهادة وتزكية لهم بأنهم سيموتون على الإيمان.
- 5- أن نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَأْتِي للمؤمنين من حيث لا يحتسبون.
- 6- خطورة نقض الوعود وسوء عاقبة من فعل ذلك في الدنيا والآخرة.



## تفسير المقطع الرابع من سورة الأنعام

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتَن تَرُدُّكَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ أُمْتَعَكُنَّ وَأُسْرِحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ وَلَئِن كُنْتَن تَرُدُّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِن اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَأَذْكُرْتُ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾

قوله الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتَن تَرُدُّكَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ أُمْتَعَكُنَّ وَأُسْرِحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ وَلَئِن كُنْتَن تَرُدُّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾، نزلت هذه الآيات في أزواج رسول الله ﷺ حين طلبن منه زيادة في النفقة، وألححن عليه بذلك حتى غضب منهن وحلف ألا يقربهن شهراً، فاعتزلهن في غرفة مُرتفعة فوق إحدى

حجراته، ومكث فيها تسعاً وعشرين ليلة ثم نزل، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنك دخلت من تسع وعشرين أعدهن، فقال: "إن الشهر تسعٌ وعشرون"، ثم قال: "يا عائشة، إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك"، ثم قرأ عليها هذه الآيات <sup>(1)</sup>، ثم خير بعد ذلك باقي زوجاته بين أن يخترن الدنيا وزينتها، فيُطلقهن رسول الله ﷺ ثم يعطيهن المتعة المفروضة للمطلقة، وهي نفقة العدة وما يتعلق بها، وهو أمرٌ يُقدَّر بحسب حال الإنسان من حيث غناه وفقره، **كما قال:**

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: 236]، **والتسريح:** هو فك ميثاق الزواج بالطلاق، والسراح الجميل: هو الفراق الذي ليس فيه غِلظة في القول ولا بذاءة في اللسان، ولا حقد في القلب، ونحوها من الأشياء التي تحصل غالباً عند الخصام والفراق، فالنبي ﷺ لا يصدر منه إليهن إلا الشيء الطيب، أو أن يخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ويرضين بما أعطاهن الرسول ﷺ من النفقة، ويصبرن على الجوع والفاقة ويبقين في عصمته، ومن اختارت الله ورسوله والدار الآخرة على الدنيا وزينتها فهذا يدل على حسن اختيارها وإخلاصها، والله قد أعد لها الأجر العظيم يوم القيامة، ونكّر الأجر حتى يعم كل ما يتصوره الإنسان من أجرٍ عظيم في الآخرة، وقد وصف الله العظيم أجره بالعظيم، فلا يمكن أن تتخيل عظمة هذا الأجر، **وقد اختارت جميع زوجاته:** الله ورسوله والدار الآخرة، وبقين في عصمته على ما معه من النفقة، وحصل لهن

(1) صحيح مسلم: (2/ 1113) برقم: (1475).



بذلك الأجر العظيم في الدنيا والآخرة، ولو اختارت إحداهن الطلاق فمعنى ذلك أنها خرجت من الأحكام المتعلقة بزوجاته في الدنيا والآخرة، فلم تعد أمًّا للمؤمنين، ولا زوجةً له في الآخرة، ولما وفقهن الله لهذا الاختيار فقد زكاهن الله بذلك، والآية بيان لطبيعة الحياة الأسرية وأنها لا تسلم من المنغصات والمشكلات الزوجية حتى في بيت النبوة، وهو أعظم البيوت وأشرفها، وفيها بيان لحالة الفقر والفاقة التي كان المسلمون يعيشون عليها، وقد ذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه كان لا يُوقد في بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نار الشهر والشهرين، وإنما كان طعامه الماء والتمر، وكانوا لا يشبعون من خبز الشعير <sup>(1)</sup>، ولو أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيا لجاءته، ولكنه اختار أن يكون عبداً رسولاً، وقصة زُهد في الحياة الدنيا واضحة في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاءه المال بعد ذلك من الغنائم فكان يُنفقه دون تردد.

**ثم قال:** ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ <sup>(٣٠)</sup>، هذا الخطاب موجه إلى زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخاطبهن بإضافتهن إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكريماً لهن، وحذرهن من العصيان البين كالنشوز وسوء الخلق ونحوها <sup>(2)</sup>، فإذا فعلن ذلك عُدبن في الآخرة ضعفي ما يعذب به غيرهن من النساء؛ لأنهن زوجات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهن قُدوة لغيرهن ولقربهن من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالوحي بزواجه ونواحيه ينزل عليه في بيوتهن، وهو خطاب افتراضي وليس بالضرورة أن يحصل منهن بعد اختيارهن

(1) ينظر: صحيح البخاري: (153/3) برقم: (2567) بنحوه.

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18/228).



لله ورسوله والدار الآخرة، ولم يُؤثر في السيرة ولا السنة تكرار النشوز والعصيان من إحداهن بعد ذلك، ومضاعفة العذاب على الله يسير؛ لإحاطة علمه بجزئيات الأشياء، فالمضاعفة عليه يسيرة، وفي الآية إشارة إلى أن الحجة على من علم الحق أشد منها على غيره، والمعصية من العالم أقبح.

**ثم قال:** ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١)، **القنوت:** مداومة الطاعة والامتنال وعدم الانقطاع عنها، وذكر العمل الصالح بعد القنوت من باب ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على أهميته، وكما ضاعف لهن العقوبة على المخالفة؛ ضاعف لهن الأجر على الطاعة، وهذا من عدل الله وفضله، فقد رفع منزلتهن وأظهر فضيلتهن على سائر النساء في الدنيا، وأعد لهن في الآخرة الجنة<sup>(1)</sup>، وأكرمهن بإنزالهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق.

**ثم قال سبحانه:** ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنٌ كَأَحدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣٢)، بين في هذا الآية سبب مضاعفة العقوبة والأجر لزوجات النبي ﷺ، فإنهن لسن كسائر النساء في الفضل والشرف، فقد اختصهن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ببعض الخصائص وفضلهن على غيرهن بكونهن ملتصقات برسول الله ﷺ ويعشن معه، وقيد هذا الشرف العظيم بملازمتهم للتقوى، لا لمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ، والتقوى، هي: امتثال ما أمر الله واجتناب ما نهى الله عنه، فجعل التقوى هنا مانعاً وحاجزاً عن

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1544).



فعل ما لا يجوز فعله، ثم ذكر مجموعة من التوجيهات التي لا تختص بزوجات النبي ﷺ بل تشمل عموم النساء، وإنما كان الخطاب لزوجات النبي ﷺ من باب التشريف لهن بالذكر، وإذا طلب منهن ذلك، فغيرهن من باب أولى، والخضوع بالقول: هو لين المرأة وترقيقها لصوتها بكلام يحرك مشاعر الرجل فيطمع فيها من في قلبه مرض شهوة الزنا والفجور من الرجال، لأن الله خلق في الرجال والنساء خاصية الانجذاب إلى بعضهما، فكل منهما يشتهي الآخر، فأمر المرأة أن تبعد عن الإثارة للرجل بكل وسيلة كالصوت الفاتن أو إبداء زينتها وجمالها أو رائحتها، ونحو ذلك من المغريات التي تهيج الشهوة لدى الرجل؛ فيندفع إلى الحرام ويقع فيما لا يجوز له، وطلب منهن القول المعروف وهو الصحيح العفيف الذي ليس فيه خضوع من ناحية اللفظ ولا يحتوي على ألفاظ تحرك المشاعر وتخدش الحياء وتفتن الرجل، وهذا يدل على أن صوت المرأة من حيث الإطلاق ليس بعورة، وأنه عورة في حالات محددة فقط.

**وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾**، ثم أمرهن بالقرار في البيوت ونهاهن عن كثرة الخروج متطيبات أو متبرجات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ لأن البيت هو مملكة المرأة الخاصة ومحل عنايتها بزوجها وأولادها، ففيه السكن والراحة للأسرة، وهذه الثمار قل أن تتوفر اليوم مع كثرة خروج النساء من البيوت للعمل خارج المنزل، فتعود آخر النهار متعبة منهكة، ويعود الرجل أيضاً متعباً منهكاً، يلتقيان في البيت يبحثان عن السعادة والراحة والاطمئنان المفقودات، فلا يجدان ذلك بسهولة؛



فتبدأ المشكلات العائلية بينهما وتتفاقم، وتعيش الأسرة في قلق مستمر، فضلاً عن فساد الأولاد لإهمال العناية بهم وتربيتهم، وهذا هو الهدف من المشروع العالمي لتحرير المرأة وإخراجها من بيتها؛ بحثاً عن المتعة المحرمة، وتسهيلاً للفواحش، فلم تغتنِ الأسر بتشغيل النساء، وإنما تعطلّ الرجال، وأبعدت المرأة عن تربية الأولاد والعناية بالزوج، وحصلت مشاكل أسرية كثيرة!، وهذا لا يعني أنه يحرم على المرأة أن تخرج أو تعمل إذا كانت محتاجة بضوابط شرعية، لكننا نحن نتحدث هنا عن الإطار العام للأسرة المسلمة، وهو أن الرجل هو المسؤول عن العمل والنفقة، وأن المرأة هي المسؤولة عن البيت والتربية من أجل أن تكتمل الوظائف وتحصل السعادة والاستقرار بين الزوجين.

**وكانت الجاهلية الأولى** تنتهك حقوق المرأة وتمتعتها بكشف عورتها، فلما جاء الإسلام عزز مكانة المرأة وجعلها جوهرةً مصونة لا ينظر إليها إلا من يحل له النظر، وطلب منها أن تحتجب عن الأجانب، واليوم جاءت جاهلية القرن الحادي والعشرين، فكانت أكثر سوءاً من جاهلية القرون الأولى، فصار التبرج أسوأ من التبرج السابق، وصار موضة تتنافس عليه الشركات وتدعو له القنوات وتنفق من أجل نشره المليارات!!.

**وقوله:** ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ثم أمرهن بالصلاة والزكاة لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية، ثم عَمَّ فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما شرع، من أجل بناء الإيمان وتقويته في النفوس، والشيطان إنما يتسلط على ضعفاء الإيمان؛ فيغويهم ويوقعهم في الحرام، وهذا أمر مهم



جداً في التربية، فالتحذير والتنفير من الشر والباطل وحده لا يكفي، بل لا بد من تأسيس وبناء الإيمان في النفوس بالأعمال الصالحة حتى تقف أمام المغريات.

**وقوله:** ﴿لِنَمْلِكُ لَكَ مِنَ الْاَشْيَاءِ مَا نَحِبُّكَ وَيُؤْتَكَ اللَّهُ رَحْمَةً وَكَذَلِكَ نُنْزِلُ الْكِتَابَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٣)،

**أي:** يريد الله لكم بهذه التشريعات والتوجيهات أن يذهب عنكم بامثالها والعمل بها الإثم والذنب المدنسين للأعراض الحاصلين بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، حتى تكونوا طاهرين مطهرين، وأهل البيت المقصود بهم: آل الذين حرموا الصدقة، وزوجاته يدخلن فيهم دخولاً أولياً؛ لأن سياق الآية ونزولها فيهن<sup>(1)</sup>، فلم يرد الله بهذه التشريعات أن يجعل عليكم حرجاً ولا مشقة، بل شرعها لكم لتزكى بها نفوسكم، وتطهر بها أخلاقكم، وتحسن بها أعمالكم، ويعظم بها أجركم.

**وقوله:** ﴿وَأَذْكُرُكَ مَا تَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤)، وهذا فضل عظيم خُصت به زوجات رسول الله ﷺ،

أن آيات القرآن الكريم تتلى في بيوتهن حين تنزل على رسول الله ﷺ، وكذلك يستمعن إلى الحكمة وهي كلام رسول الله ﷺ، وهو وحي من الله إليه، فأمرهن أن يشغلن أوقاتهن بقراءة القرآن وحفظه وتلاوته ومدارسة السنة النبوية وحفظها، واللطف والخبير من أسماء الله الحسنى، فهو عالم بدقائق الأمور، وخبير بجزئيات وتفصيل الأشياء، وفي أحكامه وتشريعاته من اللطف بالخلق ما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 415).



## فوائد وهدايات من هذه الآيات :

- 1- أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** اختار لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم الزوجات الطيبات، حيث ظهر طيبهن باختيارهن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدار الآخرة.
- 2- أن صوت المرأة لا يكون عورة إلا بالرقعة والخضوع أو يحتوي على ما يخدش الحياء.
- 3- أن الأصل أن تبقى المرأة في البيت لكي تستقر الأسرة ويسعد الزوج وتربى الناشئة التربية الصحيحة.
- 4- أن ما يعانيه العالم اليوم من فساد المجتمعات وانحرافها كان سببه إفساد المرأة وإخراجها من بيتها.
- 5- فضل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويشمل أهل بيته وأقاربه وأزواجه.



## تفسير المقطع الخامس من سورة الأحزاب

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ٣٦ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ٣٧ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ٣٨ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ٣٩ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٤٠﴾

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾



وَالصَّامِينَ وَالصَّامِتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾، جاء في سبب نزول هذه الآية: أن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسول الله، ما لي أسمع في كتاب الله تعالى ذكر الرجال ولا أسمع ذكر النساء؟ فأنزل الله تعالى هذه الآيات<sup>(1)</sup>، ليُبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الرجال والنساء على حدٍ سواء في أحكام الشرع، إلا ما اختصته النساء واختصه الرجال باستثناءات محددة، وهنا فَرَّقَ بين الإسلام والإيمان، فالإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة، والإسلام أدنى مرتبة من الإيمان كما قال الله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]، يعني: ما زال الإيمان في طور النمو في دخوله إلى قلوبكم وثباته فيها، وأركان الإسلام تتعلق بأعمال الجوارح الظاهرة كالصلاة والزكاة والصيام والحج والشهادتين وهما نطق باللسان، وأركان الإيمان الستة تتعلق بأعمال القلب الباطنة، وهي التصديق القلبي بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والقنوت هو دوام الطاعة لله سبحانه، والصدق هو الإخبار عن الشيء مطابقاً للواقع، ويشمل صدق اللسان وصدق القلب وصدق العمل، والصبر هو حبس النفس عن كل ما يُسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويشمل الصبر على طاعة الله بامثالها، والصبر عن المعاصي باجتناها، والصبر على أقدار الله وابتلاءاته بعدم السخط منها، والمتصدق هو الذي يبذل ماله للمحتاجين ابتغاء وجه الله، ويشمل الصدقة الواجبة كالزكاة،

(1) السنن الكبرى للنسائي: (10/219) برقم: (11340)، وأخرجه أحمد: (44/199) برقم:

(26575) بنحوه، وإسناده صحيح.



والصدقة النافلة، والصيام هو الامتناع عن كل المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بقصد التقرب إلى الله، ويشمل صيام الفرض وصيام النافلة وحفظ الفرج المقصود به استخدامه في الحرام، ويشمل الزنا واللواط والسحاق والعادة السرية، وكشفه لمن لا يجوز له رؤيته، وختم هذه الأعمال الصالحة بذكر الله كثيراً من الرجال والنساء على حد سواء، فعبادة الذكر عبادة سهلة وخفيفة، يستطيع العبد فعلها في كل أحواله، فمن حافظ على أذكار اليوم والليلة المسنونة فقد أصبح من الذاكرين الله كثيراً، ثم بين أن من اتصف بهذه الصفات وإن حصل منه ذنب فالله قد أعد له المغفرة سلفاً، وأعد له أجراً عظيماً في الآخرة جزاء له، وهو الجنة بما فيها من نعيم مُقيم.

**ثم قال الله تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، **الواو** استثنائية **أي:** ولا يصح لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله بحكم أن يكون لهم الاختيار في الفعل أو الترك، وإنما يلزمهم الطاعة والامتثال، **وجاء لفظ:** مؤمن ومؤمنة، نكرة في سياق النفي ليفيد العموم لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وقد **ورد في سبب نزول هذه الآية** أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه لفتاه زيد بن حارثة، فوقع في نفسها شيء من الرفض، لأنه مولى، فقال لها النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه: "بل انكحيه"، قالت: أوامر في نفسي؟! قال: "نعم"، فأنزل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الآية <sup>(1)</sup>، فوافقت وقبلت به، فزوجها النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه زيد بن حارثة مولاه، ومن ثمار خضوع زينب لأمر الله أن

(1) ينظر: تفسير الطبري: (20 / 271).



صارت زوجةً للنبي ﷺ وزوجها الله من فوق سبع سموات.

**وقوله:** ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣١)، هذا تهديد ووعيد لمن رفض وخالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فهو متوعد بالضلال عن الحق والهداية، فالإسلام يقوم على كمال الخضوع والاستسلام لأمر الله ورسوله ﷺ.

**ثم قال الله:** ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، يُخبر الله سبحانه وتعالى عن ما قاله رسوله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وهو الذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بالعتق والمحبة، وخيره بين أن يجلس عنده أو أن يذهب مع أبيه عندما جاء يبحث عنه، فاختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ، وذلك القول أن زيداً جاء إلى رسول الله ﷺ يشتكي زينباً ويستأذنه في طلاقها، فنصحه النبي ﷺ ووعظه بأن يمسكها ولا يطلقها، ونصحه بتقوى الله ومراقبته في علاقته بها.

**وقوله:** ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، والذي كان يخفيه النبي ﷺ في نفسه؛ هو أن الله سبحانه وتعالى كان قد أوحى إليه أن زيداً سيتزوج هذه المرأة، وأنها ستبقى معه فترة ثم يطلقها، وأنها ستكون زوجة لك (1)، فخشي النبي ﷺ أن يخرج هذا الكلام إلى الناس فيطعنوا في عرضه؛ ويقولون أمر رجلاً بطلاق امرأته ونكحها حين طلقها، أو يقولون: تزوج الرسول زوجة ابنه، لأنه كان يدعى ابن محمد، وهذه الخشية من باب مراعاة أحوال الناس، والتفكير في كيفية إخراج الأمر بما لا يؤدي إلى فتنة للناس، خاصة في ظل وجود المنافقين في

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1550).



المدينة الذين كانوا يترصدون بالمؤمنين، وهذا من حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يقع في موطن التهمة في دينه أو عرضه، ومن ذلك ما جاء عن صفية بنت حيي، قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقبلني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رآيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسرعاً، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "على رسلكما إنها صفية بنت حيي"، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!!، قال: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً" <sup>(1)</sup>.

**وفي الآية دليل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكتم شيئاً من الوحي، وقد قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** ما أنزلت آية كانت أشد عليه منها، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها <sup>(2)</sup>.

**وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، أي:** فلما قضى زيد منها حاجته، ولم يعد له رغبة فيها؛ طلقها وانتهت عدتها، فزوجه الله برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يبحث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وليها ليعقد له بها ولا شاهدين للعقد، واكتفى بنص الآية ودخل عليها مباشرة، وكانت زينب تفتخر على باقي نسائه بقولها: "زوجني الله بنيه من فوق سبع سموات" <sup>(3)</sup>.

(1) صحيح البخاري: (4/124) برقم: (3281).

(2) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (6/614).

(3) المعجم الكبير للطبراني: (24/44) برقم: (122) والمستدرک للحاكم: (4/106) برقم:



ثم ذكر الحكمة من هذا الحكم فقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، فأبطل الإسلام التبني وما يتعلق به من أحكام، ومنها جواز الزواج بزوجة من تبناه وانتسب إليه وليس من صلبه، بعد طلاقها أو وفاته عنها وانتهاء عدتها.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧)، أي: إذا قدره وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا بد أن يقع ولا يتخلف، والمقصود به هنا زواج زيد من زينب ثم طلاقه لها، ثم زواج الرسول ﷺ منها.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، هذا بيان لجواز ما فعله الرسول ﷺ، ورد على استشكل حصل من بعض المنافقين حوله، فرد الله عليهم بأنه لا حرج عليه فيما أحل الله له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها زيد بن حارثة، وكان يقال له زيد بن محمد، وهذا الأمر ليس خاصاً به بل هو سنة جارية في الرسل من قبله، فلم يكن الله ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨)، المقصود بالأمر هنا الأمر القدري الكوني الذي لا يتخلف، فما قدره وقضاه فهو كائن لا محالة.

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩)، هذا وصف للرسل، فهم مأمورون بإبلاغ الرسالات المنزلة عليهم من الله إلى أممهم، وأنهم يخشون الله ولا يخافون غيره، والخشية



هي خوفٌ مع تعظيم، فهم يُبلغون رسالات الله بما تحتوي عليه من الأحكام الشرعية ولا يخافون في الله لومة لائم، فكفاهم الله أذية الخلق ومنحهم الله الحفظ والعصمة من شرور الناس، **كما قال** ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]، فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هو الناصر والمُعِين والحافظ للرسول، وهو الحافظ لأعمال العباد ومحصياهم، وهو المُحاسب للعباد يوم القيامة على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

**ثم قال:** ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤٠)، **والمقصود بالنبي من السياق** هو زيد بن حارثة، فلم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فلم يعش للنبي صلى الله عليه وسلم ولدٌ ذكرٌ حتى بلغ الحلم (1)، بل ماتوا كلهم صغاراً، وهم ثلاثة من خديجة، وواحد من مارية القبطية، والخطاب مُوجه للمؤمنين في عصره، ومعناه أنه لن يعقبه ذريةٌ من الرجال من بعده، ثم بيّن أن مكانة الرسالة وثمرتها وأثرها عليكم أعظم من مكانة الأبوة وثمرتها، فيلزمكم طاعته أكثر من طاعة الآباء، وطاعته مُقدمة على طاعة الآباء، وهو الذي ختمت به النبوة، فلا نبي بعده، والنبوة أدنى مرتبة من الرسالة، فإذا خُتِمَتْ به النبوة فمن باب أولى أن الرسالة قد خُتِمَتْ به فلا يوجد بعده نبي ولا رسول!، وكل من ادعى النبوة بعده فهو كذاب في دعواه، ثم ذلّل الآية ببيان علم الله المحيط بالخلق، فالله لا يخفى عليه شيء من أمر العباد، ولحكمة أرادها الله

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 428).



**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لم يجعل له ذرية ترثه من الرجال، وأنتم تُشاهدون اليوم ما يحصل بين المسلمين من خلاف بسبب الانتساب إليه بواسطة ابنته، فكيف لو كان الانتساب إلى ابن من أبنائه؟!.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان أن الرجال والنساء متساوون في أحكام الشرع، إلا ما اختصته النساء من أحكام محددة.
- 2- أن من أراد أن يكون من الذاكرين الله كثيراً، فليحافظ على أذكار اليوم والليلة المسنونة.
- 3- بيان حرص النبي ﷺ على أن لا يقع في موطن التهمة في دينه أو عرضه.
- 4- بيان فضل زينب بن جحش وتزويج الله لها.
- 5- بيان فضل الرسل وخشيتهم لله وأنهم لا يخافون في الله لومة لائم.
- 6- أن مكانة الرسالة وثمرتها وأثرها عليكم أعظم من مكانة الأبوة وثمرتها عليكم.



## تفسير المقطع السادس من سورة الأحزاب

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِيعَتُهُنَّ وَسِرَّحُهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

**قول الله تعالى:** ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾، يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الذين صدقوا به أن يذكروا الله ذكراً كثيراً، وذكر الله

المأمور به هنا هو ذكره باللسان في كل الأحوال الموافق للقلب، بحيث يكون الله حاضراً في قلبك، ومُعظماً في صدرك، وظاهراً أثره على جوارحك بالطاعة والامتثال والبعد عن غضب الله ومعصيته، **والمشروع في حق الإنسان** أن يستكثر من ذكر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وأن لا يُفِرط في هذه العبادة العظيمة التي هي من أسهل العبادات وأعظمها أجراً، **قال النبي ﷺ**: "سبق المفردون"، قالوا: من المفردون يا رسول الله؟ قال: "**الذاكرين الله كثيراً والذاكرات**"<sup>(1)</sup>، أي: استحذوا على الأجر الكبير بسبب كثرة ذكرهم لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وفي الحديث الآخر أن **النبي ﷺ قال**: "ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "ذكر الله"<sup>(2)</sup>، فذكر الله عبادة عظيمة يغفل عنها الناس كثيراً مع سهولتها، فتستطيع أن تذكر الله على كل الأحوال، كما **قال**: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191].

**وقوله**: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾<sup>(٤٢)</sup>، وأمرهم أيضاً بتسبيح الله، وهو تنزيهه وتقديسه عن ما لا يليق به سبحانه، وتسبيحه سبحانه مشروع في كل الأوقات، ولكنه خص البكرة والأصيل وهما الصباح والمساء، لشرف هذه الأوقات وسهولة العمل فيها، ولكي يبدأ يومه بذكر الله، ويُنهي يومه بذكر الله، وفيه فضل

(1) صحيح مسلم: (4/2062) برقم: (2676).

(2) مسند أحمد: (36/33) برقم: (21702)، وسنن الترمذي: (5/320) برقم: (3377)،

وإسناده صحيح.



الذكر والتسبيح صباحاً ومساءً، فكأنه غطاء لعمل اليوم كله.

**وقوله:** ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾، وهذا أسلوب من أساليب التحفيز لهم إلى ذكر الله، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم أيضاً، والصلاة لها معنى بحسب إضافتها إلى المصلي، فالصلاة من الله على العباد، ثناؤه عليهم، فالله يُثني على عباده بذكرهم بالوصف الجميل في الملكوت الأعلى، وفي الحديث القدسي: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" (1).

**وصلاة الملائكة عليهم الدعاء والاستغفار لهم، كما قال:** ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7] وبين لنا الغاية من ثناء الله على العباد واستغفار الملائكة لهم، وهي إخراجهم من ظلمات الشرك والكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والإيمان والعلم والمعرفة والهداية والاستقامة، وجمع الظلمات لكثرة أنواعها وتعددتها، وأفرد النور لأنه واحد، وما فعله بالمؤمنين من الثناء عليهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بدعاء الملائكة لهم وإرسال الرسل إليهم، وتوفيقهم للهداية وقبول الحق ونحوها من النعم، هو أثر من آثار رحمة الله بهم في الدنيا، ثم بين سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب، بل هي عامة لهم ولمن بعدهم، ورحمته بالمؤمنين أعم من صلاته عليهم؛ لأنها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم.

(1) صحيح البخاري: (121/9) برقم: (7405).



**وقوله:** ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (٤٤)، **الضمير يعود إلى**

**المؤمنين**، فتحية المؤمنين يوم يلقون الله **جَلَّ وَعَلَا** في الآخرة سلامٌ من الله، وسلام من الملائكة، وسلام بعضهم على بعض، والسلام اسمٌ من أسماء الله تعالى، ومعناه: الذي يسلمهم من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخاوف، فالناس يوم الحشر في فزع وخوف إلا المؤمنين فقد رفع الله عنهم الخوف والفرع، **كما قال:** ﴿وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ بَوْمِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: 89]، المؤمن يشعر بالأمن والأمان والسلام، حينما يلقى الله في الحشر، ثم يدخله الله الجنة التي فيها الأجر الكريم له، فينالهُ مُعْزَراً مُّكْرَماً غير مُهَانَ.

**ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:** ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥)، ناداه باسم النبوة وأخبره بوصف الرسالة، لأن من بلاغة القرآن البعد عن التكرار، وجمع له بينهما تشريفاً له، وذكر مهمته والغاية من إرساله وهو أن يكون شاهداً على وحدانية الله وأنه المعبود الحق دون سواه، وشاهداً على أمته بالبلاغ، وأن الله لم يتركها هملاً بل قد أرسل إليها رسولاً وأنزل إليها كتاباً، حتى لا تأتي يوم القيامة **تقول:** ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ رَسُولًا﴾ [طه: 134]، وجعله مُبَشِّراً ونذيراً، والتبشير هو الوعد بالخير، **والنذارة هي** الوعد بالشر، **والمعنى** أن النبي <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> **مُبَشِّرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَمُنْذِرٌ لِلْكَافِرِينَ بِهِ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ فَقَدْ بَشِّرَهُ بِالْجَنَّةِ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ أَنْذَرَهُ بِالنَّارِ.**

**وقوله:** ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (٤٦)، ومن مهمته أيضاً الدعوة إلى الله، وهي الدعوة إلى توحيد الله وطاعته وما يقرب منه، **كما قال الله له:**



﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: 125]، وأمة محمد ﷺ

تنقسم إلى قسمين: أمة الدعوة: وهم كل من عاش في زمنه أو بعد زمنه إلى قيام الساعة، فدعوته موجهة إليهم كلهم، كما في الحديث: "والله لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار"<sup>(1)</sup>، وأمة الإجابة: وهم من آمن به وامثل أمره ودخل في دينه، وهو مأمور بدعوتهم وتعليمهم الإسلام وأحكامه، والإذن هنا بمعنى الأمر، فمحمد ﷺ ما جاء من عند نفسه، وإنما بعثه الله وأمره أن يدعو إلى دينه، ووصفه بالسراج المنير، وهو المصباح، الذي يستنير به كل من يريد الهداية، والناس قبل بعثة محمد ﷺ كانوا في ضلال مبين، والمقصود هنا بالإشارة المعنوية وهو ما جاء به النبي ﷺ من الهدى والنور.

وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾<sup>(٤٧)</sup>، بشر من آمن بك واتبعك وسار في طريقك بالفضل العظيم الكبير الذي أعده الله لهم في الآخرة، وهو الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وقد يجدون شيئاً من هذا الفضل الكبير في الدنيا كالنصر والتمكين والحياة السعيدة، وفي الآية إشارة إلى تحفيزهم إلى الإيمان وبيان حقارة الدنيا، مقابل ما أعد الله لهم من الفضل الكبير في الآخرة.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾<sup>(٤٨)</sup>، نهى الله عن طاعة الكفار والمنافقين في ما يقترحون عليه من أمر الدين، وأمره بالإعراض عنهم، والصبر على الأذى الذي يأتيك منهم، فلعل ذلك أدعى لتأليف قلوبهم وأن يقبلوا بالإسلام؛ لأن التعامل

(1) صحيح مسلم: (1/ 134) برقم: (153).



الحسن له أثر على الإنسان ولو كان كافراً، بخلاف التعامل الشديد والغلظة عليه فقد تنفره عن الحق، **والمعنى** لا تُعاملهم في الدين، وامنحهم شيئاً من أخلاقك، ولا حرج عليك في ذلك، وأمره بالتوكل على الله، وهو تفويض أمره إلى الله، وهو من أعظم الوسائل لدفع أذيتهم؛ لأن من توكل على الله كفاه، فكفى بالله وكيلاً يعتمد عليه العباد في جميع أمورهم.

**ثم قال الله تعالى:** ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩)، يأتي لفظ النكاح في القرآن ويُقصد به الجماع بعد العقد، ويُقصد به العقد فقط، ويتم التفريق بين المعنيين من خلال السياق، والمقصود به هنا العقد، لذكر عدم المس بعده، وهو الجماع، فمن عقد على امرأة بشروط العقد المعروفة، ثم لسبب أو لآخر طلقها قبل أن يُجامعها، فلا عِدَّة لها، **أي:** لا يلزمها الانتظار فترة من الزمن لكي يخطبها أو يعقد عليها شخص آخر، فرحمها بريئة من الحمل لعدم الجماع؛ لأن العدة شرعت من أجل استبراء الرحم، ولا يحل لزوجها مراجعتها لأنها قد بانت بينونة صغرى، **وذكر لفظ:** (المؤمنات) خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في هذا الحكم بين المؤمنة والكتابية، وفيه إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فإنها أشد تحصيناً لدينه<sup>(1)</sup>، **والآية تدل على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه عقد النكاح، وهو مذهب الجمهور<sup>(2)</sup>، وهو الراجح**

(1) ينظر: تفسير الرازي: (25 / 175).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6 / 440).



**لحديث:** "لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك"<sup>(1)</sup>، ثم ذكر ما لهذه المطلقة من حق على زوجها، وهو المتعة، فإن كان قد سمي لها صداقاً؛ فليس لها إلا نصفه **كما قال:** ﴿فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: 237]، وإن لم يكن سمي لها صداقاً؛ فيمتّعها بشيء من المال على قدر عسره ويسره، **كما قال:** ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ﴾ [البقرة: 236]، يُطَيَّب به نفسها، وأمر الله سبحانه وتعالى الأزواج أن تكون المفارقة لزوجاتهم بطريقة مهذبة ليس فيها ظلم ولا إغلاظ بالقول، بل يُودّعها توديعاً حسناً، وهو السراح الجميل، فكل واحد منهما يذهب في حال سبيله بنفس طيبة بدون شقاق ونزاع، **كما قال:** ﴿وَأِنْ يَفْرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 130]، حرصاً على بقاء العلاقات الحسنة بين الأسر، خاصة إذا كان الرجل متزوجاً من أقاربه.

**ثم قال تعالى:** ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾، **أخبر** الله سبحانه نبيه ﷺ أن قد أباح له أن يتزوج كل امرأة أعطها مهرها، وأباح الله له مع الزوجات التسري بملك اليمين مما غنمه من الكفار بدون مهر ولا عقد نكاح، وهذه أحكام يشترك فيها معه عموم المؤمنين، والفيء يشمل الغنيمة، وإن كان الفيء يطلق على المال الذي يتم الحصول عليه من الكفار بدون قتال، والغنيمة هي المال الذي يتم الحصول عليه بعد قتال وانتصار على الكفار.

(1) سنن أبي داود: (258 / 2) برقم: (2190)، وسنن ابن ماجه: (202 / 3) برقم: (2047)، وإسناده حسن.



**وقوله:** ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ أَلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، وأباح له أيضاً هؤلاء الأصناف القريبين والبعيدين منه، وهذا حصر المحللات، وما عداهن من الأقارب غير محلل، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً والأصول مطلقاً وفروع الأب والأم وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح له<sup>(1)</sup>، وهذا حكم عام يشترك فيه النبي ﷺ مع باقي المؤمنين، إلا أنه قيّد هذا الحكم في حقه بالمهاجرات، فلا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء، وأما غيره لا يلزمه هذا القيد، وليس المقصود مرافقته في الهجرة، وإنما حصل منهن الهجرة من مكة إلى المدينة سواء تقدّمن أو تأخر عنهن.

**وقوله:** ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا حكم خاص برسول الله ﷺ، وهو أن يتزوج امرأة مؤمنة وهبت نفسها له بدون عقد ولا مهر ولا ولي، وليس بواجب على النبي ﷺ قبول الواهبة نفسها له، بل الأمر يرجع إليه إن شاء قبلها وإن لم يشأ ردها وزوجها غيره، وذلك لأن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس مروءة وأخلاقاً، وكان شديد الحياء في التعامل مع أمته، فصرح له هنا بأن الأمر يعود إلى إرادته وعدمها رفعاً للخرج عنه، **وفي الحديث:** أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ، فقال: "ما لي في النساء من حاجة"، فقال رجل: زوجنيها، قال: "أعطاها ثوباً"، قال: لا أجد، قال: "أعطاها

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 669).



ولو خاتماً من حديد"، فاعتل له، **أي:** تعلّل أنه لم يجده، فقال: "ما معك من القرآن؟"، قال: كذا وكذا، قال: "فقد زوجتكها بما معك من القرآن" <sup>(1)</sup>، فزوجه بها وأنهى مشكلة الواهبة، وأنهى مشكلة هذا الشاب الذي طمع بالزواج منها.

**وقوله:** ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ <sup>(٥٠)</sup>، **الضمير في عليهم** يعود إلى المؤمنين، **والمعنى** أن الله تعالى قد علم ما ينبغي من حيث الحكمة فيما أوجبه عليهم من أحكام تتعلق بالزواج، **مثل:** أن لا يزيدوا على أربع، وأنه يلزمهم تسمية المهر، والشهود، والولي، ونحوها من الأحكام، ولا يقيسون حالهم على حالك، **والحكمة من هذا البيان والشرح** رفع الحرج عنك، ولكي لا يظن بأنك قد فعلت ما لا يجوز لك فعله، وهذا من عناية الله تعالى برسوله ﷺ، وختم الآية ببيان أنه غفور لمن أذنب، ورحيم بالمؤمنين، وجمع بينهما: لأن الإنسان يخافُ ذنبه فيحتاج إلى مغفرة الله، وينقص أجره فيحتاج إلى رحمة الله.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1 - فضيلة ذكر الله سبحانه، وأثره في صلاح العبد واستقامته.
- 2 - بيان كرامة العباد عند الله ورحمته بهم وتسخير الملائكة للدعاء لهم.
- 3 - بيان أهمية التوكل على الله في الدعوة إلى الله ومواجهة أذى المخالفين.

(1) صحيح البخاري: (6/192) برقم: (5029).



- 4- أن المؤمن يشعر بالأمن والأمان والسلام، حينما يلقي الله في الحشر، ثم يدخله الله الجنة التي فيها الأجر الكريم له.
- 5- أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه عقد النكاح.
- 6- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ برفع الحرج عنه فيما شرع له من أحكام خاصة به دون أمته.



## تفسير المقطع السابع من سورة الأحزاب

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُعْوَذُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَلَيْهِنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١ ﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢ ﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرِ نَظَرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ٥٣ ﴾ إِنْ بُدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٥٤ ﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ٥٥ ﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦ ﴾

**قال الله تعالى:** ﴿تُرْجَىٰ مِنْ شَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ شَاءٍ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. **هذه الآية نزلت في** إباحة مصاحبة النبي ﷺ لنسائه ومعاشرتهن كيف شاء من غير حرج عليه في ذلك تخصيصاً له وتفضيلاً، فأباح له لمن أحب منهن يوماً أو أكثر، ويعضل من شاء منهن فلا يأتيها<sup>(1)</sup>، **والإرجاء، هو** تأخير الشيء، **ومنه قوله:** ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: 36]، **والمعنى** إن الله قد رفع عنك يا محمد العدل والقسمة مع زوجاتك في المبيت، وجعل الأمر إليك في ذلك، وذلك تخفيفاً عنك ورفعاً للحرج والمشقة عليك، وحتى لا يكون ذلك حقاً لزوجاته، فيطالبه به؛ نظراً لما بين الضرائر من الغيرة، ولما نزلت هذه الآية، قالت عائشة: "يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"<sup>(2)</sup>، فأباح الله له أن يؤخر من أراد من نسائه، وأن يرد من أحب إلى فراشه، وهذا من خصائصه، وليس ذلك لغيره من أمته.

**وكان من النساء اللاتي آواهن النبي ﷺ:** عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، وكانت قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن.

**وكان من النساء اللاتي أرجأهن النبي ﷺ:** سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية، وكان يقسم لهن ما شاء، وكان قد أراد أن يفارقهن؛ فقلن له: اقسم لنا من نفسك ما شئت ودعنا على حالنا<sup>(3)</sup>.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 277).

(2) صحيح البخاري: (7/ 12) برقم: (5113).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 292).



**وقوله:** ﴿ذَلِكَ أَذْفَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عِثْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَبَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾،

ذلك التخفيف والتوسعة عليك في إسقاط وجوب القسمة عليك أقرب لرضى زوجاتك عنك؛ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم، فلا يُصيبهن حزن بسبب تقديمك بعضهن دون بعض، ويرضين جميعاً بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء، وعزل وإيواء.

**وقوله:** ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١)، **أي:** من

الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، **وفي الحديث:** كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: "اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" (1)، **وأتى بلفظ الجمع؛** ليعم قلوب كل الرجال المعددين بالزوجات، ليحذروا من الظلم، **وفي الحديث:** "من كان له أكثر من زوجة ثم لم يعدل إلا جاء يوم القيامة وشقه مائل" (2)، **والمقصود بالعدل هنا:** العدل الحسي بالنفقة والمسكن والمبيت، ولا يلزم من ذلك المبيت أن يُجامعها؛ لأن الرغبة في الجماع مبنية على الهوى والميل القلبي، فقد يوجد في إحداهن ما يدفعه إليها أكثر من غيرها، وذيل الآية بإحاطة علم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالخفي والجلي، فلا يخفى عليه شيء من أمور الناس وأعمالهم، والحليم هو الذي يحلم على عباده حينما يقعون في الذنوب، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، بل يُمهّلهم لعلمهم يتوبون إليه.

(1) سنن الدارمي: (3/ 1416) برقم: (2253)، وسنن أبي داود: (2/ 242) برقم: (2134)، وإسناده صحيح.

(2) سنن الدارمي: (3/ 1415) برقم: (2252)، وسنن أبي داود: (3/ 469) برقم: (2133)، وإسناده صحيح.



**ثم قال:** ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾، هذه الآية منطوقها يدل على أن الرسول ﷺ يحرم عليه أن يتزوج فوق زوجاته الموجودات، ويحرم عليه طلاقهن واستبدالهن بغيرهن من النساء<sup>(1)</sup>، ولو أعجبه حسن غيرهن، واستثنى من ذلك ملك اليمين، فلو أرد أن يتمتع بملك اليمين غير ما عنده فهذا جائز له، ورقب بمعنى حفيظ، أي: يحفظ العبد ويرقبه، وفيه معنى التخويف للإنسان فإنه يعيش تحت رقابة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فلا يعصي الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ويقع فيما يُسخطه، وهل هذه الآية مُحكمة أم منسوخة، **قولان للعلماء**<sup>(2)</sup>: **الأول:** إنها منسوخة، ثم اختلفوا في النسخ لها، فمنهم من قال: نسختها السنة، **كما في حديث عائشة:** "أن النبي ﷺ ما مات حتى أُبيح له أن يتزوج ما شاء من النساء"<sup>(3)</sup>، **ومنهم من قال:** نسختها الآية التي قبلها.

**والقول الثاني:** إنها غير منسوخة، وإن معناها مقصور على تحريم الكافرات عليه فقط، واختار هذا القول الطبري<sup>(4)</sup>، والراجح الأول، ولكنه أيضاً مع الإباحة لم يتزوج عليهن ولم يطلق امرأة منهن.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 449).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 299).

(3) مسند أحمد: (40/ 165) برقم: (24137)، وسنن الترمذي: (5/ 356) برقم: (3216)،

وإسناده صحيح.

(4) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 300).



**ثم قال:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾، تتحدث هذه الآية عن بعض الأحكام المتعلقة بدخول بيت النبي ﷺ، وهو حكم عام لكل البيوت، وقد جاء سبب نزول الآية من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله هذه الآية، **وقد نزلت هذه الآية في حادثة خاصة بالنبي ﷺ**، وقد جاء سبب نزول الآية، وقد سبق معنا أن النبي ﷺ كان كثير الحياء وخاصة في القضايا الشخصية، فاستحى أن يقول لهم: اخرجوا، فنزل القرآن لرفع الحرج عنه وتعليم الأمة الآداب اللازمة للتعامل معه، **ومنها:** عدم دخول بيوت الرسول ﷺ إلا بإذن منه، وأن لا تأتي إلى طعام ما لم تُدعى إليه حتى لا تكون مُتطفلاً، ولا تأتي قبل وقت الطعام بوقت كثير، فتنتظر وقت نضج الطعام، ثم إذا انتهيت من الطعام، فاذهب واترك البيت لأهله، ولا تمكث في البيت مع غيرك من المدعوين تتجاذبان الحديث ويستأنس بعضكم بكلام بعض، فليس هذا وقته ولا مكانه، فإنما دعيت للطعام فقط فلا تتجاوز به إلى غيره من المصالح الأخرى، فلا تقول: هذه فرصة قد وجدتُ فيها فلاناً للحديث معه، فهذا التصرف يؤذي رسول الله ﷺ؛ لأن رسول الله ﷺ لديه أعمال ومشاغل أخرى، ومن كرم أخلاقه وحيائه فيما يتعلق بشؤونه الخاصة، أنه كان يستحي من التصريح لهم بما يرغب به،



بخلاف الأحكام الشرعية التي أمر ببلاغها، فإنه كان لا يسكت عنها، فتولى الله سبحانه البلاغ عنه فيما يخصه، فالله لا يستحي أن يبين لكم ما هو الحق فتعرفوه وتعملوا به، وهذا الحكم عام يشمل كل من دعاك من الناس، فلا تدخل بيتاً إلا بإذن صاحبه، ولا تذهب إلى زيارة شخص في موعد أكله، لأنك ستُخرج، ولا تحضر وليمة إلا بدعوة، ولا تكن طفلياً، **وفي الحديث:** "أن رجلاً من الأنصار رأى رسول الله ﷺ، فعرف في وجهه الجوع، فقال لغلامه: اصنع لنا طعاماً لخمس، فإني أريد أن أدعو النبي ﷺ خمس خمسة، فجاء النبي ﷺ خمس خمسة وتبعهم رجل، فلما بلغ الباب، قال النبي ﷺ: "إن هذا تبعنا، فإن شئت أن تأذن له، وإن شئت رجع، قال: بل آذن له يا رسول الله" (1)، فالنبي ﷺ لم يسمح له أن يدخل بدون دعوة من الرجل، وإن كان جاء برُفقته، لأن هذه صورة من صور التطفل التي لا يفعلها أهل المروءة، فكن فطناً وانظر في ملامح وجه الداعي لك وحركاته وافهم رغبته، فالناس ما زال عندهم مروءة وكرم، ولا يمكن أن يقول أحدهم لضيفه: اخرج، انتهى الوقت لجلوسك!!

**وقوله:** ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟! فأنزل الله آية الحجاب" (2)،

(1) صحيح ابن حبان: (12/111) برقم: (5300).

(2) صحيح البخاري: (6/118) برقم: (4790).



**والمعنى** إذا احتجتم أن تسألوا إحدى زوجات النبي ﷺ شيئاً، سواء من أمتعة البيت أو سؤال استعمال عن شيء من علم أو فقه، ونحوه، فاسألوهن من وراء ستار بحيث يحجب المرأة عن السائل، ذلكم، **أي**: السؤال لهن من وراء حجاب، أزكى وأطهر لقلوب الرجال والنساء؛ لأن النظر إلى النساء وأجسادهن مباشرة، سبب للفتنة؛ لأن كلا منهما مفطور على الانجذاب والميل إلى الآخر، والخطاب لزوجات النبي ﷺ لشرفهن، ولكن الحكم يشمل كل النساء، وفي هذا تحذير لكل مؤمن من الخلوة مع من لا تحل له، أو الحديث من دون حجاب مع من تحرم عليه، اعتماداً على الثقة بالنفس، فكلما بُعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

**وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (٥٣)، جاء في سبب نزولها** أن رجلاً قال: لو مات رسول الله لتزوجت عائشة، فنزلت الآية (1)، **والمعنى** ما صح لكم ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء، ومن ذلك الخوض في الحديث عن زوجاته خصوصاً، ويحرم عليكم الزواج بهن بعد وفاته؛ لأنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، وقد صرن في المحرمية مثل أمهاتكم، **كما قال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** [الأحزاب: 6]، وهذا الحكم يعم كل من مات النبي ﷺ عنها من زوجاته وقد دخل بها، أما التي تزوجها وفارقها قبل الدخول بها، فليست من أزواجه، كما حصل مع ابنة الجون التي رُفِت إليه، فلما جاء رسول الله ﷺ ليدخل عليها، قالت: أعوذ بالله منك،

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (3150 / 10).



فقال لها: "لقد عذتِ بعظيم، فالحقي بأهلك"<sup>(1)</sup>، فهذه لا تعتبر من زوجاته، واسم الإشارة (ذلكم) يعود على ما سبق ذكره من أفعال منهي عنها، فهو ذنب عظيم عند الله، وإثم كبير، والعقوبة عليه شديدة.

**ثم قال الله:** ﴿إِنْ بُدُّوْا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾، أي: قد أحاط الله بكل أعمالكم الظاهرة والباطنة أخفيتموها أو أظهرتموها وسيُجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وفي ذلك إشارة إلى ما سبق من أحكام فبعضها يتعلق بالظاهر، وبعضها يتعلق بالباطن، والعبد قد يكون صادقاً فيها ظاهراً وباطناً، وقد يكون صادقاً في الظاهر وعنده خلل في الباطن، فوعظهم الله بإصلاح بواطنهم كظواهرهم وحذرهم من إخفاء ما لا يحبه الله ولا يرضاه منها.

**ثم قال سبحانه:** ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِبْنَ اللَّهِ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾، الخطاب في سياق الحديث عن زوجات النبي ﷺ، حيث أمر الناس أن يسألوهن من وراء حجاب فالحكم عام، فلا بد أن يخص هذا العموم بالأجانب، أما المحارم فمستثنون من هذا الحكم، فلا حرج على المرأة أن تتخاطب وتظهر بدون حجاب مع المحارم، وهم الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات، وهؤلاء المحارم من الرجال، لم يذكر الخال ولا العم؛ لأنهم قد ذكروا في آيات سابقة، ولا حرج عليهن أن يظهرن دون حجاب على النساء المؤمنات، أو على النساء من جنسهن إذا كن موثوقات، ولا

(1) صحيح البخاري: (41 / 7) برقم: (5254).



خرج عليهن كذلك من الظهور بدون حجاب على عبيدها وإمائها، وكل ذلك مصحوب بتقوى الله في السر والعلن؛ لأن هذه الأمور تحتاج إلى مراقبة الله سبحانه، وكلها أمور خفية تحتاج إلى تقوى الله والخوف منه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وذيل الآية بأن الله شهيد على الخلق يعلم ظواهر أعمالهم وبواطنها، وما يدور في سرهم وعلاانيتهم من خيرٍ أو شر، ثم يجازيهم على ذلك.

**وُخْتُمَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)**، أخبر الله عن مكانة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده ومحبته له، وأن الله يشني عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، وأن الملائكة المقربون يثنون عليه، ويتضرعون إلى الله بالدعاء والاستغفار له، فبين أنه مُكْرَم عند الله وملائكته يثنون عليه الثناء الحسن في الملكوت الأعلى، ثم طلب من المؤمنين أن يقتدوا بالله وملائكته في ذلك، وهو أسلوب من أساليب التحفيز والتشويق؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً، ويحصل للمؤمنين الأجر والثواب بفعلهم هذا، **ففي الحديث:** "من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشراً"<sup>(1)</sup>، وبيّن لهم كيفية الصلاة عليه، فقال: **"قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد"**<sup>(2)</sup>، ويستحب الإكثار من الصلاة عليه، **فعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟، أي من دعائي، فقال: "ما

(1) صحيح مسلم: (306 / 1) برقم: (408).

(2) صحيح البخاري: (146 / 4) برقم: (3369).



شئت"، قلت: الربع؟، قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"، قلت: النصف؟، قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"، قلت: فالثلثين؟، قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟، قال: "إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك"<sup>(1)</sup>، فالصلاة على رسول الله ﷺ مشروعة في أي وقت، وعند ذكر اسمه، **كما في الحديث:** "البخيل من ذكرت عنده ولم يُصل عليّ"<sup>(2)</sup>، ﷺ وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن مقام النبي ﷺ عند ربه عظيم، ومكانته لديه عالية.
- 2- بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الخلق العظيم، وشدة الحياء والمروءة.
- 3- بيان مقام زوجات النبي ﷺ ومكانتهن، ووجوب حفظ حقهن وحرمتهن في حياته وبعد مماته.
- 4- لا حرج على المرأة في الظهور بدون حجاب أمام محارمها والحديث معهم.
- 5- بيان فضيلة الصلاة على النبي ﷺ، وأجر من صلى عليه من أمته.

(1) مسند أحمد: (166 / 35) برقم: (21242)، وسنن الترمذي: (4 / 218) برقم: (2457).

وإسناده حسن.

(2) مسند أحمد: (257 / 3) برقم: (1736)، وسنن الترمذي: (5 / 551) برقم: (3546).

وإسناده صحيح.



## تفسير المقطع الثامن من سورة الأحزاب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾  
 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨﴾  
 ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّازِئًا مِنْ رَبِّهِ فَإِذَا هِيَ خِلاَقَةٌ عَلَى عَرْسٍ الْمَلَائِكَةِ الْمُؤْمِنَاتِ يُنْزِلْنَ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ نُفُوسًا مُقَدَّسَةً تَقُولُ لَهَا مَا قُلْ فَتَرْجُمُوهَا السَّامِیَّةَ ٥٩﴾  
 ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ جَلِيلِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْتَيَنَّ أَنْ يَرْضَ الْأَعْدَى وَيَأْذَنَ لِلَّذِينَ يُؤْذِنُونَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٦٠﴾  
 ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦١﴾  
 ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ٦٢﴾  
 ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٣﴾.

**قول الله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾، ذكر في الآية السابقة ثناء الله والملائكة على رسوله ﷺ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وذلك تعظيمًا لشأنه، ثم ذكر بعدها حكم من يؤذونه، ليُعرف الفرق بين الصنفين، والأذية لذات الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** غير متحققة؛ فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لا يلحقه أذى من أحد، والمعنى يخالفون الله ويعصون أمره ويقولون في ذاته ما هو منزله عنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، كقول اليهود: عزيز ابن الله، ويد الله مغلولة، وإن الله فقير، **وكقول النصاري:** المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وكقول المشركين: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه، ونحوها من الأقوال

الباطلة، فسمى مخالفتهم وأقوالهم الباطلة أذية لله بناءً على ما تعارف عليه الناس فيما بينهم، والواو للعطف، فحُكم أذية الله كحُكم أذية رسوله ﷺ، وأذيته ﷺ حقيقية، **كقول قريش**: إنه ساحر وكاهن وشاعر وكذاب، ونحوها من الألفاظ، وكأذية المنافقين له حين طعنوا في عرضه، ونشروا حديث الإفك في زوجته، حتى قام **خطيباً** فقال: "يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي والله ما علمت على أهلي إلا خيراً"<sup>(1)</sup>، ونحوها من أنواع الأذى الذي وقع له من المخالفين، فمن وقع منه الأذية لله ورسوله فهو ملعون في الدنيا والآخرة، **واللعن**: هو الطرد والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة؛ لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم، وحكم من آذى الرسول ﷺ بالسب والشتم ونحوه، أنه يُقتل حداً إن تاب، وردةً إن لم يتب، بخلاف من سب الله، فإنه يستتاب؛ فإن تاب لم يُقتل، وإلا قُتل ردة، وذلك لأن حق الله مبني على العفو، وحق الرسول حق لآدمي مبني على المشاحة<sup>(2)</sup>، وكل من تعرّض لرسول الله ﷺ بنقيصة أو أذية؛ جاءته عاقبة فعله في أهله أو ماله أو نفسه أو بها جميعاً في الدنيا قبل الآخرة، وفي هذا عظة وعبرة للمُعترين، وقد وردت بعض القصص لمن تعرّض لرسول الله ﷺ بالأذية، **منها**: عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: "كان رجلٌ نصرانيٌّ فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانياً، فكان يقول: لا يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله

(1) صحيح مسلم: (4/ 2129) برقم: (2770).

(2) ينظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص: 551).

فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له وأعمقوا في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه" (1)، فهذا الملعون قصمه الله وفضحه وأخرجه من القبر بعد أن دُفن مراراً، وهذا أمر خارج عن العادة يدل على أن هذا عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذباً إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا (2).

**ومنها:** أن بعض أمراء المغول تنصر، فحضر عنده جماعة من كبار النصارى والمغول، فجعل واحد منهم ينتقص النبي ﷺ، وهناك كلب صيد مربوط، فلما أكثر من ذلك وثب عليه الكلب فخمشه، فخلصوه منه، وقال بعض من حضر: هذا بكلامك في محمد ﷺ، فقال: كلا، بل هذا الكلب عزيز النفس لأني أشير بيدي إليه، ثم عاد إلى ما كان فيه من السب، فوثب الكلب عليه مرة أخرى فقبض على حنجرته فقلعها، فمات في الحال، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفاً من المغول (3)، وكان عِبرة للحاضرين!!، وغيرها من القصص في هذا الباب، فالتاريخ مليء بالقصص والنهايات السيئة لكل من تعرض للرسول ﷺ بالأذية، وأن مصيره الهلاك وعاقبته وخيمة، وإن حصل له شيء من التلميع من قبل الأعداء؛ فسرعان ما يقصمه الله!، وأما عذابهم في الآخرة فقد أعد الله لهم عذاباً مهيناً في جهنم، والعياذ بالله.

(1) صحيح البخاري: (202 / 4) برقم: (3617).

(2) ينظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص: 116).

(3) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (4 / 153).



ثم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّكَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥١﴾، تُسمى هذه الآية **بآية الحجاب**، وكان من عادات العرب ألا تحتجب المرأة من الرجال الأجانب، وكان يمتازون بالعفة والحياء، ولما استقر النبي ﷺ في المدينة نزلت الأحكام

التفصيلية، ومنها حكم الحجاب للنساء عامه، وأمره الله بإبلاغ زوجاته وبناته ونساء المؤمنين بهذا الحكم، وبدأ بزوجاته وبناته، لأنهن أولى من غيرهن، ولأن الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله، وبناتك: جمع بنت، وكن أربعاً، وهن بالترتيب: زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية، وأمهن كلهن خديجة، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ جميعاً، وفي هذا ردّ واضح على بعض الرافضة المعاصرين الذين يقولون:** إنه لا يوجد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بنتاً واحدة، وهي فاطمة، **والجلباب:** هو الثوب الذي يُلبس فوق الثياب من خمار ونحوه، وهو في العادة الذي يُلبس من الرأس فيُعطي الوجه والصدر، **والإدناء:** أن تُسدله من رأسها على وجهها وصدرها؛ لأن الوجه مكان الزينة، ثم يأتي بعد الوجه العُنُق والجيب الذي يكون مفتوحاً في أعلى الثوب، ثم يأتي الصدر بعد ذلك وهو مكان الشديين وفيهما تكون الفتنة، ذلك **أي:** الحجاب، وأدنى: بمعنى أقرب، ويُعرفن، **معناها<sup>(1)</sup>:** أن يعرفن أنهن حرائر فلا يؤذيهن أحد بالتعرض لهن، فالحرّة آنذاك كان لا يتعرض لها أحد من الناس لعفتها وبعدها عن الزنا، خلافاً للإماء، ولذلك لما بايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النساء، **وذكر من بنود البيعة:** ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: 12]، قالت هند: أو تزني الحرّة؟! <sup>(2)</sup>، سؤال استنكار واستغراب، وهذا الوصف ينطبق على ذلك العصر، أما الآن فالجميع أحرار، **ويمكن أن يدخل في معناه اليوم، أن يقال:** ذلك أدنى أن تُعرف العفيفة بحجابها من غير العفيفة بتبرجها، وهذا الأمر مُلاحظ في الواقع، فالمرأة المُحجبة الساترة لجميع مفاتها؛ يتهيب أن يتعرض لها أحد، بخلاف المتبرجة،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 482).

(2) مسند أبي يعلى الموصلي: (8/ 194) برقم: (4754).



فغالباً ما يتعرضن للأذية من السيئين من الناس، فإذا أرادت المرأة أن لا تُؤذى من الفاسدين في الشوارع؛ فلتخرج محجبة الحجاب الشرعي الكامل؛ ليكون ذلك عنواناً على عففتها ودينها، فيبتعد عنها شياطين الإنس، فإن قصرت في الحجاب وأوذيت منهم فهي السبب، لأن التبرج وعدم الحجاب سبب من أسباب أذية الرجال للنساء، وختمت آية الحجاب بأن الله غفورٌ رحيم، فهو غفور لما قد يحصل من بعضهن من تقصير بعد نزول آية الحجاب، ورحيمٌ بهن حيث أعطاهن الفرصة للتوبة والإنابة والرجوع إليه سبحانه.

**ثم قال الله تعالى:** ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠)، هذه صفات لصنف واحد<sup>(١)</sup>، وهم المنافقون، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ومنهم الزناة الذين كانوا يتعرضون للنساء إذا خرجن لقضاء حاجتهن في الليل فيؤذونهن، ومنهم المرجفون الذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار بين أهل المدينة، حيث حذرهم من الاستمرار في هذه الأفعال القبيحة، وإن لم ينتهوا عنها؛ لأنمرنك بقتالهم، ونسلطك عليهم، فتطردهم من المدينة وتخرجهم منها، ولا يبقون فيها إلا فترة قليلة هي مدة تجهيز متاعهم للخروج منها، وفي الآية إشارة إلى جواز طرد المفسدين في البلد منها، وهذا يرجع إلى الحاكم المسلم وبحسب المصلحة العامة للأمة.

**وقوله:** ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ (٦١)، أي: تحل

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٤ / ٢٤٥).



عليهم اللعنة أثناء طردهم وخروجهم وأين ما حلوا، وفي أي مكانٍ نزلوا فيه أو زمان ظفروهم فيه فحكمهم القتل، بسبب كفرهم ونفاقهم، وفسادهم في الأرض.

**وقوله:** ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾،

**أي:** سنة ماضية في حق أمثالهم ممن سبقهم من الأمم السابقة، فمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه يقتل أو يطرد من بلده تخلصاً من شره، ولن تجد لهذه السنة تغييراً ولا تبديلاً، فهي تسير وفق أمر الله وحكمه وشرعه، وهو الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه **جَلَّ وَعَلَا**.

### فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان خطورة أذية الله ورسوله، وأن من فعل ذلك فهو كافر مرتد عن الإسلام.

2- بيان خطورة أذية المؤمنين والمؤمنات بدون حق، وأن ذلك من كبائر الذنوب.

3- أن الحجاب صون وأمان للمرأة، فالمُحجبة الساترة لجميع مفاتنها؛ يتهيب أن يتعرض لها أحد، بخلاف المتبرجة، فغالبا ما يتعرضن للأذية من فساق الناس.

4- جواز طرد المفسدين في البلد منها، وهذا يرجع إلى الحاكم المسلم وبحسب المصلحة العامة للأمة.

5- أن سنة الله فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه القتل أو الطرد من بلده تخلصاً من شره.



## تفسير المقطع التاسع من سورة الأحزاب

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۝٦٧ رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا ۝٦٨ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٣﴾.

**قول الله تعالى:** ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾، الخطاب للنبي محمد ﷺ والمقصود بالناس المشركين والمنافقين ونحوهم من الكفار الذين كانوا يكثرون من السؤال عن موعد قيام الساعة الكبرى، على سبيل الاستهزاء والاستعجال؛ لأنهم كانوا

يُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَسْأَلُونَهُ امْتِحَانًا؛ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَمَى وَقْتَهَا فِي التَّوْرَةِ، فَأَخْبَرَهُمْ جَمِيعًا أَنَّ مَوْعِدَ قِيَامِ السَّاعَةِ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْصُورِ وَالْمَقْصُورِ عِلْمُهُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا يَعْلَمُكَ وَيُخْبِرُكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، فَإِذَا كَانَتْ مَحْجُوبَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَعْلَمُ وَقْتَهَا، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَكَيْفَ بغيره مِنَ النَّاسِ؟!، وفيه تهديد للمستعجلين، وإسكات للممتحنين!

**ثم قال:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٤)، والمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها، أن السؤال عن موعد الساعة غير مطلوب منك البحث عنه، فلا تشغل نفسك أيها الكافر به، بل استعد لها بالإيمان والعمل الصالح، فإن عقوبة الكافرين عند قيامها عظيمة، وقد أرشد النبي ﷺ من سأله من المؤمنين سؤال استعلام إلى الاستعداد لها، **كما في الحديث:** أن رجلاً قال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: "وماذا أعددت لها؟" (1)، ثم وصف الله جزاء الكافرين بالله المكذبين بالساعة، **واللعن معناه:** الطرد من رحمة الله، فالكافرون مطرودون من رحمته، وبعيدون عن نعمته، وقد هياأ الله لهم نار السعير في جهنم يحترقون فيها.

**وقوله:** ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥)، أي: ملازمين لجهنم لا يخرجون منها أبداً، ولا يجدون ولياً يشفع لهم ولا ناصراً ينقذهم منها، بل قد قطعت عنهم أسباب الرحمة والنجاة كلها، وفي الآية دليل على أن نار الكفار لا تفنى ولا تنتهي.

**وقوله:** ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٦)،

(1) صحيح البخاري: (12/5) برقم: (3688).



**أي:** أنهم لا يتقبلون بأنفسهم فيها وإنما يُقبلون من قبل الملائكة، فتقلبهم ظهراً لبطن حتى يشمل العذاب كل أجسادهم، أو يطرحون في النار مقلوبين منكوسين<sup>(1)</sup>، وخص الوجوه بالذكر؛ لأنها أشرف ما فيهم، وفي الوجه الحواس التي بها يسمع ويرى الحق فلم يستفد منها في الدنيا، بل استخدمها في الكفر والمعاصي، وإذا قلب الوجه فسيقلب في النار معه باقي الجسد، وأثناء التقلب يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وآمنا به، وأطعنا الرسل فيما كانوا يأمرونا به من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، على سبيل التمني والندم، ولكن في غير وقته، والألف واللام في الرسول للعهد الذهني، فكل أمة تذكر رسولها وتتمنى لو أنها أطاعته.

**وقوله:** ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا فَاضْلُونا السَّبِيلَ﴾<sup>(٦٧)</sup>، **قالوا أيضاً:** يا ربنا، إن سبب كفرنا هو طاعتنا لسادتنا وكبرائنا، فجمع بين السادة والكبراء؛ ليشمل كل أنواع المتبوعين في الدنيا، فأوقعونا في طريق الضلال وأبعدونا عن طريق الهداية والحق.

**وقوله:** ﴿رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾<sup>(٦٨)</sup>، يا ربنا، نسألك أن تعذبهم ضعفي عذابنا لأنهم سبب كفرنا، واطردهم من رحمتك، وأخزهم خزيًا كبيرًا، **وفي قراءة عامة القراء:** (كثيراً)<sup>(2)</sup>، **أي:** يلعنون مرة بعد مرة حتى يكون اللعن عليهم كثيراً، وهذا الدعاء من المتبوعين على الذين اتبعوهم لا فائدة منه آنذاك؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل، بل كان الواجب

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 562).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 331).



عليكم أن تبتعدوا عنهم في الدنيا وتفارقوا طريقتهم، فأنتم من جعلتم من أنفسكم تابعين لغيركم بدون علم وفهم، وفي الحديث: "لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"<sup>(1)</sup>، ودعائهم تحصيل حاصل؛ لأن ما دعوا به قد حكم الله به كما قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: 25]، وفي الحديث: "من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها"<sup>(2)</sup>، فمن ضل الناس عن الحق تحمل أوزارهم وعذب عليها، لأنه كان سبباً في فعلها.

ثم قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [١٦]، هذا الخطاب وجهه الله للمؤمنين وحذرهم أن يقعوا في أذية النبي محمد ﷺ، بل يُعظموه ويعزروه ويوقروه، لأن له مكانة عند الله، وحذرهم من مشابهة اليهود الذين حصل منهم الأذية لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي أذية خاصة حيث اهتموه بما ليس فيه، فقد جاء في الحديث: "إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى

(1) سنن الترمذي: (432/3) برقم: (2007)، وقال: حسن غريب.

(2) صحيح مسلم: (2059/4) برقم: (1017).



عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجرًا!، ثوبي حجرًا!، حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل، فأراه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، **فذلك قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾** (1).

**والندب:** هو آثار الضرب على الحجر، فأظهر الله براءته عيانًا لهم؛ لأن موسى كان بريئًا مما قالوه من قبل أن يؤذوه، وكانت براءته بشيء خارق للعادة؛ لمكانته عند الله، وكان موسى مرضي عنه مقبول مستجاب الدعوة، ما إن يطلب من الله طلبًا إلا واستجاب الله له، وفي هذه الآية إشارة إلى وجوب توقير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتجنب ما يؤذيه، وتلك سنة الصحابة والمسلمين بعدهم، إلا حوادث يسيرة وقعت من بعض المنافقين وضعاف الإيمان في عهده، **فكان** صلى الله عليه وآله وسلم يتسلى بذكر أذية اليهود لموسى وصبره عليهم، كما حصل له يوم قسمة غنائم حنين حيث قسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: "يرحم الله موسى، قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر" (2).

**ثم قال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾** (٧٠) **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾** (٧١)، هذا وعظ للمؤمنين،

(1) صحيح البخاري: (4/ 156) برقم: (3404).

(2) صحيح البخاري: (4/ 157) برقم: (3405).



بأن يراقبوا الله في سرهم وعلاانيتهم، ويضبطوا ألسنتهم فلا يقولون غير الحق والصواب، وفيه إشارة إلى أن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبي ﷺ عمداً أنهم ليسوا مؤمنين في باطن الأمر، ووعدهم على ذلك بصلاح أعمالهم وقبولها ورفع درجاتهم وثوابهم بها، فإن الإنسان إذا أخلص في عمله وصدق في قوله؛ ضاعف الله له أجر العمل وغفر له الذنب؛ لأن كثرة الحسنات يذهبن السيئات، كما قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، كما أن الطاعة المطلقة لله ولرسوله عاقبتها الفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

**ثم ختم الله تعالى السورة بقوله:** ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢)، **والأمانة:** هي أمانة التكاليف الشرعية<sup>(1)</sup>، كالطاعة والتوحيد، والقيام بما أمر الله والابتعاد عما نهى الله، ويدخل فيها أمانات الخلق وحفظ حقوقهم، وعرض حملها على السموات والأرض والجبال؛ عرض تخيير لا عرض أمر وإلزام، فأشفت منها، وامتنعت من حملها، والإباء منهن، ليس رفضاً لأمر الله كما فعل إبليس، وإنما هو اختيار الترك على القبول، خوفاً أن لا يقمن بها كما أراد الله، وعرضها على الإنسان، وهو آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فقال: وما لي؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قال: فأنا أتحمّلها بما فيها، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين الأولى والعصر حتى أخرجه الشيطان منها<sup>(2)</sup>، فالتزم القيام بها، وكان ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة ما تحمل من تكاليف.

(1) ينظر: تفسير الطبري: (20 / 337).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18 / 304).



**وقوله:** ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ٧٢، ثم بين موقف الناس من الأمانة وأصنافهم في حملها، فذكر ثلاثة أصناف: صنفٌ قبلَ بها ظاهراً وكفر بها باطنًا، وهم المنافقون ذكوراً وإناثاً، وصنفٌ رفضها ظاهراً وباطناً، وهم المشركون ذكوراً وإناثاً، وصنفٌ قبلَ بها ظاهراً وباطناً وأداها ظاهراً وباطناً، وهم المؤمنون ذكوراً وإناثاً، وبحمل الأمانة أو تضييعها يظهر نفاق المنافقين وشرك المشركين فيعذبهم الله في النار، ويظهر إيمان المؤمنين الذين أحسنوا في حمل الأمانة وأدوها كما أمرهم الله، ويتوب عليهم ويغفر لهم تقصيرهم إن وجد، والله غفورٌ للمذنبين التائبين، ورحيمٌ بالمؤمنين.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- اختصاص الله تعالى بعلم قيام الساعة.
- 2- خطورة إضلال الناس وسنّ الباطل لهم.
- 3- بيان أن أذية الله ورسله كفر مخرج من الملة.
- 4- بيان أن أذية المؤمنين بغير حق كبيرة من كبائر الذنوب.
- 5- عِظَم مكانة أمانة التكاليف الشرعية، واعتذار السموات والأرض والجبال من حملها.
- 6- انقسام الناس إلى ثلاثة أصناف في تحملهم لأمانة التكاليف، وهم: المنافقون، والمشركون، والمؤمنون.



## تفسير سورة سبأ

## تفسير المقطع الأول من سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ

الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا

وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ

عَلِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ

وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا

مُزِقْتُمْ كُلَّ مُمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ .

## شخصية السورة:

سورة سبأ؛ سورة مكية<sup>(1)</sup>، ومن مقاصدها بيان نعم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على خلقه، وإبطال إنكار المشركين للبعث والنشور<sup>(2)</sup>.

**قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١)**، حمّد الله نفسه حمداً مطلقاً مستغرقاً للحمد كله، فهو واهب النعم وموجدّها، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما، وكما اختص بالحمد في الدنيا فهو مختص بالحمد في الآخرة، فلا حمد في الآخرة إلا له سبحانه؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة بنعمه الكثيرة، وهو الحكيم في أفعاله وأحكامه وشرعه، وهو الخبير بأحوال عباده دقيقها وجليلها، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء.

**وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢)**، أحاط علمه المطلق بما يدخل في الأرض من ماء، ونبات، وحيوان، وكنوز، وأموات، ونحوها من الأشياء، وما يخرج منها من ماء، ونبات، وحيوان، ومعادن، وثروات، وسائر ما يخفى في باطنها، فهو يعلم ذلك على وجه التفصيل، ويعلم ما ينزل من السماء من أمر، ونهي، وملائكة، ومطر، وخير، وشر، ورزق، وعذاب، وغير ذلك، ويعلم ما يصعد إليها من

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 494).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 138).



أفعال العباد وأرواحهم، والملائكة، وغير ذلك، فشمّل علمه المطلق كل ما يكون في الأرض والسماء، وهو الرحيم بعباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة بسبب ذنوبهم، بل يمهّلهم رحمةً بهم ليتوبوا، وهو الغفور لذنوبهم إن تابوا منها، وفي ذلك حثٌ للناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما، فإن من رغب في تحصيل شيءٍ بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليه<sup>(1)</sup>.

**ثم قال:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>، والذين كفروا هم كل من كفر بالبعث والنشور، وإن كان المقصود بهم هنا أهل مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ، وأنكروا قيام الساعة والبعث والنشور يوم القيامة، فأمر الله رسوله ﷺ أن يبطل قولهم هذا ويخبرهم بمجيئها، وأكد ذلك بالقسم للدلالة على ثقته بأنها آتية لا محالة، وهذا أحد المواضع الذي أقسم فيها النبي ﷺ بربه على البعث والنشور، وهي ثلاث آيات لا رابع لها: فالأولى: في سورة يونس، والثانية: هنا، والثالثة: في سورة التغابن، فربّي الذي أقسمتُ به هو عالم الغيب والشهادة، والغيب: ما خفي عن الناس مُطلقاً أو جزئياً، والشهادة: ما علموه ورأوه، والمقصود بذلك عموم إحاطة علم الله بكل شيء، **والمثقال:** مقدر وزن الذرة<sup>(2)</sup>، وهي تلك الحشرة الصغيرة التي هي من فصيل النمل، وهي أصغر حشرة يراها الإنسان حين نزل

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 138).

(2) تفسير ابن عطية: (4 / 405).



فيهم القرآن، فلا يغيب عن علم الله **جَلَّ وَعَلَا** مثقال ذرة في الكون كله، ولا أصغر من مثقال الذرة، ويدخل في هذا المعنى مفهوم الذرة المعاصر؛ وهو الذي لا يرى بالعين المجردة، ولا أكبر منها، وهو احترازٌ حتى لا يظن ظانٌ أن علم الله وكتابته للأشياء الصغيرة دون الكبيرة، فهو يعلم الصغيرة والكبيرة على حدٍ سواءٍ، وكلاهما مدوّن ومكتوب في اللوح المحفوظ.

**ثم قال سبحانه:** ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤)، **اللام** للتعليل<sup>(١)</sup>، فمجيء الساعة والبعث والنشور للجزاء، لأن الخلق في الدنيا لا يحصلون على حقوقهم كاملة، ولا يتم لهم العدل المطلق، ولا يتحقق عدل الله المطلق إلا بعد قيام الساعة بالبعث والنشور، فيوفي المؤمنين أجرهم بعد المغفرة لذنوبهم، فيدخلهم الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، ويزيدهم من فضله إكراماً لهم.

**وقوله:** ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (٥)، السعي هنا هو الجد والنشاط في العمل السيئ، فإن الكافر يؤزره الشيطان أزاً لمحاربة الحق، ومن ذلك السعي في إبطال القرآن الكريم وأحكامه، وتثييط الناس عن اتباعها والإيمان بها، وهم كذلك يسعون مسابقين من أتى بها وهو محمد ﷺ، لغرض تكذيبه<sup>(٢)</sup>، فلهؤلاء الكافرين المكذبين عذابٌ شديدٌ يوم القيامة، بليغ الألم للأنفس والأجساد.

(١) فتح القدير للشوكاني: (4 / 358).

(٢) ينظر: تفسير النسفي: (3 / 53).



**ثم قال سبحانه وتعالى:** ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٦)، **الواو** استئنافية<sup>(1)</sup>، **والرؤية هنا** قلبية، **والمعنى** ويشهد الذين أوتوا العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن آمن من علماء أهل الكتاب، ومن جاء بعدهم ممن آمن بالله وقرأ القرآن وتعلم أحكامه، أنه حق لا باطل فيه، ويرون أنه يرشد الخلق ويدلهم على طريق الإسلام، الذي به يدخلون الجنة، **وقيل**<sup>(2)</sup>: إن الواو عاطفة، وتكون هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا؛ رأوه حينئذ عين اليقين.

**والعزيز هو:** منيع الجناب، الذي قهر كل شيء، والحميد: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وفي الآية منقبة لأهل العلم وفضيلة لهم<sup>(3)</sup>.

**ثم قال الله:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧)، **وقال كفار قريش بعضهم لبعض:** لا بد أن نتفق على وصف نصف به محمداً من أجل أن نُحذّر به من جاء من خارج مكة حتى لا نختلف ونتناقض، وقد كان الناس يأتون إلى الحج وإلى الأسواق المنتشرة حول مكة من مناطق مختلفة؛ فيخرج إليهم محمد ﷺ ليدعوهم إلى الله، فإذا

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 359).

(2) تفسير ابن كثير: (6/ 28).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 675).



بكفار مكة يذهبون وراءه **ويقولون**: لا تصدقوه، إنه ساحر، إنه كاذب، إنه كاهن، ثم اتفقوا أيضاً على أن يقولوا للناس هذه الشبهة حتى يُحذِّروا من رسول الله ﷺ، وخلاصتها: أن هناك رجلاً، ويقصدون به محمداً ﷺ، وإنما لم يذكروا اسمه احتقاراً لشأنه، هذا الرجل يُخبركم أن هناك بعثاً ونشوراً لأجسادكم التي دُفنت وتمزقت أو صالها في التراب وصارت كل قطعة منها بعيدة عن الأخرى، وأنكم ستبعثون في خلق جديد يُعيدُه الله كما كان قبل الموت، وهذا القول كان يصدر منهم على سبيل السخرية والتعجب والاستنكار له <sup>(1)</sup>!!

**وقوله**: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ <sup>(٨)</sup>، وهذا الرجل الذي يقول هذا القول؛ إما أن يكون كذب على الله بهذا القول ونسبه إلى الله، والله لم يقله، أو أنه قاله بسبب الجنون الذي أصاب عقله فلا يعقل ما يقول، فرد الله على اتهامهم هذا لرسول الله ﷺ، بكلمة (بل)، وهي تأتي للإضراب وإبطال ما سبق، **والمعنى** ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق، فهم جاحدون للآخرة ومنكرون لما يجري فيها، ومصيرهم إلى العذاب الشديد يوم القيامة، بسبب ذلك، كما أنهم اليوم منغمسون في ضلال بعيد كل البعد عن الحق والصواب، وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به <sup>(2)</sup>، وقدم ذكر حالهم في الآخرة قبل ذكر حالهم في الدنيا؛ لأن

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 359).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 676).



حالهم في الآخرة ثمرة لحالهم في الدنيا، وأراد بالتقديم التنبيه لأمر الآخرة والاهتمام بها.

**ثم قال:** ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنِ خَسْفٍ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ تُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾، **الاستفهام** للتعجب الإنكاري، **والرؤية** بصرية بقرينة ذكر (إلى) بعدها، والمقصود النظر والتأمل والتفكر فيما بين أيديهم وما خلفهم من المخلوقات العظيمة في السماء والأرض، وجعلهما بين أيديهم وخلفهم، لأنهما محيطتان بهم، فأينما نظروا في أي جهة وجدوا آثار خلق الله سبحانه، ومن قدر على خلق تلك المخلوقات العظيمة من العدم قادر على بعثهم وإعادةهم بعد الموت، وقادر على إهلاكهم كما أهلك من سبقهم من الأمم المكذبة، والخسف هو انشقاق الأرض وابتلاع من على ظهرها، كمثل حصل لقارون، فقد خسف الله به وبداره الأرض فما زال يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، **والكسف** هي القطع الضخمة من العذاب التي تنزل من السماء، كما حصل لقوم شعيب **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، **وفيه إشارة** إلى أن الله قادر على أن يُعذبكم من تحتكم بالخسف أو من فوقكم بإسقاط قطع كبيرة من السماء عليكم، والآية هي الحجة البيّنة، **والمقصود بها هنا** عظمة خلق السموات والأرض، وقدرته سبحانه على هلاكهم، والعبد المنيب هو كثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله؛ كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن نظره للمخلوقات سيكون نظر فكرة وعبرة، فيتعظ بها.



## فوائد وهدايات من الآيات :

- 1- بيان سعة علم الله المحيط بكل شيء.
- 2- بيان فضل أهل العلم عند الله تعالى، وأن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** استشهد بهم على التوحيد وصدق القرآن وتحقق البعث والنشور.
- 3- بيان جهل المشركين في إنكارهم قدرة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على البعث، ولم يعتبروا بخلقه للسموات والأرض.
- 4- بيان أن أصحاب القلوب المنية الراجعة إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هي التي تستفيد من التفكر في الآيات الكونية.



## تفسير المقطع الثاني من سورة سبأ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٍ أُوَّيٍّ مَّعَهُ، وَالطَّيْرَ وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ ۝١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَدِاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ وَلِسْلِمَنْ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ ۝١٢﴾ وَأَسْلَنَّا لَهُ، عَيْنَ الْقَطْرِ ۝١٣﴾ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۝١٤﴾ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٥﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ، مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٦﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۝١٧﴾ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتَ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٨﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ ۝١٩﴾ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ۝٢٠﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝٢١﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ۝٢٢﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝٢٣﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٢٤﴾

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٍ أُوَّيٍّ مَّعَهُ، وَالطَّيْرَ وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ ۝١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَدِاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾،



والمناسبة في ذكر قصة داوود عليه السلام بعد ذكر تكذيب المشركين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو التلميح إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيمنح رسوله صلى الله عليه وآله وسلم النصر والتمكين بعد هذا الإيذاء والكفر من قومه، كما منح الله داوود الملك بعد أن كان شخصاً عادياً، ولم يكن في آباءه الملك، وأعطاه النبوة والكتاب فضلاً منه، وأمر الله الجبال بترجيع التسبيح معه<sup>(1)</sup>، فقد كان داوود يُسَبِّح بصوتٍ جميل فتهتز طرباً له الجبال فتسبح معه، وكذلك الطير تُرْجِع معه، ونصب الطير عطفاً على محل يا جبال، لأنه منصوب تقديرًا، **إذ المعنى**: نادينا الجبال والطير<sup>(2)</sup>، **ومن الفضل الذي أعطاه الله لداوود** أن ألان له الحديد، وهو جسم صلب شديد الصلابة، إلا أن داوود كان يُشكِّله بيده ليصنع منه ما يشاء<sup>(3)</sup>، وأذن له أن يصنع من هذا الحديد الدروع الواسعة التي تغطي الجسم، وعلمه كيف يعمل لهذه الدروع حلقاتاً مناسبة لا صغيرة ولا كبيرة، وأن تكون هذه الدروع متناسبة مع الأجساد التي تلبس عليها، والسر: نسج الدروع<sup>(4)</sup>، والحديد غالباً يُخاط بالمسامير التي يُضرب عليها ويُثَبَّت بها، ومعنى ذلك أن هذه المسامير تكون مناسبة في مكانها للحلق التي تُربط إليها والقطع التي تلحق بها بحيث لا تسقط ولا تُؤذي من يلبسها، وأمرهم أن يعملوا عملاً صالحاً، وهو يشمل الإيمان والطاعات والقربات وما ينفع الخلق من الأعمال، فكل ما ينفع الخلق فهو صالح، وكل ما

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 671).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 362).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 355).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 362).



يضر الخلق فهو غير صالح، وما عملوا من عمل فلا يخفى على الله، والإخبار جاء على سبيل التهديد والوعيد، **أي:** احذروا أن تُخالفوا أمر الله؛ لأن الله مطلع على أعمالكم وأحوالكم.

**وقوله:** ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ **أي:** وسخر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لسليمان الريح، فصارت طوع أمره، وجعلها تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين، فتسير من الصباح إلى الظهر مسافة شهر، وتسير من الظهر إلى المغرب مسافة شهر، وهذا يعني أن ما كان يُنجزه سليمان في رحلته في شهرين ينجزه في يوم واحد، ومن النعم التي منحها الله لسليمان أن أسأل له عين النحاس فصار يُذِبه دون الحاجة إلى أن يُوقد عليه النار<sup>(1)</sup>، وكان يستخدمه في صناعته، والصناعة التي يُدمج فيها النحاس بالحديد تكون قوية وصلبة، وسخر الله لسليمان من الجن من يخدمه ويعمل طوع أمره بأمر ربه، ومن يخالف أمره منهم نذقه من عذاب السعير في الآخرة، **وقيل:** يُعَذَّب في الدنيا بعذاب الحريق الذي يُشبه عذاب النار في الآخرة<sup>(2)</sup>.

**وقوله:** ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَرِّبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ **أي:** ويعمل الجن المسخرون لسليمان ما يرغب ويطلب منهم من بناء المحاريب، وهي في الأصل القلاع

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1586).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 673).



الحصينة التي يُحارب من خلالها، ثم بعد ذلك استُعيرت لكل مبنى قويٍّ مُشيد، ومنه مباني الصلاة، ففي عهد داوود كانت تُبنى مباني مُشيدة يُصلي فيها، أما ما يُطلق عليه اليوم في المساجد باسم المحراب وهو القبلة الخارجة قليلاً عن المسجد، فهذا اسمٌ حادثٌ لم يُعرف عند المسلمين إلا في القرن الثاني الهجري، والأصل فيها أن الناس لما كانوا يبنون المساجد كانوا يجعلون علامةً جهة القبلة على شكل كوة يُعرف بها اتجاه القبلة للدخول إلى المسجد، ثم وسّعوها قليلاً ثم صارت مكاناً للإمام يُصلي فيه، وأول ما فعل ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك في مسجد دمشق، ولما وُسّع المسجد النبوي في القرن الثاني الهجري وُضع له أول محراب، وذلك في مدة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة<sup>(1)</sup>،

**والتماثيل:** جمع تماثيل، وهي الصور التي للحيوانات من النحاس أو الحديد، فقد كانت الجن تصنعها، وكانت التماثيل في عهد داوود وشريعته غير محرّمة، وإنما حُرّمت في شريعة الإسلام لما صارت ذريعة إلى الشرك، وكانوا أيضاً يصنعون له جِفاناً، وهي جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة التي تشبه البركة العظيمة، وما زال اسم الجفنة مشهوراً إلى الآن، وهو وعاءٌ للطعام يُوضع فيه فيقترب الناس من حوله فيأكلون منه، والجواب جمعُ جابية، وهي البركة العظيمة المنقورة في الجبال الصماء لحفظ الماء لسقي الحيوان والزرع، والقدر: هي التي يُطبخ فيها الطعام، وصفت بأنها راسية تبقى في مكان الطبخ لكبر حجمها وثقلها، مأخوذ من الجبال الرواسي لثبوتها وثبوت الأرض بها<sup>(2)</sup>،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 161).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (4 / 439).



فلا تتزحزح منه، بل يُعترف منها الطعام غرماً، وأمر الله آل داوود، وهم أهله وذريته ويدخل في ذلك من آمن به، أن يعملوا أعمالاً صالحة شكراً على هذه النعم، فإن النعم لا تدوم إلا بشكر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ثم وصف الشاكرين من الناس لربهم بأنهم قلة، وهذا هو واقع الناس في كل زمان ومكان، فقليل من الخلق من يشكر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالطاعة والعمل الصالح.

**قال:** ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١٤)، فلما نزل الموت بسليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، لم تكتشف الجن موته، فحين جاء موعد قبض روحه أعلم بذلك، **وفي الحديث:** "ما من نبي يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة" (١)، فالأنبياء لا يموتون مثل البشر فجأة، بل يُخبرون بالموت، فأخذ سليمان عصاه وتوكأ بها وجلس على كرسيه الذي كان يحكم منه فقُبضت روحه، فظل على هذه الحالة فترة من الزمن، فكانت الجن تنظر إليه من بعيد وتهابه وتستمر في إنجاز أعمالها المُكلَّفة بها من سليمان وهم لا يدرون أنه قد مات، وما علموا بموته إلا بعد أن أكلت الأرضة لب عصاه الذي كان متوكأً عليها، فانكسرت فسقط على الأرض، فحينئذ تبين للجن أن سليمان قد مات، واكتشف الناس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ لأن المشهور عند العوام أن الجن تعلم الغيب، ولو كانوا يعلمون أن سليمان قد مات ما استمروا في تنفيذ الأعمال المذلة لهم والشاقة عليهم حولاً كاملاً، وهم يحسبون أنه حي (٢).

(١) صحيح البخاري: (٤٦ / ٦)، برقم: (٤٥٨٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٣٧١ / ٢٠).



**ثم قال سبحانه:** ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ۝١٥﴾، ثم ذكر الله قصة قوم سبأ، وهي قصة تبين أثر الكفر والمعصية في زوال النعم وحصول النقم، **وسبأ هو** عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وسُمي سبأ؛ لأنه أول من سبأ في العرب <sup>(1)</sup>، وهذه القبيلة تنسب إليه، وكانوا يسكنون في مأرب، وهي مدينة معروفة الآن، والآية هي العلامة الواضحة البيّنة، وهما الجنتان الموجودتان على يمين واديهم وشماله، وقد أحاطتا به من جهتيه، وكانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها المكتل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها <sup>(2)</sup>، فامتّن الله عليهم بهذه الثمار، وأمرهم أن يأكلوا منها فهي رزق الله لهم، وأن يشكروا الله الذي أعطاهم ذلك بالإيمان به والعمل الصالح، فبلدهم أرض طيبة خصبة ذات مناخ مناسب، وفيها الأمطار والمياه والثمار الحسنة البعيدة عن الأوبئة، وأودع فيها البركة، قد منحها لهم رب غفور يغفر زلاتهم وذنوبهم إن تابوا ورجعوا إليه.

**قال:** ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾، **أي:** فابتعدوا عن الإيمان ولم يمثلوا أمر الله ولم يشكروا نعمه، فأرسل الله عليهم سيل العرم، **والعرم** اسم للوادي الذي ينزل منه السيل، أو وصف للسيل، من العرامة وهي الشدة **أي:** سيل شديد

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 505).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 367).



القوة، أو اسم للسد الذي يجتمع فيه الماء<sup>(1)</sup>، وهو سد مأرب المشهور، ولا مانع أن يكون نزل بهم سيل الوادي الشديد القوة فخرّب بسببه السد فطمّ البيوت والوديان والمزارع؛ فتمزقوا في البلدان، فخرجوا من اليمن باتجاه الشام والجزيرة ونحوها من البقاع، وهلكت تلك الجنتان، وأبدلوا بجنتين ضد وصف السابقتين في الحسن والثمر، ولم يعد ينبت فيهما شيء من الأشجار المثمرة إلا أشجار قليلة الفائدة مثل **الخمط**، وهو شجر الأراك، **وقيل**: كل شجرة ذات شوك، **والأثل وهو** شجر لا ثمر له، وشيء من أشجار السدر التي فيها منفعة قليلة سواء في ثمرتها أو في نوعها<sup>(2)</sup>، وما حصل لهم من تحويل النعمة إلى نقمة كان بسبب كفرهم بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وما نعاقب بهذا العقاب الشديد إلا كل جحود مبالغ في الكفر.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾<sup>(١٨)</sup>، موضع هذه الآية من حيث الترتيب الزماني أنها قبل الهلاك، ولكنه ذكر النعمة الأولى وكفرهم بها والعقوبة لهم بحرمانهم منها، ثم ذكر النعمة الثانية وكفرهم بها والعقوبة لهم بحرمانهم منها، والنعمة هنا هي نعمة تقارب السير وأمن الطريق، حيث جعل بين بلادهم في مأرب وبين بلاد الشام قرى كثيرة تظهر للعيان، ومتقاربة المسير؛ لأن هذه القرى بُنيت بتقدير الله بحيث يقطع المسافر المسافة بين القرية والتي تليها بمرحلة واحدة دون

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/343).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1590).



مشقة وبيات في الأخرى، وهكذا، وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى في أي وقت شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافون عدوًّا، ولا جوعاً ولا عطشاً<sup>(1)</sup>، وقدّم ليالي على الأيام إشارة إلى توفر الأمن والأمان في طريقهم في أي وقت.

**قال:** ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾<sup>(١٩)</sup>، فملّوا الراحة والأمن ورغد العيش، وبطروا نعمة الله عليهم بتقريب المسافات، فطلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة؛ ليمشوا في الصحراء المنقطعة ويتزوّدوا للأسفار البعيدة، ويذوقوا مشقة السفر، وهذا يدل على قلة فقههم وكثرة طغيانهم وبطرهم، وظلموا بذلك أنفسهم، فاستجاب الله لطلبهم فجعلهم الله عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمْرهم وشأنهم<sup>(2)</sup>، ففرّقهم في البلاد حتى ضرب المثل بفرقتهم، **فقل:** تفرقوا أيدي سباً<sup>(3)</sup>، فتركوا بلدهم وغادروها إلى أماكن متعددة من الأرض، وصاروا مجرد أخبار في السير والتواريخ، يقرأ خبرهم من أتى بعدهم، وما حصل لقوم سباً عظام متعددة، وعبر متجددة لمن يعتبر وخص منهم كل صَبَّارٍ وشكور، **الناس بين حالين: إما ضراء؛** فالواجب فيها الصبر عليها، **وإما سراء؛** فالواجب فيها الشكر، ولا يخرج العبد عن هذين الحالين، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.

(1) التفسير الميسر: (1/ 430).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 678).

(3) ينظر: المستقصى في أمثال العرب: (2/ 89).



## فوائد وهدايات من الآيات :

- 1- فضل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على داوود وسليمان بالنبوة والملك.
- 2- بيان أن نعم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** تستمر وتزداد بالشكر، وتذهب وتتحول إلى نقمة بالكفر.
- 3- أن الجن لا يعلمون الغيب كما يظن بعض العوام والمشعوذين والدجالين.
- 4- بيان العِظة والعبرة بما حصل لسياٍ من تفرّق وذهاب النعم عنهم بسبب الإعراض عن شكرها.
- 5- أن الأمن نعمة عظيمة لا يعرف قيمتها إلا من فقدوها.



## تفسير المقطع الثالث من سورة سبأ

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدُونَ ﴿٣٠﴾ .

**قول الله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠)، يُبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ

**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وأشرك به فإنه قد وقع في شرك إبليس، فإن إبليس غلب على ظنه أن المشركين والكفار سيتبعونه، فاجتهد في إغوائهم، فلما أغواهم صدق فيهم ظنه، فإن الصدق موافقة الخبر للواقع، والمقصود بهم عموم من أطاعه وساروا في طريقه، ويدخل فيهم قوم سباً<sup>(1)</sup>، **واستثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فريقاً من المؤمنين، وهم قلة ممن لم يُطع إبليس ولم يسر في طريقه ويُشرك بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فخيّبوا رجاءه ولم يصدق فيهم ظنه.

**وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾**<sup>(٢)</sup>، ولم يكن لإبليس حجة يقنعهم بها ولا قهرهم ولا أكرههم حتى يتبعوه، وإنما أضلهم بالوسوسة والتزيين، ولو تفكّر الإنسان وتأمّل في ذلك لما أطاع الشيطان، والاستثناء منقطع، **ومعناه** ولكن ابتليناهم بوسوسته<sup>(2)</sup>، وكان ذلك بعلم الله الأزلي أولاً، وأراد الله أن يتحقق هذا العلم في الواقع ثانياً؛ ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسن عبادة ربه **عَزَّ وَجَلَّ** في الدنيا، ممن هو في شك منها<sup>(3)</sup>، وبهذا يزول الإشكال المتبادر إلى الذهن بأن الله لا يعلم بالشيء قبل حدوثه، وحدثنا بما نعقل، فإننا لا نعلم بالشيء إلا بعد وقوعه، فإن وقع علمناه وحاسبنا الله عليه بعد وقوعه منا، وقد تحقق العلم واقعاً بإغواء الشيطان لمن اتبعه وعدم سلطانه

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 512).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 371).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 513).



على المؤمنين، فانقسم الناس إلى فريقين: فريق أطاع الشيطان وذهب في طريقه فكفر بالله وشك في البعث والنشور، وفريق خالفه وآمن بالله وباليوم الآخر، وربك يا محمد على كل شيء حفيظ، يحضر ويجمع الأعمال ليُجازي بها الخلق، وقد علم وأحاط بالأشياء كلها، فلا يخفى عليه من أمر الخلق خافية.

**ثم قال سبحانه لنبيه: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢)،** قل يا محمد للمشركين الذين اتخذوا أصناماً وجعلوها آلهة كذباً وادعاء، وهي لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً، ولا تملك مقدار وزن ذرة في السموات ولا في الأرض وهي صغار النمل، ولا يملكون شيئاً فيهما استقلالاً ولا على سبيل الاشتراك، وليس لله من معين على خلق شيء، بل الله هو المستقل بالأمر وحده، خلقاً وتديراً من غير مشارك ولا منازع ولا معارض له **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

**ثم قال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٣)،** ولا تنفع شفاعة الشافع عند الله إلا لمن أذن الله له أن يشفع، ورضي عن المشفوع، **كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾** [الأنبياء: 28]، فإذا لم يتحقق الشرطان فلا فائدة من الشفاعة، والذي يأذن لهم بالشفاعة هم المقربون المحبوبون إليه من الملائكة والرسل والأنبياء والشهداء والصالحين، أما الكفار والأصنام فلا يؤذن لهم ولا تقبل شفاعتهم، **وفي المقصود بالذين فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قولان<sup>(1)</sup>، الأول:** أن المقصود بالذين فُزَّعَ

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (373/4).



عن قلوبهم هم الملائكة، الذين تم الإشارة إليهم في الشفاعة، **والمعنى** أن الله **عَزَّجَلَّ** إذا تكلم بالوحي وسمع أهل السموات كلامه، خضعوا لأمره وخشعوا له، وهذا الفزع الذي حصل لهم هو فزع تعظيم وخشية، فإذا زال الفزع عن قلوبهم، سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟!، فتقول الملائكة المقربون: قال الحق، **أي**: أنه قد أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين، **وفي الحديث**: "إن الله إذا أمر بالأمر كأنه سلسلة على صفوان فتفزع الملائكة حتى إذا انتهى الأمر أفاقوا، فإذا أفاقوا قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق" (1).

**والثاني**: أنهم المشركون، **والمعنى** حتى إذا ذهب الفزع عن قلوب المشركين يوم القيامة، سألتهم الملائكة عن ما أرسله الله إليهم من الرسل وما جاءوا به، فأقروا أنهم جاءوا بالحق وهم كفروا به وجحدوه، بناءً على أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور في الآية هو المشركون، والصحيح القول الأول للحديث، ولأن القصد الردّ على الكفار الذين عبدوا الملائكة، فذكره شدة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له (2).

**و(العلي الكبير)**: اسمان من أسماء الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فهو العلي بقهره، والكبير بعظمته، وذيل الآية بهما؛ لأن الأمر عظيم والموقف رهيب!.

ثم أمر الله رسوله بمحاجة المشركين بالأدلة العقلية، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤)،

(1) صحيح البخاري: (9/141)، برقم: (7481).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1596).



**قل يا محمد** للذين أشركوا بالله غيره من الذي يرزقكم ويرزق الخلق أجمعين؟! وذكر السماء لأن سبب الرزق هو المطر الذي ينزل منها، وذكر الأرض لأنها نبت بالثمار والحبوب بعد نزول المطر إليها، ثم أبلغهم أن الذي يفعل ذلك هو الله وليست الأصنام التي اتخذتموها آلهة من دون الله، واستخدم معهم أسلوب التنزل مع الخصم على سبيل الافتراض، ثم تركهم يختارون الجواب الصحيح بعد تأمل وتفكر، وفائدته تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل، قل لهم: فأنتم تعبدون الأصنام التي لا تملك شيئاً، ونحن نعبد الله الخالق الرازق، من هو على هدىً نحن أو أنتم؟! ولا شك أن من يعبد الصنم هو صاحب الضلال المبين، أما من يعبد الله الخالق العظيم فهو صاحب الحق والهدى الواضح، وأتى بحرف "على" مع الهدى، وحرف "في" مع الضلال؛ لأن "على" معناها العلو والارتفاع، فالنفس التي تهتدي ترتفع عن الأرض وتخرج عن طور الانحباس في المعاصي والشهوات، وتكون عالية المكانة والشأن، و"في" معناها الظرفية، والانحباس في داخل الشيء، وهكذا هو حال الأنفس مع الضلال، والهدى واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان، بينما الضلال يحتاج إلى بيان لخفائه، فوصفه بالمبين.

**وقوله:** ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** (٢٦)، قل لهم يا محمد اتركونا وشأننا، فلا تسألون عن ذنوبنا، ولا نحن نسأل عن ذنوبكم، وسيجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا، وسيوضح لكم من هو المُحق ومن هو



المُبطل، وهو سبحانه الفتاح الذي يحكم بين عباده بالعدل، وهو العليم بحالهم، فلا يغيب عن علمه شيء من أمورهم، وهذه الآية وأمثالها من الآيات تُسمّى بآيات المَوادعة والإعراض عن المشركين، وكان ذلك زمن الضعف، ثم جاءت آيات الجهاد بعد ذلك لدفع أذى المشركين بالسيف والسنان.

**وقوله:** ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۚ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)،

وقل لهم يا محمد أخبروني بالحجة والدليل عن هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله في الألوهية، مع إقراركم بأنهم ليسوا شركاء لله في الخلق والرزق، (كلا) هذه كلمة ردع وزجر تُبطل ما سبق، فلا يوجد شريك لله، بل هو المنفرد سبحانه بالخلق والإيجاد والأمر والألوهية **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهو العزيز الذي لا يُغالبه شيء، والحكيم الذي ليس في فعله وأمره خلل ولا نقص، وهو بهذا من يستحق إفراده بالألوهية، وهذا من طريقة القرآن في الاستدلال بأفعاله وأسمائه سبحانه على استحقاقه للألوهية.

**ثم قال:** ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)، **الخطاب لرسول الله ﷺ، وكافة:** بمعنى إلى جميع الناس، مأخوذ من كفّ الثوب إذا ضم طرفيه<sup>(١)</sup>، **وهذه من خصائص نبينا محمد ﷺ، كما في الحديث:** "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وُبعثت إلى الناس عامة"<sup>(٢)</sup>، فشملت رسالته البشرية كلها، ولذلك صار الخلق بعد بعثته كلهم

(١) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 450).

(٢) صحيح البخاري: (1/ 74)، برقم: (335).



يُسمون بأمة محمد ﷺ، فمن استجاب له وآمن به صار من أمة الاستجابة، ومن لم يستجب يبقى في أمة الدعوة إلى الإسلام، وأرسله الله بشيراً لمن أطاعه بالثواب والجنة، ونذيراً لمن عصاه بالعذاب والنار، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعدّه للطائعين والعصاة، والقليل منهم من علم ذلك فآمن به، ولو نظرت اليوم إلى أهل الأرض لوجدت أن أكثر الناس كفار بالله وبرسوله.

**ثم قال:** ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩)، ويقول **المشركون** المكذبون بالبعث والنشور للنبي ﷺ، متى موعد قيام الساعة على سبيل الاستهزاء والاستنكار، وإذا أردت أن نُصدقك فأخبرنا بموعده الآن، وهو شرطٌ باطل، لأن عدم معرفة موعد قيام الساعة لا يعني كذب من أخبر عنه، لأنه غيب لا يعلمه أحد، أخبر الله أنه سيأتي لا محالة، فلا يصح أن يُربط معرفته ذلك بصدق الأنبياء وكذبهم.

**ثم قال:** ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِزُّونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، قل يا محمد لهؤلاء **المستعجلين بالعذاب**: لكم ميقات يومٍ محدّد سيأتي في موعده، لا تتأخرون عنه لحظة واحدة، ولا تتقدمون عنه لحظة واحدة، والسين والتاء للمبالغة، وهذا الميعاد هو يوم القيامة<sup>(1)</sup>، وهو من الغيب المطلق لم يخبر به نبي مرسل ولا ملك مُقرب، فلا تشغلوا أنفسكم بالسؤال عنه.

**فإن العقلاء** لا يبحثون عن موعد قيام الساعة، وإنما يستعدون لها بالإيمان

(1) تفسير ابن جزى: (2/ 167).



والعمل الصالح، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله متى الساعة؟! فقال له: "ماذا أعددت لها" (1).

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن الإيمان الصحيح يمنع من إغواء الشيطان للعبد.
- 2- أن الأدلة العقلية تبطل الشرك وعبادة غير الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 3- إثبات الشفاعة يوم القيامة بشرطين: الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع.
- 4- أن صاحب الهدى مُستعلٍ بالهدى، وأن صاحب الضلال محبوس في ضلاله.
- 5- أن رسالة النبي ﷺ عامة للخلق أجمعين.

(1) صحيح ابن خزيمة: (3/ 149)، برقم: (1796).



## تفسير المقطع الرابع من سورة سبأ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

**قول الله تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١)، **يُخْبِرُ الله** **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** عن موقف كفار قريش من القرآن والكتب السماوية السابقة له كالنوراة والإنجيل، فإنهم صرّحوا بالكفر بها جميعاً، وكانوا في الواقع لا يؤمنون بالكتب السماوية السابقة؛ لأنها لم تكن مُنزلة إليهم، ولكنهم صرّحوا بعدم إيمانهم بها؛ لأنها من ضمن الأدلة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، فقد بشر الله بمحمد ﷺ فيها، ولو ترى يا محمد كيف سيكون حال هؤلاء الكفار حينما يُبعثون ويُحشرون يوم القيامة، حين تُوقفهم الملائكة بين يدي الله للحساب والسؤال؛ لوجدت شيئاً مُهيئاً وعجيباً، ومما يحصل في ذلك اليوم من المجادلة والخصومة والاتهامات المتبادلة بين الذين كانوا يُعدون ويُحسبون من الضعفاء، والذين كانوا يُعدون ويُحسبون من المتكبرين، والسين والتاء هنا للعد والحساب<sup>(1)</sup>، **فيقول الضعفاء:** لولا أنتم أيها القادة المتكبرون استبدادكم بنا ومنعكم من يُريد الإيمان منه والوقوف في طريقه لكنا مصدقين بالله ورسله.

**وقوله:** ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا أَلَمْ نَكُنْ صَدَقْنَكُمْ عَنْ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ﴾ (٣٢)، لم يقبل المتكبرون هذا الاتهام، بل ردوا عليه بسؤال استنكاري تعجبي من قولهم هذا، وهذا الإنكار كذب مخالف للواقع دفعهم إليه خوفهم تحمل المسؤولية في المحشر، وهذا تنصّل من المستكبرين

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 205).



عن إضلال المستضعفين، بل كان لهم دور كبير في إضلال الناس ومنعهم من الإيمان، وهو الحاصل اليوم في العالم كله، فإن من يملك القوة ووسائل التأثير والمال والإعلام، هو الذي يجعل الناس يسرون في طريق الضلال إما ترهيباً وإما ترغيباً، ولكن المستكبرون يوم القيامة لا يريدون أن يعترفوا، بل قالوا للمستضعفين: إن إجرامكم كان هو سبب كفركم، وليس نحن.

**وقوله:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُؤٌ آتِلٌ وَالنَّهَارِ إِذَا تَأَمَّرْنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣)، فلم يقبل الضعفاء هذا التبرير من المتكبرين، بل ردوا عليهم بقولهم: بل أضلنا مكرهم المستمر الذي لم يكن قليلاً، بل كنتم تستغرقون ليلكم ونهاركم في التفكير بالأساليب والوسائل التي تُغووننا وتُبعدوننا بها عن الهدى، وكان من ضمن مكرهم بنا أنكم أمرتمونا بالكفر بالله وجعل الأصنام مساوية ومضاهية لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، والمكر هو الاحتيال والخديعة للآخرين، وهو أسلوب من أساليب إبطال الحق الذي كان يستخدمه المستكبرون لتزيين الكفر والباطل للضعفاء والأتباع، فلما رأى الفريقان العذاب وأنه واقعٌ بهم لا محالة؛ أخفوا الحسرة في نفوسهم، واستشعروا الخيبة والخزي، ولم يظهروها حتى لا يشمت بهم غيرهم، **وقيل:** أسروا هنا بمعنى أظهروا، فتكون من الأضداد<sup>(1)</sup>، أي: وظهرت حسرتهم في وقت لا فائدة منها، فبادرتهم الملائكة فوضعت السلاسل في أيديهم وربطتها إلى

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1603).



أعناقهم وألقتهم في النار، ولن يُجزوا إلا بما يستحقون، وهو إشعار بعدل الله، فلا يظلم الله أحداً ولو كان كافراً، بل كل واحد سيجزى بقدر عمله.

**ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤)**، ثم أخبر عن حال الأمم المكذبة بالرسل، وفي ذلك تسلية لنبيه محمد ﷺ، وعبر عنهم بالنذير؛ لأنهم جاءوا يحذرونهم من الكفر والشرك، وخص المترفين بالذكر؛ لأنهم غالباً أول المكذبين للرسل، والمترفون هم المنعمون من أهل تلك القرى، الذين يعيشون في رغد من العيش، فيسارعون إلى تكذيب الرسل تكبراً عليهم، دون تأمل وتفكر في الحق الذي جاءوهم به، وفي حديث ابن عباس في حوار أبي سفيان مع هرقل، حين قال له: "من يتبعه الأغنياء أم الضعفاء؟ قال: الضعفاء، قال هرقل: وكذلك أتباع الرسل" (1)، فمن يسارع إلى اتباع الرسل والإيمان بهم غالباً الضعفاء البعيدون عن الترف والكبر والخطيئة.

**وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥)**، وهذه شبهة باطلة وما زالت متوارثة حتى اليوم، فبعض الناس يظن أن الله إذا أنعم عليه في الدنيا بمال وأولاد ومنصب وجاه أن هذا من إكرام الله له في الدنيا، وما دام أكرمه في الدنيا؛ فإن الله سيكرمه في الآخرة، وهو قياس باطل؛ لأن منح النعم في الدنيا لا علاقة له بمنح النعم في الآخرة، فالدنيا لها قانون خاص، والآخرة لها قانون خاص، فإن الله يُعطي الدنيا من أحب ومن لا يُحب، للابتلاء، فقد تجد مؤمناً

(1) ينظر القصة كاملة في: صحيح البخاري: (45 / 4)، برقم: (2941).



مُنْعَمًا يشكر الله، كما أنعم على سليمان وداود وذوي القرنين وغيرهم من المؤمنين الصالحين الذين ملكوا الأرض، وقد يمنح الله النعم الكفار، كما حصل لقارون والنمرود وغيرهما، فالنعمة الدنيوية وعدمها لا علاقة لها بأن العبد مُكرم أو مُهان، إنما النعمة الأخروية وعدمها هي التي لها علاقة بالكرامة والإهانة، فمن أنعم عليه في الجنة فقد أكرمه، ومن ألقاه في النار فقد أهانه!

**فمن جهل هؤلاء المترفين المكذابين** أنهم ظنوا أن إنعام الله عليهم بكثرة المال والولد في الدنيا أنهم لن يعذبوا في الآخرة، **فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)، قل لهم يا محمد:** لا تقيسوا موضوع نعم الدنيا على نعم الآخرة، فنعم الدنيا يعطيها الله من أحب ومن لا يحب ابتلاءً واختباراً، فقد يختبر من يشاء من المؤمنين والكافرين بالغنى وبسط الرزق، أو يختبرهم بالفقر والتضييق عليهم في رزقهم؛ لينظر كيف يتعاملون مع هذا الاختبار، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من ذلك، ولو علموا لما قالوا هذا القول الباطل.

**ثم قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضَعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (٣٧)،** وليست أموالكم ولا أولادكم التي وهبكم الله وتفتخرون بها على غيركم هي التي تقربكم من الله وتقودكم إلى رضوانه طالما أنكم كافرون بالله ورسله، وإنما ينتفع بها المؤمن الذي عمل الصالحات، واستخدم المال في طاعة الله وأنفقه في سبيل الله، وربّى أولاده على الإيمان والعمل الصالح؛ فيؤجر على تربيتهم



الصالحة ويستفيد من دعائهم له، والضعف اسم جنس<sup>(1)</sup>، وهو مضاعفة الأجر حيث يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والباء هنا سببية، أي: بسبب أعمالهم الصالحة قرَّبهم الله منه وضاعف أجرهم وثوابهم، **وَيُنْزِلُهُمُ اللَّهُ الْغُرُفَاتِ** ويُسكنهم فيها، وهي جمع غرفة، والغرفة هي الحُجْر المرتفعة في الجنة التي يستأنس من سكن فيها بالنظر إلى ما حوله من نعيم الجنة، ولذلك تجد الأغنياء والأثرياء في الدنيا يبنون لهم ما يُسمى **بـ(الطيرمانات)**، وهي الغرف المرتفعة في أعلى بيوتهم، بحثًا عن السعادة والتلذذ بما تحتهم من المناظر، فما بالكم بغرف الجنة التي جاء وصفها في **الحديث**: "يتراءون أهل الغرف كما يتراءى أحدكم النجم أو الكوكب الدري الغابر في الأفق"<sup>(2)؟!!</sup>، ومنحهم الله في هذه الغرف نعمة الأمن، فجمع لهم بين نعمة الأمن ونعمة التلذذ بالنعم!.

**ثُمَّ قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ**

**مُحْضَرُونَ﴾**<sup>(٣٨)</sup>، وهذه على طريقة القرآن في الوعظ والإرشاد، حيث يذكر حال أهل الجنة ترغيبًا فيها، ويذكر حال أهل النار ترهيبًا منها، والمقصود بالسعي هنا الجد والاجتهاد في محاربة الحق والدعوة إلى الكفر وإضلال عباد الله، والتكذيب بالحجج والبراهين التي جاءت بها الرسل وإبطالها؛ لكي يمنعوا الناس عن الإيمان بها ويُبعدونهم عنها، ويفعلون ذلك ظنًا منهم أنهم مسبقون

(1) تفسير ابن عطية: (4/ 422).

(2) صحيح البخاري: (4/ 119)، برقم: (3256).



الله وهاربون من عقوبته<sup>(1)</sup>، فلن يُفلتوا من عقوبته وعذابه، بل تُحضرهم الملائكة وتلقيهم في جهنم لا يجدون عنها محيصاً.

**وقوله:** ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾<sup>(٣٩)</sup>، صدر الآية سبق تفسيره، ولكنه زاد **لفظ:** (من عباده)، لأن الخطاب فيها للمؤمنين تشريفاً لهم، ثم أخبر عن حال نفقة هؤلاء المؤمنين سواء كانت كثيرة أم قليلة؛ فإن الله يُعَوِّضُ المنفق خيراً مما أنفق، وهذا العوض يشمل زيادة المال وبركته في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة، وذيل الآية بما يشعر المنفق بالاطمئنان، ويرغبه بالزيادة في النفقة، لأن الذي يخلفه الله عليه أفضل مما أنفقه هو، وخير هنا بمعنى أتم وأكمل رزقاً<sup>(2)</sup>، لأنه لا رازق على الحقيقة إلا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- أن المخاصمة بين أهل الباطل يوم القيامة دليل على تورطهم في إضلال بعضهم بعضاً.
- 2- محاولة تبرؤ المتبوعين من الأتباع في الآخرة، هرباً من حمل أوزارهم.
- 3- أن الترف سبب من أسباب الكفر؛ لأنه يُؤلِّد الاستكبار، والمُتَكَبِّر لا يستمع إلى الحق بل يُعرض عنه غالباً.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 379).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 220).



- 4- أن المؤمن ينتفع بماله وولده الصالح في الدنيا والآخرة، وأن الكافر والمنافق لا ينتفع بهما في الآخرة.
- 5- أن الإنفاق في سبيل الله بإخلاص وطيب نفس يؤدي إلى مضاعفة المال والبركة فيه في الدنيا، ومضاعفة الأجر والثواب في الآخرة.



## تفسير المقطع الخامس من سورة سبأ

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِإِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٤٠ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْبَحْرَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ٤١ ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ٤٢ ﴿وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ٤٣ ﴿وَمَا ءَانَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ٤٤ ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا ءَانَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٤٥ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئٍ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تُنْفِكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِثَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ٤٦ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤٧ ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ﴾ ٤٨ ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ٤٩ ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِجِي إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ ٥٠ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ٥١ ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُثُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٢ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٣ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ ٥٤ ﴿

**قول الله تعالى:** ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، ثم بيّن ما يحصل لهؤلاء القوم المكذبين من كفار قريش وغيرهم يوم القيامة بعد أن يحشرهم الله جميعاً، ثم يسأل الملائكة، وهو أعلم بهم، فيقول: هل هؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم في الدنيا؟! وإنما خص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين، وهو سؤال استنكاري تقييدي توبيخي للمشركين<sup>(1)</sup>؛ لأن الملائكة منزّهون عما نسب إليهم، فأجابت الملائكة بقولهم: سبحانك! أي: ننزهك ونقدسك عن أن يكون معك إله يعبد، أو أن نرضى أن يعبدنا أحد من الخلق، فأنت ربنا وإلهنا الذي نتولاه ونعبده ولا ناصر لنا من دونك، بل كان أكثر هؤلاء المشركين يعبدون الشياطين حين أطاعوهم في عبادة غير الله، وقد كانت الشياطين تدخل إلى أجواف بعض الأصنام إذا عبّدت، فيعبّدون لعبادتها<sup>(2)</sup>، وكان أكثر المشركين مصدقين للشياطين فيما يأمرونهم به.

**قال الله:** ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وفي يوم القيامة لا يملك المعبود للعابد نفعاً كالشفاعة، ولا دفع ضرر كالعذاب<sup>(3)</sup>، ويقول الله للذين وقعوا في الظلم الأكبر وهو

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 380).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1608).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 378).



الشرك: نالوا عذاب النار التي كنتم تكذبون في الدنيا بها وتجددون وجودها.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَإِذَا نُنَادِيَهُمْ عَلَيْهِمْ أَيُّنَا يَنْتَدِبُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٤٣﴾، وحين كان محمد ﷺ يقرأ على المشركين آيات القرآن الكريم الواضحة؛ يقول بعضهم لبعض: إن محمداً يريد بهذه الدعوة أن يُبعدكم عن آلهة الآباء والأجداد وعن الديانة التي ورثتموها عنهم، واستنفضوا بذكر الآباء حمية الجاهلية في نفوسهم، ولم يذكروا اسم محمد استحقاقاً له، ثم تمادوا في طغيانهم ووصفوا ما جاء به من القرآن بأنه كذب افتراه محمد ﷺ على ربه، وكان من عادة الكفار استبعاد نزول الوحي والرسالة على البشر، بل صرحوا بأن كل ما جاء به محمد ﷺ سحر واضح، وهذه الأقوال المتعددة هي مجموع ما قاله المشركون في محمد ورسالته، مما يدل على كثرة اضطرابهم وتناقضهم، **كما قال الله عنهم:** ﴿إِن كُنتُمْ لِنِي قَوْلٍ مُخْلِيفٍ﴾ [الذاريات: 8].

**وقوله:** ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ٤٤﴾، هذا رد على تناقضهم وقولهم الباطل في محمد ﷺ، وفي القرآن الذي جاء به، فمن أين عرفوا أن هذا افتراء على الله، أو أنه سحر مبين؟! رغم أنه لم يبعث الله فيهم رسولا قبل محمد ﷺ، ولم ينزل عليهم كتباً سماوية يقرؤونها ويفهمون ما فيها ويستدلون بها على قولهم هذا، وهو سؤال تعجبي إنكاري!، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبه يتشبثون بها<sup>(1)</sup>.

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 382).



**ثم قال سبحانه:** ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوهُ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥)، فلا تحزن يا محمد لتكذيب قومك لك، فقد سبقك أقوام كثيرة كذبوا رسلهم، وكانوا أكثر قوة وأطول عمراً وأكثر نعماً منهم، ليس عند هؤلاء من القوة والمكانة والعمر ما يُساوي معشار ما عند الأمم السابقة، **والمعشار** عشر الشيء<sup>(1)</sup>، أي: إن ما عندهم من القوة يساوي واحداً من عشرة من قوة من سبقهم من الكفار كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، حيث كذبت هذه الأمم مع قوتها الرسل الذين أرسلهم الله إليهم فعاقبهم وعذبهم، فكيف كان نكيري على فسادهم وكفرهم؟!، وهو سؤال تعجبي من قوة العذاب الذي نزل بهم وشدته، وفيه تهديد ووعد لكفار قريش إن استمروا في كفهرهم وتكذيبهم لرسوله.

**ثم قال سبحانه:** ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئَ وَفَرْدَى ثُمَّ نَفَعَكُم مَّا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦)، **ثم أمر الله نبيه محمداً** ﷺ حين أكثر المشركون معه الجدل والنقاش، أن يذكرهم بخصلة واحدة قطعاً لكثرة الجدل والنقاش معهم، وهي: أن يخلصوا نيتهم ويعزموا على التفكير والتأمل كل واحد مع نفسه أو كل اثنين مع بعض، وذلك لأن التفكير في جو جماعي لا يُوصل غالباً إلى معرفة الحق بسبب كثرة اللغط وتعدد الأهواء، فالتأمل وحيداً أو مع شخص واحد متجربين من حظوظ النفس حول قضية معينة؛ فالغالب التوصل فيها إلى الحق، والقضية التي طلبوا

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1610).

أن يتفكروا فيها هي حال محمد ﷺ، وما علموا من عقله وصدقه وأمانته من خلال حياته معهم أكثر من أربعين سنة، فهل صفاته وتصرفاته وكلامه وتعامله مع الآخرين يشبه المجنون؟!، فلو سألتهم أنفسهم هذه الأسئلة وقارنتموها بحاله ﷺ؛ لوجدتم أنه أعقل العقلاء، وأنه جاءكم بالحق منذراً لكم بالعذاب الشديد إن لم تسارعوا بالتوبة وترك التكذيب به.

**ثم قال سبحانه:** ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧)، **قل يا محمد للمكذابين بك:** لم أسألكم على الدعوة إلى التوحيد أجراً، وإن كنت قد طلبت منكم شيئاً فخذوه لكم، وهو جواب مقدر لمن زعم أن محمداً ﷺ جاء بهذه الدعوة يريد نفعاً لنفسه بتحصيل الأجر منهم على التعليم والإرشاد لهم، وهو خبر جرى مجرى التحدي لهم؛ لأنه لو كان لأحدهم علم بأنه طلب أجراً منهم لطالب بعد سماعه هذا برده إليه<sup>(1)</sup>، **ثم بين** أنه ينتظر أجره من الله وحده، وذيل ذلك باستشهاد الله تعالى على ظاهره وباطنه وأنه صادق فيما قاله لهم.

**ثم قال سبحانه:** ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨)، **قل لهم يا محمد:** إن ما أنتم عليه باطل، والباطل لا يقف أمام الحق إذا قابله، فإن الله يسلط الحق على الباطل فيبطله، فتأثير الحق على الباطل شديد، **كما قال:** ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]، أي يزيله ويذهب بأثره،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 236).



والمقصود بالحق هنا الوحي الذي يلقيه الله إلى أنبيائه ورسله، و**علام**: صيغة مبالغة من العلم، والغيوب جمع غيب، فلا تخفى عليه خافية، فإذا علم ما غاب عن الناس من باب أولى أن يعلم ما هو ظاهر ومُشاهد لهم.

**ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾** ٤٩، قل لهم يا محمد: إذا جاء الحق؛ فإن الباطل يهلك ويموت، لأن الذي لا يتحرك هو الميت، فلا يوجد له حركة ولا أثر فينتهي أمره، ويزهق **كما في قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** [الإسراء: 81].

**ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾** ٥٠، **قل لهم يا محمد**: إن ضللت عن الحق والهدى، فإن إثم ذلك على نفسي، ولا ينالكم منه شيء، وإن حصلت لي الهداية فبسبب ما يوحيه إليّ ربي من القرآن والسنة، وفيها إشارة إلى أن من أراد الهداية؛ فعليه باتباع الوحي، والواقع أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه لم يكن ضالاً، وأن ما أتى به هو الحق، ولكن هذا يُسمى في علم الجدل والمناظرة بأسلوب التنزل مع الخصم، بحيث يذكر له الواقع على سبيل الاحتمال لغرض الاقتناع، فمحمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أكثر الناس استقامة وصواباً في أخلاقه وسلوكه، بينما قومه يدفنون البنات أحياء، ويشربون الخمر، ويأكلون الميتة، ويسجدون للأصنام، فهو يُشير إلى ضلالهم بطريق التلميح، وهو وسيلة من وسائل المناظرة الحسنة التي لا تجرح المخاطب، وإنما تنبهه إلى انحرافه بطريقة غير مباشرة، وذيل ما سبق بأن الله سميعٌ لأقوالنا قريب من أحوالنا، وهو خبر يفيد التهديد والوعيد للمخالف لأمره.



**ثم قال:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ٥١، ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الكفار حين يبعثون يوم القيامة، ويرون العذاب؛ فيحصل لهم الفرع الشديد من ذلك، ويحاولون الهرب فلا يستطيعون الفرار ولا يجدون ملجأً يلتجئون إليه، وتأخذهم الملائكة من مكان قريب سهل التناول وتلقيهم في جهنم، لرأيت أمراً عجباً! **وفي هذا دليل** على شدة فرع الكافر وخوفه يوم القيامة، وراحة المؤمنين وأمنهم **كما قال عنهم:** ﴿وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ يَوْمٍ إِذْ آمَنُوا﴾ [النمل: 89].

**وقوله:** ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٢ **وقد كفروا** به من قبل **ويَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ٥٣، هذا القول من الكفار ليس في الدنيا، ولكنهم لما بُعثوا بين يدي الله ووقفوا على النار وعلموا مصيرهم؛ آمنوا بالله وبمحمد وبالقرآن وبالبعث وبكل ما كانوا يجحدونه في الدنيا، فلا ينفعهم الإيمان الآن لذهاب وقته، وكيف يحصل منهم ذلك، والتناوش معناه التناول لشيء غير مرغوب فيه من مكان بعيد، ولو كانوا راغبين فيه لاقتربوا منه وأخذوه بحفاوة من مكان قريب، فالحريص على الشيء يقترب منه ويعتني به، وفيه استعارة تمثيلية لحالهم، وأنهم أصلاً ليسوا راغبين في الإيمان حتى في هذه الساعة رغم حاجتهم إليه، وفيه إشارة إلى أن وقت الإيمان والالتزام به يكون في الدنيا، أما يوم القيامة فمكان تناوله بعيد وزمن تحصيله قد انتهى!، ولو كانوا صادقين في إيمانهم لما كفروا به في الدنيا حين طُلب منهم، وقد كانوا قريبين منه، بل إيمانهم اليوم هو نوع من الرمي بالظن من جهة بعيدة، وهذه استعارة تمثيلية فالذي يريد أن يُصيب الهدف عليه أن يقترب منه وأن ينظر إليه حال الرمي إليه،



أما من لا يرى الهدف ورماه بالسهم من مكان بعيد فالغالب أنه لا يُصيبه! (1) وفيه إشارة إلى ما كانوا عليه في الدنيا من سفاهة في القول، وبطلان ظنونهم في الأمور الغيبية وبعُد أقوالهم عن الحق.

**وقوله:** ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي

**شَكٍّ مُّرِيبٍ** ﴿٥٤﴾، **هذا بيان** لحال الكفار في الآخرة، فقد مُنعوا من الحصول على ما يُريدونه من العودة إلى الدنيا أو من قبول الإيمان بعد أن انتهى وقته، أو من النجاة من النار بعد أن اقتربوا من الوقوع فيها (2)، فكل ذلك يشتهيهِ الكافر يوم القيامة، ولن يُمكن منه ولن يحصل عليه؛ وليس هذا الأمر خاصاً بكفار قريش، بل هو عام يشمل كل الكفار المتفقين معهم في الكفر والشرك، كقوم نوح وقوم لوط وغيرهم، فلن تلبى طلباتهم في الآخرة بسبب شكهم في استحقاق الله للألوهية، وشكهم في إرساله للرسل، وفي البعث والنشور، وسائر الأمور الغيبية التي أخبرهم بها الرسل، وهذا هو الفرق بين المؤمن الذي يؤمن بالغيب وبين الكافر الذي لا يؤمن إلا بالمحسوسات ويشك فيما لم تره عينه، فيُحرم الإيمان ويُحرم من النجاة في الآخرة.

(1) ينظر: تفسير الألوسي: (331/11).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (504/3).



**فوائد وهدايات من الآيات :**

- 1- بيان خطورة التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولغيرهم، فإنه يصرف الإنسان عن معرفة الحق.
- 2- أن التفكير السليم مع الإخلاص وتجرد النفس من الأهواء يُوصل صاحبه إلى الحق.
- 3- أن التفكير الجماعي غالباً يمنع من الوصول إلى الحق، لصعوبة تخلص النفس من الهوى.
- 4- أن على الداعية إلى الله أن يطلب أجره من الله ولا ينتظر أن يمنحه الناس أجراً ولا ثواباً.
- 5- بيان مشهد فزع الكفار يوم القيامة، وأمن المؤمنين.
- 6- أن وقت الإيمان والتوبة هو الدنيا، فهي دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء.



## تفسير سورة فاطر

## تفسير المقطع الأول من سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثٌ وَّرُبْعٌ زَيْدٌ

فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا

يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ

خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْفٍ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوا

فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ

لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءِ وَيَهْدِ مِنْ

يَشَاءُ فَلَا نَذَبٌ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرْتَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرُ

سَحَابًا فَسَفُنَّهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ

الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُوَسَّرُ ﴿١٠﴾ ۝

## شخصية السورة:

**سورة فاطر؛** وتسمى بسورة الملائكة عند بعض المفسرين<sup>(1)</sup>، سورة مكية<sup>(2)</sup>، ومن مقاصد هذه السورة بيان فقر الخلق المطلق إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وبيان غنى الله **جَلَّ وَعَلَا** عن خلقه.

افتتحت بالحمد والثناء على الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فقال الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثُلُثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(3)</sup>، **الألف والسلام** للاستغراق، فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مستحق للحمد المطلق كله؛ لأنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق، وخلق الملائكة للعبادة المطلقة، وجعل من مهام أعمالهم أن يرسلهم من السماء إلى الأرض في مهمات وأعمال محددة، فمنهم من يحفظ البشر ومنهم من يُسجل عليه الأعمال، ومنهم من ينزل بالوحي، ومنهم من يأتي بالمطر، ومنهم من يأتي بالعذاب، وغير ذلك من الأعمال التي يُكلفون بها من الله ويُرسلون بها إلى الخلق، وجعل الملائكة ذات أجنحة، وهل خلق الله الملك بجناح أو بأجنحة ويظل على هذا الخلق، أم أنها صفة متعلقة بالإرسال فقط؟ قولان للمفسرين<sup>(3)</sup>، ثم بيّن وصف هذه الأجنحة، فبعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة، وهذا يعني أنه يوجد في كل جهة للملك اثنان أو

(1) التفسير البسيط: (18 / 399).

(2) تفسير البغوي: (3 / 687).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 249).



ثلاثة أو أربعة أجنحة، وذكر هذا العدد للتمثيل وليس للحصر، والسياق بعده يدل عليه، فإنه سبحانه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وقد جاء في الحديث: "أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته بين السماء والأرض له ستمائة جناح" (1)، أي: في كل جهة ثلاثمائة جناح، ويحتمل أن الزيادة عامة، أي: يزيد في خلق الخلق ما يشاء (2) من الجمال والحسن والصفات وغيرها، فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قادرٌ على كل شيء، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

**ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (2)، هذا إخبارٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن** مفاتيح الخير بيده، وأن الخلق ليس بيدهم شيء، فالرحمة اسمٌ يعم كل خيرٍ يعطيه الله للإنسان من رزقٍ وصحةٍ وجاهٍ وغير ذلك، فإذا فتح الله للناس أبواب هذا الخير؛ فلا يقدر على منعه أحدٌ؛ فخرائن الخير بيده سبحانه، وهذه الآية تُعطينا الأمان، وتدعونا إلى كمال التوكل والالتجاء إلى الله بعد أن نأخذ بالأسباب، وعدم التعلق بالمخلوقين في أرزاقنا وأحوالنا وسائر أمورنا، وما يُمْسِكُ الله من خيرٍ فلا يرسله أحدٌ غيره سبحانه، فالعطاء والمنع بيد الله، وعَبَّرَ بالإمساك ليكون أشمل، فالإمساك: القبض، والإرسال: الإطلاق، فما فتحه الله فلا مُغْلِقَ له، وما منعه فلا مُعْطِيَ له، وما أعطاه فلا مانع له، فلا يتصرف في الكون أحدٌ غيره سبحانه، وذليل

(1) صحيح البخاري: (4/115)، برقم: (3232).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/388).



الآية باسمين من أسمائه الحسنی، وهما (العزیز الحکیم)، فالمنع والعطاء يحتاجان إلى قوة وحكمة فلا يظهر فيها خلل ولا تقصير.

**ثم قال الله سبحانه:** ﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفُتُوا تَوَفَّكُونَ﴾ <sup>(١)</sup>، **الخطاب عام** للناس كلهم، **والمقصود به هنا** قريش <sup>(١)</sup>؛ لأنهم كانوا هم المخاطبون بالقرآن عند نزوله، فكذبوا بالنبي محمد ﷺ وبما جاء به من الرسالة، فذكرهم الله بما منحهم من النعم الكثيرة، فقد جعلهم من أهل الحرم وساق لهم الأرزاق، وجعلهم يعيشون فيه آمنين، ونحوها من النعم التي تقتضي منهم أن يشكروا الله عليها فيؤمنوا به، فلا خالق لهم ولا رازق لهم غيره، والسؤال هنا استنكاري؛ لأن القوم كانوا يُقرّون أنه لا رازق غير الله، وجمع بين فعلين من أفعال الله وهي: الخلق والرزق، فإن من يخلق ولا يرزق لا يُسمى إلهًا؛ لأن فعله ناقص، ومن يرزق ولا يخلق، ففعله ناقص، بل لا يستطيع أن يرزق وهو لا يستطيع أن يخلق، وذكر السماء والأرض لأن فيهما مصدر الأرزاق، فالسما مصدر للمطر، والأرض مصدر النبات والأقوات، ثم ذكر الهدف من هذا الاستدلال، وهو إثبات الألوهية، فالخالق الرازق هو من يستحق أن يكون هو الإله سبحانه، فما الذي صرفكم عن التوحيد والإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له؟! وهو سؤال تعجبي استنكاري، فكيف تُصرفون عن الإيمان بعد وضوح أدلته؟!

(١) ينظر: تفسير الثعالبي: (٤/ 382).



**ثم قال:** ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤)،

التفت بالخطاب إلى رسول الله ﷺ، وهو خطاب تسلية له، فلست أول رسول كُذِّب، فقد أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل، فكُذِّبَ بهم أقوامهم، وإلى الله تُرجع أمور الناس كلهم يوم القيامة، المؤمن والكافر؛ فيحكم بينهم جميعاً، **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فيجزى المكذب بتكذيبه، والمؤمن بإيمانه.

**وقوله:** ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرُورُ

﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦)، ثم أخبرهم أن البعث والنشور والجزاء والحساب آتٍ لا محالة؛ لأنهم كانوا يكذبون به، فإذا كان وعده حقاً، فتهيئوا له بالإيمان والأعمال الصالحة، وحذّره من أن تخدعهم الحياة الدنيا وما فيها من الشهوات والملذات عن الاستعداد لذلك اليوم، ولا يخدعهم الشيطان، ووصفه بالغرور؛ لأنه كثيراً ما يُغرُّ أصحابه ويخدعهم بتزيين الباطل لهم، وأكد لهم أن الشيطان عدو لهم، واللام للاختصاص، وعداوة الشيطان لبني آدم جبلية لا يرجى زوالها، لذا أمرنا الله باتخاذ عدواً على الدوام، ومن لوازم اتخاذ عدواً العمل بخلاف ما يدعو إليه لتجنب مكائده وخداعه لنا<sup>(1)</sup>، وقد بدأت عداوته لآدم عَلَيْهِ السَّلَام، حين أبى السجود له، وأقسم بعزة الله أن يُغوي بني آدم أجمعين، فحذرنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** منه وذكرنا بعداوته؛ لأن مهمته وشغله الشاغل أن يدعو من اتبعه إلى الكفر بالله الذي عاقبته ونهايته دخول جهنم وملازمتها وعدم الخروج من عذابها.

(1) التحرير والتنوير: (22 / 260).



**ثم قال سبحانه:** ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧)، **هذا بيان** لانقسام الناس بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى فريقين: فريق أضله الشيطان وسار في طريقه، وهم الذين كفروا بالله ورسله، فلهم عذاب شديد في الآخرة في نار جهنم، وفريق اتخذ الشيطان عدواً واتبع الحق وسار في طريقه، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الجنة على أعمالهم، وهذا من عدل الله سبحانه في الخلق حيث يجازي الله العبد بعمله.

**وقوله:** ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨)، **هذا بيان** لحال الفريق الأول، وهم أتباع الشيطان، وأنهم وقعوا في الكفر بسبب تزيين الشيطان لهم الباطل القبيح حتى يراه في صورة حسنة، وهو في الواقع قبيح، وإنما زين الشيطان لهم فاستحسنوه ومالوا إليه وفعلوه، **وهو سؤال جوابه محذوف** **تقديره:** أفمن زين له سوء عمله كمن لم يُزين له؟!

**ثم بين** أن الذي زين له سوء عمله هو الذي أضله الله، وأن الذي لم يُزين له سوء عمله، هو الذي هداه الله (1)، ثم جاء الخطاب مسلياً للنبي ﷺ بالنهي عن إتعاب نفسه بالحزن والحسرة عليهم بسبب عدم إيمانهم، وذلك لأنه كان حريصاً على هداية قومه، فلما لم يؤمنوا به كان يحزن لذلك، وهذا الحزن كان يؤثر على نفسيته، وعبر بـ "حسرات" لتكرار التكذيب منهم وتكرار الحسرة منه

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1624).



عليهم، وذليل الآية بأن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عليم بما يعملونه من الكفر والتكذيب، وهو خبر ولكنه يفيد التهديد والوعيد لهم.

**ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:** ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾، **هذا بيان** لبعض نعم الله على خلقه، وهو إرسال الرياح حيث يُحرّكها الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بسرعة محددة، فتكون فيها منفعة ورحمة للخلق، فتُحرّك السُّحب المتوزعة في السماء فتجمعها وتسوقها إلى مكان معيّن، وكلما تجمعت السحب وارتفعت كلما تكثّفت وتكون فيها الماء، فيسوق الله هذا السحاب فوق البلد الذي قد ييست أرضه وماتت من شدة العطش والجذب، فإذا نزل عليها المطر أحيّاها الله به، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فضرب لهم بهذا مثلاً يرونه بأعينهم لتتضح لهم قدرته على البعث والنشور للخلق في الآخرة، فكما أحيّا الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، فكذلك سيُحيي الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الأجساد المندثرة في القبور ويعيثرهم يوم القيامة ليحكم بينهم بعدله.

**ثم قال سبحانه:** ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوْنَ ۝١٠﴾، **هذا خطاب** فيه تلميح بحال الكفار، وأن الكفار امتنعوا عن الإيمان بالله والتصديق برسالة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم اعتزازاً بما عندهم من الجاه والملك والمال والسلطان، ظناً منهم أنهم لو آمنوا بالله لُسُحبت منهم هذه العزة وهذه المكانة التي كانوا عليها، فبيّن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لهم أن العزة الحقيقية لله، فهو مالكها ومصدرها، ومن



يريدها فليطلبها من مالها بأسبابها، وهي الإيمان والعمل الصالح، كما قال عمر لما طلبوا منه أن يعتز بشيء دنيوي: "نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمن ابتغى العزة بغير الله أذله الله" <sup>(1)</sup>، فالعزة لله جميعاً يمنحها من يشاء ممن يستحقها، **كما قال:**

**﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [المنافقون: 8]، والكلم الطيب هو كل كلام حسن، وأعظمه قول: لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد، ويدخل فيها ذكر الله المطلق، فهو يصعد إلى الله ويتقبله من صاحبه، لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، بخلاف الكلام الخبيث فيظل ساقطاً منبوزاً في الأرض لا يرفعه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ولا يتقبله، فالكلام الطيب هو عمل اللسان، والعمل الصالح هو عمل القلب والجوارح، كالإخلاص والصلاة والصيام والصدقة ونحوها، ويدخل في معنى العمل الصالح كل ما فيه خير للبشرية، فيرفعه الله إليه أيضاً ويتقبله من صاحبه، **وقيل:** إن الضمير في **﴿يَرْفَعُهُ﴾**، يعود إلى الكلم الطيب، **أي:** يرفع العمل الصالح الكلم الطيب، **والمعنى** أن الإنسان إذا قال كلاماً حسناً ولم يكن له عمل صالح؛ فلا يرفع، **وقيل:** إن الكلم الطيب هو كلمة التوحيد، وهو الذي يرفع العمل الصالح، فلو عمل العبد عملاً صالحاً بدون توحيد فلا يُرفع <sup>(2)</sup>، والذي يظهر لي أن كل المعاني مرادة ولا تعارض بينها، فالعمل الصالح يرفع صاحبه، والتوحيد مهمٌ لقبول الأعمال الصالحة، والعمل الصالح مهمٌ لمطابقة القول للعمل، ثم بين حال الصنف الآخر، وهم أصحاب العمل السيء، والمكر هو العمل الخفي الذي يُقصد به الخداع للآخرين،

(1) ينظر: البداية والنهاية: (60 / 7).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (464 / 4).



**والسيئات صفة لمحذوف تقديره المكرات السيئات<sup>(1)</sup>**، توعدهم الله بالعذاب الشديد في الآخرة، وفي الدنيا يعود عاقبة مكرهم عليهم، فلا ينجح مكرهم، بل يفسد ويبطل، وهذا الذي نراه في الواقع، بفضل الله، فكم بذل أعداء الإسلام منذ ظهوره إلى اليوم من جهود كبيرة للقضاء على الإسلام وأهله؟!، فأبطل الله مكرهم وأفشل مخططاتهم، وكانت عاقبة مكرهم عليهم، **كما قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** [فاطر: 43].

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- عِظَمُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ، وذلك دليلٌ على عِظَمِ قُدْرَةِ الْخَالِقِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 2- التسلية للنبي ﷺ بذكر أخبار الرسل وتكذيب أقوامهم لهم.
- 3- أن الاغترار بالدنيا سبب من أسباب الانحراف والضلال عن الحق.
- 4- الأمر باتخاذ الشيطان عدواً أزلياً؛ لأنه يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.
- 5- ثبوت صفة العلو لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 6- أن التوحيد مهمٌ لقبول الأعمال الصالحة، والعمل الصالح مهمٌ لمطابقة القول للعمل.
- 7- بيان عاقبة المكر السيء وأنه لا ينجح، ووباله يكون على صاحبه.

(1) ينظر: تفسير النسفي: (80/3).



## تفسير المقطع الثاني من سورة فاطر

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ١٣ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ١٤ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ١٥ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ١٨﴾.

**قول الله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١١﴾، في هذه الآيات يُذكر الله الخلق بكيفية خلقهم، فقد خلق أباهم آدم من تراب، ثم خلق منه زوجه حواء، ثم صار الخلق يتناسلون من

النطفة عن طريق التزاوج بين الذكر والأنثى<sup>(1)</sup>، ثم أردفه ببيان سعة علمه وإحاطته بالكائنات الخفية والظاهرة، فهو يعلم ما في الأرحام من الأجنة وموعد وضعها وأعمار الخلق بعد الولادة، وكلمة (أنثى) لفظ عام، ولكن المقصود بها أنثى الإنسان لأن السياق يتحدث عن آدم وذريته، **والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يعلم من يطول عمره ومن يقصر عمره.

**وفي عودة الضمير في عمره قولان<sup>(2)</sup>: الأول:** أنه يعود إلى الغير، وهو معروف في لغة العرب، **تقول:** عندي درهم ونصفه، **أي:** ونصف درهم آخر، **والمعنى** ما يُعَمَّر من أحد وما يُنْقَص من عمر أحد آخر إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، **والثاني:** أنه يعود على المعمر نفسه، والمعنى لا يزداد في عمر إنسان ولا ينقص من عمره إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، والراجح الأول، واسم الإشارة يعود على ما سبق ذكره من الخلق والإيجاد والعلم والإحاطة بالخلق كل ذلك يسيرٌ على الله!

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١٢)</sup>، **ثم ذكر بعض آياته في خلقه** التي سخرها للإنسان، ويستدل بها على استحقاقه للألوهية، فذكر عدم استواء مياه البحرين، وهما: الماء العذب الذي يسهل شرابه لشدة عذوبته، وهي مياه الأمطار

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 276).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1627).



والأنهار، والماء المالح الذي لا يمكن شربه لشدة ملوحته، وهي مياه البحار والمحيطات، فإن الاختلاف بين البحرين بالعدوبة والملوحة دليل على دقيق صنع الله سبحانه، **وقال أكثر المفسرين:** إن المراد من الآية ضرب المثل في حق المؤمن والكافر، والكفر والإيمان، فكما لا يستوي البحران كذلك لا يستوي المؤمن والكافر<sup>(1)</sup>، ثم ذكر لهم بعض النعم المستفادة من مياه الأنهار والبحار، **ومنها:** الحصول منها على لحم السمك الطري الطازج، الذي يتنعمون بأكله، ومنها: استخراج الحلية التي تلبس للزينة، وهي اللؤلؤ والمرجان، وتُستخرج من المالح فقط أو من مجموع البحرين<sup>(2)</sup>، حيث تتكوّن من اختلاط الماء العذب بالماء المالح بسبب الأمطار أو بسبب الأنهار، **ومنها:** نعمة تسيير السفن الكبيرة التي تراها وهي تشقّ عُبَابَ البحر مُقبلة ومدبرة، طافية على سطحه، من أجل أن تنقلوا عليها وتنقلوا بها تجارتكم وأمتعتكم إلى البلدان البعيدة في مدة قليلة، سخر لكم ذلك لكي تشكروا الله على هذه النعم فتعبدونه سبحانه.

**ثم قال سبحانه:** ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾<sup>(١٣)</sup>، ثم بعض آياته في المجرات الكونية، فذكر إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وهو دخول ساعات الليل في النهار ودخول ساعات النهار في الليل، حيث ينحت أحدهما في الآخر، فأحياناً

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 393).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1628).



يطول الليل، وأحياناً يطول النهار، وأحياناً يتساويان، وتبعاً لذلك يتغير المناخ والحرارة والبرودة ويستفيد من ذلك النباتات وسائر المخلوقات<sup>(1)</sup>، ويدخل في معنى الإيلاج دخول ظلام الليل بالتدريج وظهور نور النهار بالتدرج، وسخر الشمس والقمر وجعل في جريانهما منافع للخلق في معرفة عدد السنين والحساب، ومدّ الأرض بالحرارة والنور والدفء المعتدل، ولا تزال الشمس والقمر يجريان بانتظام إلى يوم القيامة، وهو الأجل المسمى لهما، واللام للتوقيت فينتهي وقت جريانها عند انتهاء أجل الحياة، والذي سخر هذا كله لكم هو الله الرب المستحق للعبادة، وله الملك المطلق، والذي تدعونه من الأصنام والأوثان والجن وغيرهم هم مخلوقات لله سبحانه، لا تملك في الكون شيئاً صغيراً حقيراً، **والقطمير**: هو القشرة الخفيفة التي تكون على ظهر نواة التمر من داخلها<sup>(2)</sup>، فكيف جعلتم منهم آلهة يتصرفون في الخلق وهم بهذا الضعف؟!

**ثم قال:** ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ وَلَا يَنْبِتُكُمْ مِثْلُ خَيْرِ﴾<sup>(١٤)</sup>، **ثم بين** عجز هذه الآلهة المزعومة فهي جمادات لا تملك لأنفسها ولا لمن يعبدونها نفعاً ولا ضرراً، فلا تسمع دعاءهم لها، ولو افترض أنها سمعت الدعاء فإنها لا تستطيع الاستجابة لهم لعجزها، وحين يبعثهم الله مع آلهتهم يتبرأ المعبودون من شرك العابدين، ويقولون لهم: ما كنتم إيانا تعبدون، وذيلت الآية بالخطاب لرسول الله ﷺ،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6 / 540).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18 / 412).



**والمعنى** ولا يخبرك عن حقيقة أمر هذه الآلهة وحال من عبدوها يوم القيامة إلا ذو خبرة، وهو الله سبحانه، فلا أحد أخبر منه بخلقه.

**ثم قال سبحانه:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥)، الخطاب عام لجميع الناس فيشمل المؤمنين والكفار، فالجميع محتاجون إلى الله في كل شؤونهم، والله غير محتاج إليهم، بل هو الغني الذي لا يحتاج إلى غيره، **كما قال:** ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2]، أي: الذي تصمد إليه الخلائق وتحتاج إليه، وجمع بين اسمي (الغني والحميد)؛ ليدل على جوده وكرمه الذي يوجب أن يحمد عباده، ولأن غناه محمود بكل حال، لا أشرف فيه ولا بطر، بخلاف الإنسان الذي يعتريه الطغيان بسبب الغنى، **كما قال:** ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٌ﴾ (٦) **أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى:** ﴿٧﴾ [العلق: 6-7].

**ثم قال:** ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِزٌ﴾ (١٧)، ولو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأهلككم أيها الناس وأتى بخلقٍ غيركم يعبدونه ويؤحدونه، وليس في ذلك مشقة على الله، ولا شيء من ذلك ممتنع عليه، فهو على كل شيء قدير.**

**ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:** ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمْلِهَآ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)، وهذه قاعدة مطلقة لبيان عدل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهي من قواعد الإسلام في أحكام الجنيات في الدنيا، فكل مذهب يُعاقب بذنبه، ولا يعاقب به غيره، بخلاف قواعد وأسلاف القبائل في



الجاهلية التي كانت تعاقب المذنب أو القريب له، وجاء الشرع بإبطالها، فلا تحمل نفس بريئة ذنب أو جرم نفسٍ أخرى، وإنما كل إنسان يتحمل عاقبة جرمه في الدنيا وفي الآخرة، وعبر بالموثق باعتبار أن النفس هي التي كسبت الذنب، وإن تطلب نفسٌ مثقلةٌ بأوزارها يوم القيامة نفساً أخرى لتحمل عنها أوزارها؛ فإنها لا تجد من يستجيب لطلبها؛ ولو كان المدعو والمستغاث به قريباً له، ويفر كل قريب من قريبه وينشغل بنفسه، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس: 34-37]، ولا تعارض بين هذه الآية **وبين قوله:** ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: 25]، فإن من دعا غيره إلى الضلال فإنه يحمل وزره؛ لأنه كان سبباً في فعله، **وفي الحديث:** "ومن سنّ سنة سيئةً فعل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئاً" <sup>(1)</sup>، **ثم تحوّل الخطاب لنبية محمد ﷺ**، ليسلي عليه بسبب كفرهم به، وأخبره أنه لن يستفيد من دعوته وإنذاره إلا المؤمن المخلص الخائف من الله في خلوته، العامل بما أمره الله به، ونص على الإيمان بالغيب؛ لأنه من أبرز أعمال القلوب، ونص على الصلاة؛ لأنها من أبرز أعمال الجوارح الظاهرة، ثم ذكر قاعدة أخرى تُقابل القاعدة الأولى المتعلقة بجزاء الجنایات، وهي قاعدة جزاء الحسنات والطاعات، فمن زكى نفسه وطهرها بالطاعات؛ **فثمرة ذلك** ونفعه عائدٌ على صاحبها، فإن الله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، **وفي الحديث القدسي:** "إنما

(1) مسند أحمد: (541 / 31)، برقم: (19206) وإسناده صحيح.



هي أعمالكم أحصيتها لكم، ثم أوفّيكُم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه" <sup>(1)</sup>، ومرجع الخلق جميعاً إلى الله ثم يحاسبهم على أعمالهم، فالصالح يُجازى بعمله والسيئ يُجازى بعمله.

### فوائد وهدايات من الآيات:

- 1- بيان أهمية التفكّر في نعم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على الخلق ووجوب شكر الله عليها.
- 2- أن الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية منهج قرآني، فالخالق الموجد هو الذي يستحق العبادة دون سواه.
- 3- بيان سفّه عقول المشركين الذين عبدوا الأصنام والأوثان، وهي لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً.
- 4- بيان أن الخلق كلهم مُفْتَقِرُونَ إلى الله، والله غني عنهم.
- 5- أن صفة الافتقار إلى الله عبادة من أعظم العبادات، بل هي لبّ العبودية، فمن خالها يخضع العبد لله ويتضرع إليه ويتوكل عليه، فلا يزال قريباً من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.
- 6- أن العبد هو من يتحمل عقوبة ذنبه ولا يحمله أحد عنه.
- 7- أن تزكية النفس بالطاعات تعود منفعتها على صاحبها، وأن إفسادها بالمعاصي يعود ضررها على صاحبها.

(1) صحيح مسلم: (4/1994)، برقم: (2577).



## تفسير المقطع الثالث من سورة فاطر

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا  
 الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ  
 ۝٢٢ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ  
 ۝٢٤ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ  
 وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ  
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ  
 مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْأَنَعِمَ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ  
 كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ إِنَّ الَّذِينَ  
 يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ  
 تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ  
 شَكُورٌ ۝٣٠﴾.

**قول الله تعالى:** ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩﴾، هذه الآيات تتحدث عن  
 أمثلةٍ ضربها الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** للمؤمن والكافر، فشبه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هنا الكافر  
 بالأعمى والمؤمن بالبصير، فكما أنه لا يستوي عند الناس قدرات الأعمى

وقدرات البصير في التصرف ومعرفة الطريق والمشي عليها، فكذلك لا يستوي حال المؤمن وحال الكافر، **ووجه الشبه بين البصير والمؤمن والأعمى والكافر؛** أن الكافر أعمى البصيرة فلا يرى الحق ولا يهتدي إليه، كحال أعمى البصر الذي لا يرى النور ولا يعرف الطريق، أما المؤمن فهو مبصر القلب والبصر، ففتح الله قلبه لنور الإيمان فاهتدى به، كما فتح الله عينه لنور الشمس فأبصر بها ما حوله، فلا يستوي حال هذا مع حال هذا!

**وقوله: ﴿وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠)، وهذا مثال ثانٍ،** فالظلمات وصفٌ للكافر، والنور وصفٌ للمؤمن، وجمع الظلمات لتعدد مصادرها، وأفرد النور لأن مصدره واحد، فلا تستوي الظلمات ولا النور، فالنور مثالٌ للمؤمن الذي هداه الله إلى الحق، والظلمات مثالٌ للكافر الذي منعه الله الهداية فعاش في ظلمات، فلا يستوي حال هذا مع حال هذا!

**وقوله: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (٢١)، وهذا مثال ثالث،** ضرب الظل مثلاً لأثر الإيمان، **والحرور:** هو حر الشمس، أو الريح الحارة، مثلاً لأثر الكفر<sup>(١)</sup>، **وقيل<sup>(٢)</sup>:** مثالٌ لثواب المؤمن وعقاب الكافر، أو وصفٌ للجنة وللنار، وعلى كل المعاني، فلا يستوي هذا مع هذا.

**وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣)، وهذا مثال رابع،** فالأحياء وصفٌ للمؤمنين،

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 293).

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1633).



والأموات وصف للكافرين، والمقصود هنا بالحياة حياة القلوب والأفئدة، وبالموت موتها، فكما لا يستوي الأحياء مع الأموات، فلا يستوي حال المؤمن مع حال الكافر، ثم بَيَّن أن الله هو الذي يوصل الهداية إلى قلوب من يختارهم من عباده، وأن محمداً ﷺ لا يملك إيصال الهداية إلى قلوب المشركين الذين شبههم بالموتى في عدم إحساسهم، والمنفي هنا هو سماع العمل، لا سماع الصوت، **والمعنى** أن هداية التوفيق بيد الله يمنحها من يشاء، وليست بيد أحد من الخلق، أما أنت يا محمد وغيرك من الرسل فعملكم الإنذار والنصح والتوجيه والإرشاد للخلق، وسماها هنا نذارة؛ لأن الخطاب موجّه للكفار، ومهمة الرسل مع الكفار هي الإنذار والتخويف بالوعيد.

**وقوله:** ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤)، ثم جاء الخطاب بالمهمة العامة للرسول وهي التبشير بالخير والوعود الحسنة للمؤمنين، والنذارة للمخالفين، فقد أرسله الله بالحق، وهو الإيمان بالله والشرائع التي افترضها على عباده، والباء هنا للمصاحبة<sup>(1)</sup>، فهو في كل ما جاء به مصحوباً بالحق لا ينفك عنه، بل جاء لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ولست يا محمد أول رسول، بل قد سبقك عدد كبير من الأنبياء والرسل في الأمم السابقة لك.

**وقوله:** ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٥)، وفي هذه الآية تسليية لمحمد ﷺ، فلست أول من كذبه قومه، فقد كُذِّب قبلك رسل من أقوامهم، وقد جاءوهم بالمعجزات

(1) تفسير الزمخشري: (3/ 608).



والمواعظ المكتوبة في الصحف، والكتب السماوية المحتوية على الأحكام الواضحة البينة، كالطورا والإنجيل<sup>(1)</sup>، فحصل منهم التكذيب رغم وجود هذه الثلاثة الأنواع من الحجج والبراهين، فلا تستغرب تكذيب قومك لك.

**وقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٢٦)، ثم: حرف عطف يفيد التراخي، والمعنى إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يأخذهم بعد التكذيب مباشرة، وإنما أعطاهم مهلة، وهذه المهلة هي أجلهم المكتوب لهم في اللوح المحفوظ، ونص على سبب الأخذ وهو الكفر ليشمل السابقين واللاحقين ممن يتصف بهذه الصفة، فكيف كانت عقوبتي لهم ونكيري عليهم<sup>(2)</sup>؟!، وهو سؤال استنكاري! ونكير: صيغة مبالغة من الإنكار وهو تعبير عن الأخذ الشديد الذي حصل للأمم السابقة المكذبة.**

**ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٢٧)، الخطاب لكل من يصلح له الخطاب حتى اليوم، والرؤية تصلح أن تكون رؤية بصرية؛ لأن رؤية المطر ممكنة، وتصلح أن تكون قلبية؛ لأن تفاصيل تكوين المطر قبل إنزاله لا تدركه الأبصار وإنما نعلمه بالتفكر فيه، فهذا الماء هو ماء المطر الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض فتشربه الأرض وتنبت به الأشجار وتخرج به الثمرات، والتنوين في الثمرات لتعددتها وكثرتها، وذكر الاختلاف في اللون**

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 85).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 341).



ليشمل النوع واللون والطعم والرائحة والشكل والحجم ونحوها، ففي ذلك كله آية من آيات الله في هذا الباب، فقد أخرج من شيء واحد أنواعاً متعددة من الثمار، ثم ذكر النوع الثاني من الاختلاف والتنوع، وهو في الجبال، فالجُدُد جمع جُدَّة بضم الجيم وتشديد الدال وهي الخُطَّة والطرائق التي تكون في الجبل، فهناك قطعة حمراء وقطعة صفراء، ونحوها من الألوان، والغرايب جمع غريب، أي: شديد السواد، ومنه سمي الغراب لشدة سواده<sup>(1)</sup>، وهذا التنوع آية من آيات الله في الجبال.

**وقوله:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨)، ثم ذكر النوع الثالث من الاختلاف في **البشر والدواب**، وهي كل ما يدب على الأرض من الحيوانات والأنعام، هي **الأربعة الأصناف المعروفة**، وهي الإبل والبقر والغنم والضأن، فالناس والدواب والأنعام فيهم اختلاف وتنوع في ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم وسائر صفاتهم كاختلاف الثمرات والجبال<sup>(2)</sup>، وهذا التنوع والاختلاف آية من آيات الله في هذه المخلوقات، ثم ختم الله بوصف حال العلماء الذين فتح الله قلوبهم للتدبر والتفكر في مخلوقات الله، وعظمة قدرته في الخلق، فيزيدهم ذلك خشيةً لله وتعظيماً له سبحانه، وإذا أُطلق العلم في نصوص الوحي فالمقصود به علم الشريعة، فالعالم هو الذي يعرف الله، فيخافه ويرجوه، **ولا مانع أن يشمل كل**

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 86).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 399).



**علم يعرف بالله** مع ضرورة وجود الحد الأدنى من علم الشريعة مع صاحبه، كعلم الأحياء والأجنة، وعلم الجغرافيا والجيولوجيا، وعلم الفلك، وعلم الطب، ونحوها من العلوم التي تدل على قدرة الله وعظمته، وكل من كان بالله أعلم كان أكثر خشية له سبحانه، فالعبرة في آثار تلك العلوم على صاحبها، والحقيقة أن بعض المتخصصين في العلوم الطبيعية والطبية والجيولوجية وفقهم الله لاستغلال تخصصهم في الدعوة إلى تعظيم الله وغرس حبه في النفوس من خلال ربط مفردات المادة بقدرة الله سبحانه، وقد ذكرت خشية العلماء لله هنا بعد ذكر مجموعة من علوم الطبيعة، إشارة إلى ضرورة الاستفادة من الآيات الكونية والتفكير فيها، فإنها تدل على الله كما تدل عليه آيات القرآن الكريم، وذيل الآية بأنه عزيز؛ تعليل لوجوب خشيته سبحانه، وغفور لمن قصر في ذلك، فلا ييأس من رحمته، وفي الآية دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد.

**ثم قال:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكُونَ ۖ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٠)، **بعد الحديث عن التفكير والتأمل في الكتاب المفتوح** وهو الكون، انتقل لبيان حال المتدبرين لكتابه المكتوب وهو القرآن الكريم.

**والتلاوة لها معنيان<sup>(1)</sup>: تلا** بمعنى قرأ، **وتلا** بمعنى اتبع، وكلاهما مطلوب من المسلم مع القرآن الكريم، يقرأه ويتبع أحكامه ويمثل أوامره، والمقصود

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1638).



بهم المؤمنون به؛ لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به، وهم العلماء الذين يخشون الله، ويتفكرون في الكون، ويتلون القرآن، ويتدبرونه، ويتبعون أحكامه، ويحافظون على إقامة الصلاة، وهي أعظم العبادات البدنية المتكررة في اليوم واللييلة، وينفقون مما أعطاهم الله من المال، وهي أعظم العبادات المالية، ويخلصون في نفقاتهم وأعمالهم ولا يريدون بها رياء ولا سمعة، بل يتبعون بها وجه الله، ويدامون عليها في كل الأحوال، ويطمعون أن تكون كل أعمالهم هذه من التجارة الرباحة مع الله، وشبه الأجر من الله لهذه الأعمال بالتجارة؛ لأن معنى اتجر هو العمل طلباً للأجر، ولولا الربح وهو ثمرة تعب التاجر ما تاجر<sup>(1)</sup>، ونفى عنها البوار وهو الفساد والكساد، فهي أجلّ التجارات وأعلاها وأفضلها، فهي سبب لرضى ربهم عنهم وفوزهم بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وقد وعدهم الله سبحانه بتوفية ثواب أعمالهم دون نقص، بل يضاعفها لهم بما لم يخطر لهم على بال، واللام للعاقبة، **أي**: جازاهم وجعل عاقبتهم خيراً، فأخذوا أجورهم كاملة ويزيدهم عليها النظر إلى وجه الكريم في جنات عدن<sup>(2)</sup>، وذيل الآية بأنه غفورٌ لمن أذنب وقصّر، وشكورٌ لمن اجتهد في طاعته، ولو كان عمله قليلاً!

(1) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل: (1/ 199).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1638).



## فوائد وهدايات من الآيات :

- 1- نفي مشابهة حال أهل الحق وحال أهل الباطل في الدنيا والآخرة!.
- 2- أن الهداية على نوعين: هداية دلالة وإرشاد وهذه يملكها الرسل والدعاة إلى الله، وهداية التوفيق بيد الله يمنحها من يشاء.
- 3- سنة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ماضية في إهلاك الكافرين، ونجاة المؤمنين.
- 4- بيان قدرة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في اختلاف مخلوقاته وتنوعها.
- 5- بيان أن ثمرة العلم هو خشية الله.
- 6- بيان فضل تلاوة القرآن والعمل به وجزاء ذلك عند الله.



## تفسير المقطع الرابع من سورة فاطر

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ بِبَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨).

**قول الله تعالى:** ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١)، هذه الآية جاءت عاطفةً على ما سبق ذكره في الآية التي قبلها، من أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مدح وأثنى على من يتلو القرآن الكريم، ثم

مدح وأثنى على كتابه وهو القرآن الكريم، الذي أنزل على محمد ﷺ، فهو حق لا يعتريه الباطل، **كما قال:** ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42]، ويدعو إلى الحق، وجاء ليقيم الحق، والألف واللام في الحق تفيد الاستغراق، وقد جاء مُصدّقاً لما سبقه من الكتب السماوية كالنوراة والإنجيل والزبور، ونحوها، قبل أن يدخلها تحريف البشر، وهو خاتم الكتب السماوية ومهيمن عليها وناسخ لها، **وذيل الآية باسمي:** (الخير البصير)؛ إشارة إلى أن الذي اصطفى الرسل وأنزل الكتب عليهم؛ أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، لأنه عالم بدقائق الأمور وجزئياتها ظاهرها وباطنها على وجه التفصيل، وهو لفظ خبر ولكن يفهم منه التهديد والوعيد للكافر، والبشارة والترغيب للمؤمن!

**ثم قال الله سبحانه وتعالى:** ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾، ثم تفيد العطف المتراحي، أي: بعد أن أوحى الله إلى محمد ﷺ الكتاب فعلمه لأتمته، وهذا التعليم هو الميراث الذي تركه لهم، وعبر بالإرث لأن معاني وأحكام الكتب السابقة كلها جُمعت في القرآن الذي علمه محمد ﷺ لأتمته، فكأنهم ورثوا علم الأولين بعد ذهابهم ووفاتهم، والاصطفاء هو الاختيار والانتقاء للأجود والأحسن، وهم من آمن بمحمد ﷺ، وهم خير الأمم وأتمها وأكملها على من سبقها، فأعطاهم القرآن وورثوا العمل به وحفظه والدعوة إليه بعد رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة أصناف، رتبهم ترتيباً تصاعدياً بدأ

بالأدنى ثم الأوسط ثم الأعلى، والراجح من أقوال جمهور المفسرين أنهم كلهم من أمة محمد ﷺ، وأنهم ممن يدخلون الجنة، ولكن تتفاوت رتبهم فيها بتفاوت أعمالهم، فبدأ بصنف الظالم لنفسه حتى لا يياسوا، ولكثرة عددهم، وآخر السابقين حتى لا يُعَجَبُونَ بأنفسهم، ولقلة عددهم، فالظالم لنفسه هو الذي عمل الصغائر، ثم ذكر صنف المقتصدين وهم المتوسط في أمر الدين، الذي لا يميل إلى جانب الإفراط، ولا إلى جانب التفريط ثم ذكر صنف السابقين، وهم الذين سبقوا غيرهم في أمور الدين، وهم خير الثلاثة<sup>(1)</sup>، وقيد السابق بالخيرات بإذن الله؛ لأنه يسبق إليها بتوفيق الله له، لا بمحض قوته، فلا يغتر بعمله الصالح، وأضاف السبق إلى الخيرات، لكثرة فعله لها، فالظالم لنفسه قلَّ خيرُه، والمقتصد نقص خيرُه، والسابق زاد وكثر خيرُه، والخير هو كل عمل صالح من قول أو اعتقاد أو فعل، ويشمل كل فعل الخير الذي بين العبد وربه وفعل الخير الذي بين العبد والخلق، واسم الإشارة يعود إلى توريث الكتاب والاصطفاء، فهو تفضّل من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على هذه الأمة، ووصفه بالكبير، **أي:** الذي لا يقادر قدره، فكل ما تخيّلت من أوصاف هذا الفضل فهو كبير، لأنه من الكبير سبحانه، ثم بيّن هذا الفضل بأنه دخول جنات عدن التي يقيمون فيها ولا يخرجون منها، وأتى بواو الجماعة؛ ليشمل دخول الثلاثة الأصناف السابقة الجنة جميعاً، وإن اختلفت درجاتهم فيها، ثم وصف حالهم في الجنة بأنهم يلبسون فيها الحُلِي، ومنها لبس الأساور، وهي جمع أسورة، وهي التي تُوضع

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 401).



في اليد، وهي من الذهب الموشى باللؤلؤ، الذي يُعطي جمالاً ومنظراً ولوناً ساطعاً للذهب، ويلبسون كذلك في الجنة الحرير، وهو الناعم من الثياب، وقد كان الذهب والحرير مُحَرَّمًا على الرجال في الدنيا، كما في الحديث أن النبي ﷺ رفع الذهب والحرير وقال: "هذان مُحَرَّمان على ذكور أمتي حُلٌّ لِنَاثِهِمْ"<sup>(1)</sup>، فأباحه الله لهم في الجنة؛ لأنها دار جزاء ونعيم، وليست دار ابتلاء واختبار.

**وقوله:** ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) **الذِّى** أَلْحَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَسْتَنَافِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسِّنَا فِيهَا نُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ **الساو:** واو الحال، **أي:** قالوا الحمد لله، حال دخولهم الجنة على تحقيق وعده لهم بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وذهاب كل ما كان يُحزِنهم في الدنيا وفي القبر وفي المحشر، وذيلوا قولهم هذا بذكر اسمين من أسمائه الحسنى وهما الغفور والشكور، فهو غفورٌ لمن قصّر، شكورٌ لمن عمل القليل من الخير، ثم بيّن بعض نعم الله عليهم فقد أنزلهم وأسكنهم بفضله وكرمه الجنة، ووصفها بالدار التي تدوم فيها الإقامة، ويرغب من دخلها بالمقام فيها، لكثرة خيراتها، وأبعد عنهم فيها النصب واللغب، **والنصب:** تعب الأبدان والأجساد، **واللغب:** تعب النفوس، وهو ثمرة للنصب<sup>(2)</sup>، فإذا تعب الجسد تألمت النفس، والمس الإصابة في ابتداء أمرها<sup>(3)</sup>، فنفى تعرّضهم لأدنى شيء من ذلك.

(1) مسند أحمد: (32 / 276)، برقم: (19515)، وسنن النسائي (8 / 160)، برقم: (5146)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1642).

(3) التحرير والتنوير: (22 / 317).



**وقوله:** ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣٦)، فلما انتهى من ذكر حال المؤمنين في الجنة، ذكر حال الكافرين في النار، فبيّن أنهم في نار جهنم يعذبون فيها على سبيل الدوام، فلا يصيبهم الموت فيها فينتهي إحساسهم بالعذاب، ولا يخفف عنهم من شدته، بل يظلون في العذاب الشديد الدائم، **كما قال:** ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: 74]، بل تُجدد أجسادهم ليدوقوا العذاب، **كما قال:** ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]، وهذه الآية جاءت جواباً على طلب أهل النار، **كما في قوله:** ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: 77]، **وقوله:** ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخَفُّ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 49]، فلم يلبي طلبهم، بل نفى عنهم ما أرادوا!، ومثل هذا الجزاء الذي نزل بهؤلاء الكفار سينزل بكل كافر مشرك شديد الكفر، وفي هذا تهديد لأهل مكة الذين كانوا يكفرون بمحمد ﷺ.

**ثم قال في وصف حالهم وهم في النار:** ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٧)، **الواو** عاطفة على ما سبق، ويصطرخون صيغة مبالغة من الصراخ، وهو النداء بصوت مرتفع، **أي:** يُنادون بأعلى أصواتهم ويستغيثون ربهم أن يخرجهم من النار، وأن يرجعهم إلى الدنيا لكي يعملوا عملاً صالحاً، وهو التوحيد والإيمان غير الذي كانوا يعملونه من قبل وهو الشرك والكفر بالله، **فرد الله عليهم:** ألم تكونوا تعيشون في الدنيا قد أُعطيتُم عمراً كافياً للإيمان والعمل الصالح؟! وهو استفهام توبيخ



لهم!، فقد أعطاكم الله عمراً كافياً للاتعاظ والعبرة، فلم تحصل منكم، وفي الحديث: "أعذر الله إلى امرئٍ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة" (1)، وهذا في الغالب هو عمر الشخص في أمة محمد ﷺ، كما في الحديث: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك" (2)، والنذير هم الأنبياء والرسل في قول جمهور المفسرين (3)، وأعظم نذير لهذه الأمة هو محمد ﷺ، فلم تؤمنوا بهم، فلا حجة لكم عند الله، فذوقوا عذاب النار جزاء كفركم به، وعبر بالوصف وهو الظلم بدلاً عن الضمير، ليشمل الحكم كل من اتصف به، فكل ظالم كافر فلن ينجو ولن يخفف عنه من عذاب الله سبحانه وتعالى.

**ثم قال:** ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨)، بعد أن ذكر الله جزاء المؤمنين والكافرين ختم بهذا الآية التي تدل على سعة علمه وإحاطته بالخلق، فهو عالم غيب السموات والأرض، فإذا كان يعلم ما غاب؛ فمن باب أولى أن يعلم ما ظهر وشوهد، وذوات الصدور هي الوسوس والخواطر الموجودة داخل النفس الإنسانية التي يفكر بها الإنسان وتخطر على باله ولم يتكلم بها، ولا يعلم بها أحدٌ إلا الشخص، وفيها إشارة إلى أن الله يجازي كل إنسان على نيته، وفي هذا تهديد ووعد على من يُسرّ شراً، وترغيب ومدح لمن يُسرّ خيراً.

(1) صحيح البخاري: (89 / 8)، برقم: (6419).

(2) سنن الترمذي: (445 / 5)، برقم (3550)، وسنن ابن ماجه: (1415 / 2)، برقم: (4236)،

وإسناده حسن.

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (441 / 4).



## فوائد وهدايات من الآيات :

- 1- بيان فضل رسول الله ﷺ على سائر الرسل، وفضل القرآن الكريم على سائر الكتب، وفضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم.
- 2- بيان أن المؤمنين تتفاوت أعمالهم الصالحة، ولذلك تتفاوت درجاتهم في الجنة.
- 3- بيان أن عمرك أمانة عندك، فاستغله في طاعة الله حتى لا تتمنى العودة إلى الدنيا مرة أخرى.
- 4- بيان إحاطة علم الله ﷻ بِسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكل شيء.



## تفسير المقطع الخامس من سورة فاطر

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

**قول الله تعالى:** ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩)، هذا امتنان



من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على عباده، حيث جعلهم يخلف بعضهم بعضاً في الحياة على هذه الأرض، فالأبناء يخلفون الآباء، والصغار يخلفون الكبار، والأحياء يخلفون الأموات، وأرسل فيهم الرسل يدعونهم إلى الإيمان بالله، من كفر فعقوبة ذلك الكفر وإثمه على نفسه، ولا يُعاقب إنسان بذنب غيره، ولا يزيد الكافر استمراره في الكفر إلا بُغضاً عند الله، والمقت أشد البغض<sup>(1)</sup>، ولا يزيدهم كفرهم بالله إلا خسارة لهم، فجمع لهم عقوبتين بسبب استمرارهم على الكفر: شدة بغض الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لهم، وخسارة أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة.

**وقوله:** ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنِ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾، **قل يا محمد للمشركين:** أخبروني عن حال أصنامكم الذين جعلتموهم شركاء لله في الألوهية، وتعبدونهم من دون الله، هل خلقوا شيئاً من الأرض، ولو جزءاً يسيراً منها؟، ثم انتقل بالسؤال إلى السماء، وهل لهم نصيب مع الله في السموات البعيدة عنهم؟! **وهو سؤال استنكاري** تقرّعي لهم، فإنهم يُقرون أن الأصنام عاجزة عن ذلك كله، ثم سألهم عن دليلهم السمعي، فهل أعطيناكم كتاباً فيه حجة وبرهان تجوّز لكم عبادة غير الله؟! **وهو سؤال استنكاري** تقرّعي لهم أيضاً، فتبيّن أنه لا دليل عقلي ولا شرعي لديهم على شركهم بالله، بل شركهم بالله ناتج عن المواعدة الباطلة من الرؤساء والكبراء

(1) تفسير النسفي: (91 / 3).



لمن دونهم، والأماشي الكاذبة التي يتوارثها الأبناء عن آبائهم الكفار، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23]، فهذا هو سبب وقوعهم في الشرك وليس معهم دليل عقلي ولا شرعي، بل يخدع المتقدم من بعده فيجعله يسير على طريقته ومذهبه، اتباعاً للحمية الجاهلية، والاعتداد بما كان عليه الآباء والأجداد من عادات باطلة، كما وقع لأبي طالب في آخر حياته، حيث زاره رسول الله ﷺ ليدعوه إلى الإسلام، لعله أن يسلم قبل أن يموت، وكان عنده أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقال له رسول الله ﷺ: "قل: لا إله إلا الله"، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فقال: هو على ملة عبد المطلب، ومات عليها<sup>(1)</sup>.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾<sup>(٤١)</sup>، هذا بيان وإثبات لقدرته الله وعظمته وإبداعه في خلقه، بعد أن نفى الشريك له في الخلق أو التصرف في الكائنات التي في السماء والأرض، فقد خلق هذه السموات وركبها على هذه الأرض كالقبة المَجُوفَة بدون أعمدة، وهو الحافظ بقدرته نظام بقائهما، والزوال يطلق على العدم، ويطلق على التحول من مكان إلى مكان<sup>(2)</sup>، ولو حصل لها نوع من الخلل وخرجت عن وضعها الذي خلقها الله عليه، ما استطاع أحد من الخلق أن يحفظها، فهو الحافظ للكون المسير له سبحانه، وذيل الآية باسمين من أسمائه

(1) ينظر الحديث في صحيح البخاري: (2 / 95)، برقم: (1360).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (22 / 328).



الحسنى؛ فهو حلیم بالخلق الذين يُبارزونہ بالكفر والمعاصي، فلم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم، وهو غفور لذنوب من تاب ورجع منهم.

**ثم قال:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ﴾ (٤٢) **أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٣)، **الضمير يعود على مشركي مكة**، فقد كانوا يقسمون أيما مغلظة لو بُعث فيهم رسول منهم ليؤمنوا به ويكونوا أحسن حالاً من الأمم المكذبة السابقة برسلها، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤمنوا به، بل نفروا عنه وأعرضوا عن الإيمان به، وما زادهم إرسال الرسول منهم إلا شدة ابتعاد عن الإيمان وتكذيباً بالحق الذي جاء به، فلم يُبروا بأيمانهم التي كانوا يحلفونها قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعُلِّل امتناعهم عن الإيمان بسبب شدة تكبرهم عن الحق، فالسین والتاء للمبالغة، وبسبب مكرهم السيئ، **والمكر:** هو الحيلة والخداع والعمل القبيح<sup>(١)</sup>، **وفي ذلك إشارة إلى** أن قسَمهم لم يكن لقصد حسن، ولا لطلب للحق، بل كانوا يريدون به المكر والخداع للناس<sup>(٢)</sup>، **ثم بين** أن عاقبة المكر السيئ تعود على الماكر نفسه بالهلاك، فكل من يمكر مكرًا سيئًا بالآخرين، فعاقبة مكره ترجع عليه، فهل ينتظرون أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم الهلاك الذي نزل بالمكذبين المستكبرين قبلهم؟! **وهو سؤال تعجبي****

(١) فتح القدير للشوكاني: (4 / 408).

(٢) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 691).



للتقريع والتوبيخ لهم لعلهم أن يسارعوا إلى الإيمان قبل نزول الهلاك بهم، وسنن الله هي عاداته المنضبطة التي تسير وفق نظام مُتَقَن، فلا يحصل فيها تبديل ولا تحويل، **فالتبديل هو:** التغيير، والتحويل هو: النقل، وكلا الأمرين غير وارد في سنن الله لأنها منتظمة ومُتَقَنَة، ومن سماتها الثبات والاستمرار وعدم التخلف، **والمقصود بها هنا** أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، حَلَّتْ به نقمة الله، وسُلبت عنه نعمته، وقد حاق بهم مكرهم السيئ في الدنيا بالقتل والأسر، ونحوها من المصائب التي نزلت بهم، وانتصر الإسلام وفشلت جهودهم الماكرة في محاربته.!

**ثم قال الله:** ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾، أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا، النظر هنا يُقصد به نوعي النظر: النظر البصري، والنظر القلبي، وهو التأمل والتفكير فيما يرى ببصره من آثار العقوبات التي نزلت بالمكذابين من الأمم السابقة فيأخذوا منها العبر والعظات، وقد كانوا أشد قوة من قريش، فما أغنت عنهم قوتهم شيئاً، ولا دفعت عنهم عذاب الله الذي نزل بهم، بل نفذت فيهم قدرة الله ومشيتته، فإنه لا يقف أمامها شيء في الأرض ولا في السماء، وذيل الآية باسمين من أسمائه الحسنی، وهما العليم القدير، فالعجز يأتي من الجهل أو من الضعف، فنفى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن نفسه ذلك وأثبت لها كمال العلم وكمال القدرة.

**ثم قال سبحانه:** ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا



مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبْكَ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ  
بَصِيرًا ﴿٤٥﴾، في هذه الآية بيانٌ لحلم الله على المكذبين والمجرمين من الخلق،  
وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم لعلمهم يتوبون، فلو يعجل الله للناس  
العقوبة بسبب ما كسبوا من الذنوب ما ترك على ظهر الأرض من دابة!، وهذا  
يعني أن المعاصي والمنكرات سببٌ لهلاك أهل الأرض من الناس والدواب،  
وقد يقول قائل: ما علاقة هلاك الدواب وهي غير مكلفة؟! **الجواب:** لأن الله  
خلق الدواب وأنعم بها وسخرها للبشر، فهلاكها عقوبة لهم بذهاب هذه النعم  
عنهم، أو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فيهلك بسببه كل شيء<sup>(1)</sup>، **ولكن**  
**اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى** ألا يُعجل العقوبة للكفار، وإنما يؤخرها إلى  
أجلٍ مكتوب عنده، وهو يوم القيامة، وسيجازيهم بما عملوا من خير أو شر،  
وهذا الإمهال للمكذبين والمجرمين لحكمة يعلمها الله البصير بأحوال عباده،  
ولا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمورهم.

### فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الكفر بالله والتكذيب لرسله سببٌ من أسباب غضب الله ومقته على  
الخلق.

2- بطلان عقيدة المشركين في أصنامهم وشركائهم، فلا دليل عقلي ولا  
نقلي يجيز لهم ذلك، وإنما وقعوا فيها بسبب خداع بعضهم لبعض

(1) ينظر: تفسير الرازي: (26 / 249).



واتباعهم لعادات الآباء والأجداد جهلاً وحمية.

3- بيان العاقبة السيئة للمكر والماكرين.

4- بيان الحكمة من إمهال الكفار وتأخير العقوبة عنهم لعلهم أن يؤمنوا

ويتوبوا من إجرامهم.



## فهرس المحتويات

|    |                                      |
|----|--------------------------------------|
| 5  | المقدمة:                             |
| 7  | تفسير جزء العنكبوت (21)              |
| 9  | تفسير سورة العنكبوت تفسير            |
| 9  | المقطع الأول من سورة العنكبوت        |
| 10 | شخصية السورة:                        |
| 17 | فوائد وهدايات من الآيات:             |
| 18 | تفسير المقطع الثاني من سورة العنكبوت |
| 26 | فوائد وهدايات من الآيات:             |
| 27 | تفسير المقطع الثالث من سورة العنكبوت |
| 35 | فوائد وهدايات من الآيات:             |
| 36 | تفسير المقطع الرابع من سورة العنكبوت |
| 44 | فوائد وهدايات من الآيات:             |
| 46 | تفسير المقطع الخامس من سورة العنكبوت |
| 55 | فوائد وهدايات من الآيات:             |
| 56 | تفسير سورة الروم                     |
| 56 | تفسير المقطع الأول من سورة الروم     |
| 57 | شخصية السورة:                        |
| 64 | فوائد وهدايات من الآيات:             |
| 65 | تفسير المقطع الثاني من سورة الروم    |



- 72..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الثالث من سورة الروم
- 73..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الرابع من سورة الروم
- 82..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الخامس من سورة الروم
- 83..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع السادس من سورة الروم
- 89..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع السابع من سورة الروم
- 90..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الثامن من سورة الروم
- 98..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع التاسع من سورة الروم

### تفسير سورة لقمان

- 99..... تفسير المقطع الأول من سورة لقمان
- 99..... شخصية السورة: تفسير المقطع الثاني من سورة لقمان
- 108..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الثالث من سورة لقمان
- 109..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الرابع من سورة لقمان
- 118..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الخامس من سورة لقمان
- 119..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع السادس من سورة لقمان
- 127..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع السابع من سورة لقمان

### تفسير سورة السجدة

- 128..... تفسير المقطع الأول من سورة السجدة
- 128..... شخصية السورة: تفسير المقطع الثاني من سورة السجدة
- 141..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الثالث من سورة السجدة
- 142..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الرابع من سورة السجدة
- 155..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع الخامس من سورة السجدة
- 156..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع السادس من سورة السجدة
- 168..... فوائد وهدايات من الآيات: تفسير المقطع السابع من سورة السجدة



169 ..... تفسير جزء الأحزاب (22) .....

171 ..... تفسير سورة الأحزاب .....

171 ..... تفسير المقطع الأول من سورة الأحزاب .....

172 ..... شخصية السورة: .....

181 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

182 ..... تفسير المقطع الثاني من سورة الأحزاب .....

191 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

192 ..... تفسير المقطع الثالث من سورة الأحزاب .....

200 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

201 ..... تفسير المقطع الرابع من سورة الأحزاب .....

208 ..... فوائد وهدايات من هذه الآيات: .....

209 ..... تفسير المقطع الخامس من سورة الأحزاب .....

216 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

217 ..... تفسير المقطع السادس من سورة الأحزاب .....

225 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

227 ..... تفسير المقطع السابع من سورة الأحزاب .....

236 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

237 ..... تفسير المقطع الثامن من سورة الأحزاب .....

243 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

244 ..... تفسير المقطع التاسع من سورة الأحزاب .....

250 ..... فوائد وهدايات من الآيات: .....

251 ..... تفسير سورة سبأ .....

251 ..... تفسير المقطع الأول من سورة سبأ .....



- 252 ..... شخصية السورة:
- 258 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 259 ..... تفسير المقطع الثاني من سورة سبأ
- 267 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 268 ..... تفسير المقطع الثالث من سورة سبأ
- 275 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 276 ..... تفسير المقطع الرابع من سورة سبأ
- 282 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 284 ..... تفسير المقطع الخامس من سورة سبأ
- 292 ..... فوائد وهدايات من الآيات:

### 293 ..... تفسير سورة فاطر

- 293 ..... تفسير المقطع الأول من سورة فاطر
- 294 ..... شخصية السورة:
- 301 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 302 ..... تفسير المقطع الثاني من سورة فاطر
- 308 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 309 ..... تفسير المقطع الثالث من سورة فاطر
- 316 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 317 ..... تفسير المقطع الرابع من سورة فاطر
- 323 ..... فوائد وهدايات من الآيات:
- 324 ..... تفسير المقطع الخامس من سورة فاطر
- 329 ..... فوائد وهدايات من الآيات:

### 331 ..... فهرس المحتويات





